

# تهافت الألقاد

---

السيد حسين الفياض

## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، من كان مؤمنا منهم ومن كان من الملحدين ، وصلى الله وسلم على خاتم الانبياء صاحب الخلق العظيم ، المرسل بالهدى ودين الحق ابي القاسم محمد وعلى آل بيته الطاهرين المعصومين ، الصراط المستقيم للإسلام المحمدي الاصيل .

قال الله تعالى في كتابه المجيد :

((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ))<sup>١</sup>

انه لما تنامى الى علمنا جنوح بعض الشبيبة في هذا العصر نحو الالحاد والتشكيك في دين الله بادرنا الى دراسة هذه الحالة دراسة علمية وعملية جادة ، بالبحث في جذورها وأسبابها ومصادرها وغاياتها ، وبالحوار الموضوعي مع اصحابها ، فهذا الكتاب هو خلاصة البحث والاستطلاعات والحوارات الكثيرة مع الملاحدة للتعرف على واقعهم الاجتماعي والثقافي ، ولسماع مشكلاتهم وشبهاتهم ودوافعهم نحو الالحاد من لسانهم ، يهدف لتوعية الشباب ولهداية طالب الهداية ، ويكشف تهاافت الالحاد ، ويسقط الاقنعة التي يتستر خلفها الملاحدة .

ربما يتوقع البعض أن يجد في هذا الكتاب أجوبة تفصيلية وردودا مباشرة على جميع أو معظم التساؤلات الفرعية والشبهات الثانوية التي ينشرها الملاحدة حول سيرة الرسول الاكرم والقرآن الكريم والتشريعات الاسلامية ، إلا أن هذا التوقع غير صحيح فنحن هنا ركزنا على عرض ومناقشة الاسس الكلية العامة التي يرتكز عليها الإلحاد كظاهرة عالمية غير مختصة بالوسط الاسلامي ، وذلك لعدة غايات منها :

١- أن يكون للكتاب فائدة عالمية فلا يقتصر على الوسط الاسلامي .

<sup>١</sup> - سورة النحل

٢- أن تحطيم الاسس الكلية العامة التي يرتكز عليها الإلحاد ، يوجب سقوط جميع الدعاوى والشبهات الفرعية الثانوية التي يستند اليها الملاحدة في محاربة الاسلام ، لأن جميع شبهات الملاحدة هي مبنية على هذه الاسس العامة ، وسقوط الاساس يستلزم سقوط البناء دفعة واحدة .

٣- أن عرض واثبات تعدد فرضيات الملاحدة وتناقضها في الاسس الكلية العامة ، يكشف الخداع الاعلامي الذي يمارسه تيار الملاحدة الجدد بالترويج للإلحاد بحسب فرضيتهم الخاصة.

٤- كثرة الشبهات الثانوية الخاصة مما لا يستوعب الرد عليها كتاب ، فهي باب مفتوح طالما هناك اعلام الحادي مفتوح وقلة وعي وعدم خبرة ، وهذا الكتاب يهدف الى فضح الاعلام الالحادي وزيادة الوعي والخبرة ، ونحن اجبنا بالفعل على اهم شبهات الملاحدة الثانوية في هذا الكتاب ، وإن كانت جميعها أو هن من بيت العنكبوت .

لأجل هذا ركزنا على عرض ومناقشة الاسس العامة للإلحاد فقسمنا الكتاب الى توطئة واربعة فصول ، عرضنا في التوطئة توضيحا مبسطا لمفاهيم الالحاد وال(لا أدرية) والربوبية وال(لا دينية) والارتداد ، للتوعية بمعاني هذه المصطلحات وأصلها وتمييزها من بعض . والفصل الاول تصدى لعرض ومناقشة الاساس العام الاول للإلحاد وهو دعوى أصالة الإلحاد وفرعية الدين ، وقمنا فيه بسرد تاريخي موجز لقصة الإلحاد مستقصيا الجذور ومتتبعا للسيرورة التاريخية ومشفوعا بالتحليل والنقد ، فكان هذا البحث مما انفرد به هذا الكتاب . ثم كان الفصل الثاني مكملًا للفصل الاول وذلك بعرض ومناقشة اشهر فرضيات الملاحدة حول أصل الدين ثم عرض العقيدة الاسلامية في أصالة الايمان والدين و وهمية الإلحاد . أما الفصل الثالث فاختص بعرض ومناقشة الاساس العام الثاني للإلحاد وهو دعوى قدسية العلم وكفايته للمعرفة وتقاطعها مع الدين وتأبيده للإلحاد ، والفصل الرابع اختص بعرض ومناقشة الاساس العام الثالث للإلحاد وهو دعوى وهمية الأخلاق الحميدة أو عدم حاجة الأخلاق للدين

ودعوى تعارض الدين مع الأخلاق ، ثم في نهاية الكتاب ألقنا خلاصة لأهم الدوافع نحو الإلحاد واسباب انتشاره .

حاولت المحافظة على الأيجاز مع بساطة العبارة إلا ما يفرضه واقع بعض المطالب من الدقة العلمية والمصطلحات الخاصة ، راجيا أن يسهم هذا الكتاب في نشر و زيادة الوعي لدى الشباب ، وادعو الله أن ينفع به وأن يجعله ذخيرة لي في يوم المعاد .

السيد حسين الفياض

النجف الأشرف

١٤ / ٢ / ٢٠٢٠ م

توطئة

في بيان بعض المفاهيم

## ١ - الإلحاد (( Atheism ))

اللحد والالحاد في اللغة بمعنى : الميل والانحراف عن الوسط ، والملحد هو المائل المنحرف عن حد الاعتدال ، ولحد القبر هو الشق الذي يكون في جانب من حفرة القبر يوضع فيه الميت<sup>(١)</sup> ، وقد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة في معناها اللغوي نفسه ، فقال تعالى :

((وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) ))<sup>٢</sup> حيث افترى بعض المشركين ومال عن الحق فزعم بشرية القرآن ونسبه لغير الله ، كما يفعل الملاحدة اليوم ، مدعيا ان النبي محمد صلى الله عليه واله وسلم قد تعلم وتلقن القرآن من بعض الاعاجم اي غير العرب ، فرد الله تعالى على زعمهم بأن لسان الرجل الذي تميلون اليه وتنسبون اليه القرآن ، هو لسان اعجمي غير فصيح وهذا القرآن هو لسان عربي مبين في اعلى درجات الفصاحة والبلاغة فكيف يتصور صدوره من رجل اعجمي اللسان ! .

وقال تعالى : ((وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ))<sup>٣</sup> أي ان صفات الكمال المطلق هي حق حصري لله سبحانه فصفوه واعرفوه واعبدوه بها ، واتركوا المنحرفين عن الحق الذين ينسبون صفات الكمال المطلق لغير الله كالملاحدة الذين ينسبون صفات الله الى المادة ، واتركوا الذين ينسبون صفات النقص لله كالذين ينسبون الجسم والمكان والولد لله سبحانه ، فإن كل ذلك هو انحراف وميل عن الصراط المستقيم والدين القويم والفطرة السليمة .

(١) راجع : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (( لحد )) ، ج ٣ ص ٣٨٨ - مفردات الفاظ القرآن ، الراغب الاصفهاني ، مادة (( لحد )) ، ج ٢ ص ٣٣٢

٢ - سورة النحل

٣ - سورة الاعراف

وقال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَوْنَ عَلَيْنَا أَمْ مَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَبِيرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠))<sup>١</sup> أي ان الذين يكفرون بآيات الله ويحرفون دلالاتها ويميلون بها الى غير جهتها الحقيقية ، وهي شواهد وجود الله وربوبيته ورسالته فينسبون آيات الله التكوينية كالشمس والقمر واختلاف الليل والنهار وتصريف الرياح لغير الله ، او ينسبون آيات الله القرآنية للبشر فيزعمون انها اساطير الاولين ، اولئك ليسوا بمؤمن من العذاب ، فالله اعلم بمكرهم ولكنه يمدهم في طغيانهم يعمهون .

وقال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥))<sup>٢</sup> اي ان الذين يصدون الناس عن دين الله الحق وعن البيت الحرام الذي جعله الله مثابة وأمنا للناس جميعا ، ومن ييغون فيه الفساد والانحراف والميل عن القصد الذي وضعه الله لأجله وهو الهدى لدين الحق ، اولئك لهم العذاب الشديد جزاء على فعلهم هذا .

الاحاد اذن بحسب اصل اللغة العربية ، وبحسب الاستعمال القرآني يشمل كل ميل وانحراف عن الجادة الوسطى في كل شيء ، ولا يختص بالجانب الديني العقائدي ، ولكن شاع استعمال هذا اللفظ بعد ذلك في الانحراف الديني فقط ، فأصبح لفظ الاحاد ينصرف عند الاطلاق الى الانحراف والميل عن الدين الحق . والاحاد بهذا المعنى يشمل من لا يؤمن بوجود اله خالق للكون اصلا ، ويشمل من يعتقد بوجود اله غير الله كما يشمل من يتخذ دينا غير دين الله . ونحن بحسب اطلاعنا وحواراتنا مع الملاحدة الجدد وجدنا اكثرهم يحصر الاحاد في خصوص انكار وجود اله خالق للكون ونسبة وجود الكون الى المادة فهو كما يقولون : (( عقيدة قوامها انكار وجود الله ))<sup>٣</sup> ، ولكن الملاحدة بهذا المعنى فئة نادرة بحسب الاستطلاع الموافق للعقل ، حيث انه يستحيل عقلا ان ينكر عاقل وجود اله

١ - سورة فصلت

٢ - سورة الحج

٣ - موسوعة لالاند الفلسفية ، اندريه لالاند ، مادة (( ATHEISME )) ج ١ ص ١٠٧

خالق للكون بنحو الجزم ، الا من سفه نفسه والغى عقله ، بل وجدنا اكثرهم شكاكين لا ادريين . واللا أدرية (( agnosticism )) هو مصطلح ابتكره توماس هاكسلي في القرن التاسع عشر الميلادي ليعبر عن الحالة الوسطية بين الالحاد الجزمي والايمان ، واللا أدري : هو الشخص الذي يعتقد أن لا شيء مؤكد بوجوده او عدم وجود الله (١) .

من هذا يظهر أن المناسبة بين الالحاد في الله ولحد القبر هي كون الالحاد في الله اقبارا للفطرة البشرية ودفنا للعقل ، حيث ان الانسان مفطور على الايمان بوجود الله ، والعقل حاكم باستحالة وجود هذا الكون دون خالق عليم حكيم خبير قدير ، وكما قال تعالى : ((فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمِّي عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) )) ٢ .

الإلحاد هو موت حقيقي لإنسانية الانسان وليس مجازيا ، بخروجه عن الرتبة الانسانية للوجود ، وما تراه من ملاحظة انما هي كائنات اخرى ظلت متلبسة بالصورة البشرية فلا تغرك صورها . على ان كلامنا هذا عن الملحد المنكر بضرر قاطع ، المعاند المستكبر ، وهم كما اشرنا شرذمة قليلون ، أما اكثرهم فهم شكاكون لا أدريون نرجو لهم الهداية .

الخلاصة ان للإلحاد معنيين هما المقصودان في بحثنا :

الاول : الالحاد بالمعنى الاعم وهو مطلق الانحراف عن الدين الحق .

الثاني : الالحاد بالمعنى الاخص وهو خصوص انكار وجود اله خالق جزما او تشكيكا ونسبة الكون الى الطبيعة .

(١) راجع : الموسوعة البريطانية ، مادة (( Agnosticism ))

٢ - سورة الروم

## ٢- الربوبية (( Deism ))

الرَّبُّ يطلق في اللغة على المالك والمدبر للأمور ، والربوبية هي الملكية والتدبير ، والتربية تعني التكفل بالرعاية وتنشئة الشيء حالا فحالا إلى حد التمام ، والرَّبِّيُّ والرَّبَّانِيُّ: المنسوب الى الرب أو العالم العارف بالله ، قَالَ سَيِّبَوِيهِ: زَادُوا أَلْفًا وَنُوتًا فِي الرَّبَّانِي إِذَا أَرَادُوا تَخْصِيصًا بَعْلَمِ الرَّبِّ دُونَ غَيْرِهِ ، كَأَنَّ مَعْنَاهُ: صَاحِبُ عِلْمٍ بِالرَّبِّ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ<sup>(١)</sup> ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (( وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَلُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ))<sup>٢</sup> وَقَالَ تَعَالَى : (( مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُبَشِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) ))<sup>٣</sup> .

هذا بحسب اللغة العربية والاستعمال القرآني ، اما الملاحظة فقد وجدناهم يستعملون كلمة الربوبية في معنى اخر وهو : الاعتقاد بوجود خالق للكون من دون تشخيص اسمه ومن دون الاعتقاد بنبوة او شريعة او معاد ، وتعرفها الموسوعة المختصرة للفلسفة : (( هو الاعتقاد بأن هناك الها وكاننا اسما ، خيرا حكيما قد خلق العالم لكنه لم يعد يتدخل فيه ))<sup>٤</sup> ، وفي قاموس ميريام وبستر : ((حركه أو نظام فكري يدعو الى الدين الطبيعي والتأكيد علي الأخلاق في القرن الثامن عشر ، ينكر تدخل الخالق مع قوانين الكون ))<sup>٥</sup> ، وحسب موسوعة لالاند الفلسفية فإنه (( في الفرنسية ، احتفظ مفهوم تأليه طبيعي بمعنى اصلي ازدرائي غالبا ، فقد استعمله

(١) راجع : لسان العرب ، مادة (( ريب )) ، ج ١ ص ٣٩٩

- مفردات الفاظ القرآن ، مادة (( رب )) ، ج ١ ص ٣٧٥

٢ - سورة آل عمران

٣ - سورة آل عمران

٤ - الموسوعة الفلسفية المختصرة ، جوناثان رى ، مادة (( مذهب المؤلهة الربوبية )) ، ص ٣١٧

٥ - قاموس ميريام وبستر ، مادة (( Deism ))

الارثوذكسيون كمصطلح تحقيري يقال على اولئك الذين يكتفون بالإيمان بالله دون التسليم بالمذاهب وبالعبادات الخاصة بدين معين ))<sup>١</sup> .

فالربوبية - بحسب هذه القواميس الغربية - هي الاعتقاد بوجود كائن اسمى خلق الكون واعتزل التدخل في شؤونه . وتؤرخ لها دائرة المعارف البريطانية فتقول : (( الربوبية ، وهو موقف ديني غير تقليدي وجد تعبيرا بين مجموعة من الكتاب الإنجليز بدءا من إدوارد هيربرت في النصف الأول من القرن السابع عشر وينتهي مع هنري سانت جون ، أول فيسكونت بولينجبروك ، في الوسط من القرن الثامن عشر . بعد ذلك ألهم هؤلاء الكتاب موقفا دينيا مماثلا في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية الاستعمارية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . بشكل عام ، تشير الربوبية إلى ما يمكن تسميته بالدين الطبيعي ، أو قبول نوع معين من المعرفة الدينية المولودة في كل شخص أو التي يمكن اكتسابها عن طريق استخدام العقل ورفض المعرفة الدينية عند اكتسابها بالوحي أو تدريس كنيسة ))<sup>٢</sup> .

فالربوبي هو من يعتقد بوجود إله خالق للكون ، ولكن لا يعتقد ان هذا الخالق هو الله سبحانه ، او اي اله من آلهة الاديان غير السماوية ، بل هو بحسب وصفهم (( كائن اسمى )) من كل ذلك ، قد اودع في الكون قوانين تسييره ، واودع في الانسان عقلا يميز فيه الصواب والخطأ ، ثم اعتزل التدخل في شؤن الكون والبشر فلا حاكمية له على خلقه . والربوبية بهذا المعنى هي نحو من الالحاد بحسب المعنى الاول العام الذي ذكرناه للإلحاد سابقا ، حيث انها انحراف عن الدين الحق وانكار لوجود الله تعالى ، واما بحسب المعنى الثاني الخاص للإلحاد وهو انكار وجود إله اصلا ونسبة الكون الى الطبيعة فأن الربوبية ليست الحادا والربوبي ليس ملحدا وانما هو شخص مازال يتمتع بشيء من العقل وسلامة الفطرة فلم يتجرع مسألة نسبة الكون العظيم الى الطبيعة العمياء والصدفة الهوجاء ، وهذه نقطة

<sup>١</sup> - موسوعة لالاند الفلسفية ، مادة (( Deism )) ، ص ٢٥٨

<sup>٢</sup> - الموسوعة البريطانية ، مادة (( Deism ))

ايجابية له ، ولكنه في ذات الوقت شخص مهزوز ، ضعيف الارادة ، يخادع نفسه ، ولا يجرؤ على الاقرار بأن هذا الاله الخالق الذي يعتقد بوجوده انما هو الله العليم الخبير الحكيم القدير المتصف بكل صفات الكمال المطلق والمنزه عن كل نقص ، وانه لم يخلق هذا الكون باطلا وعبثا وانما لغاية ، وانه ارسل الانبياء والمرسلين بشرائع الدين لتحقيق هذه الغاية ، وانه لا يرد راد الناس الى معاد بعد الموت ليروا اعمالهم . الربوبي من هذه الناحية شخص متأرجح ، ويظن نفسه انه افضل حالا من الملدح المنكر لوجود خالق للكون بقيامه بحركة مسك العصا من الوسط ، فلا هو ملحد منكر لوجود خالق للكون لأن هذا الأمر محض إلغاء لعقله وطمس لفطرته ، ولا هو مؤمن بالله ورسله واليوم الاخر لأن هذا الأمر تترتب عليه مسؤوليات شرعية هو يريد الهروب منها ، او هو تكتنفه شبهات لم يستطع عقله القاصر ان يردها ، فيقنع نفسه ويخادعها بأن الحل الاسلام هو البقاء في منتصف الطريق ، في المنطقة الوسطى بين ظلام الالحاد ونور الايمان ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون . فالحق ان الربوبي من حيث الحالة النفسية اسوأ حالا من الملدح المنكر لوجود خالق للكون ، لأن الملدح الجاحد كائن قد اقبر عقله ودفن انسانيته فأستراح في غياهب ظلمته البهيمية ، أما الربوبي فهو اطلال انسان معذب بما تبقى عنده من ذرة عقل وفطرة انسانية ، الربوبية هي انين انسان معذب ، محبط ، يسعى عبثا ان يوهم نفسه بالسعادة وقد قال الله تعالى : ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) ))<sup>١</sup> .

الخلاصة ان الربوبية هي نحو من الالحاد بحسب المعنى الاول للإلحاد ، وهي حالة وسطى بين الالحاد والايمان الحق بحسب المعنى الثاني له .

<sup>١</sup> - سورة طه

### ٣- اللا دينية (( Irreligious ))

مصطلح يطلق - بحسب تتبعنا - على الاعتقاد بوجود الله وحاكميته للكون لكن مع عدم التزام بدين معين ، والشخص اللا ديني هو شخص يؤمن بوجود الله تعالى ويعتقد بحاكميته و تدبيره ، أي تدخله في إدارة شؤون الكون ، كما هو يعتقد بالمعاد ، ولكنه يكذب النبوات والاديان ، فهو يرى ان النبوة هي افتراء على الله تعالى وان الاديان هي صناعة بشرية ، وأن الدين إنما هو حالة روحية وعلاقة خاصة بين العبد وربه ، فهو يتعبد الله بطريقته الخاصة التي يبتدعها هو بحسب ما يلائم مزاجه الخاص . وبهذا يفترق اللا ديني عن الربوبي الذي يؤمن بوجود ((كائن اسمي )) غير مسمى قد خلق الكون ثم اعتزل ، وإن كان يشترك معه في تكذيب النبوات والاديان . فالربوبية تنكر حاكمية الله التكوينية والتشريعية ، بينما اللا دينية تسمح بحاكمية الله التكوينية وترفض حاكميته التشريعية .

واللا دينية بهذا المعنى هي عبارة عن الحاد مبطن حين لا تقوى النفس على مجاهرة الله بالإنكار والتمرد عليه ، فتتوجه الى الحلقة الواصلة بين الله والعباد وهي النبوة فتنتكرها ، متخذة من ذلك القناع ذريعة للتحلل من الدين وما يترتب عليه من مسؤوليات والتزامات ، ومتخلصة - بحسب وهما - من شبهات حول الاديان لم تستطع ان تستوعبها . والحق ان ذلك قناع مفضوح لا يستتر صاحبه ولا يخلصه من ضرورة الاقرار بأنبياء الله والدين الحق ، كما قال الله تعالى : (( رُسُلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ لِّئَلَّا يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ))<sup>١</sup> .

واحيانا كثيرة يطلق مصطلح اللا دينية بشكل عام ليشمل كل من الالحاد الجازم واللا أدرية والربوبية ، حيث يشترك الجميع في عدم الايمان بالنبوة والاديان ، كما يشير الى ذلك قاموس ميريام وبستر عندما يعرف اللا دينية بأنها : (( إهمال الدين : غياب المشاعر الدينية ، أو العقائد

<sup>١</sup> - سورة النساء

(( واحيانا اخرى - خاصة في الاعلام - يطلق ويراد به الالحاد بالخصوص ، فبدل ان يقال عن شخص انه ملحد يقال عنه انه لاديني وذلك بهدف التضليل الاعلامي والتخفيف من وقع كلمة (( الحاد )) على الاسماع .

#### ٤ - الارتداد

الرد : في الاصل هو الرجوع ، يقال رددت الشيء اي ارجعته ، والردة هي العودة الى الحالة السابقة ، والارتداد هو الرجوع الى الحال او الوضع السابق قبل حصول التحول والانتقال ، قال تعالى : ((قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) ))<sup>٢</sup> اي رجعا في الطريق نفسه الذي جاء منه ، والارتداد في الدين هو الكفر والرجوع عن الاسلام (٣) .

والارتداد قسمان : ارتداد عن فطرة وارتناد عن ملة ، فالارتداد عن الفطرة هو ان يكون الشخص مسلما بحسب فطرة الله التي فطر الناس عليها ، اي غير مسبوق بحالة كفر ، ثم يكفر بعد ذلك ويخرج عن الاسلام ، وارتداده عن الاسلام هو بمعنى الرجوع الى حالة المادة الميتة قبل ان يخلقه الله انسانا ويفطره على الاسلام ، فهو تسافل عن الرتبة الانسانية ، قال الله تعالى : (( كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ))<sup>٤</sup> ، أما الارتداد عن ملة فهو ان يكون الشخص مسبوقا بحالة كفر فينتحل الاسلام ويتخذه ملة ثم يكفر ويرجع الى حالة الكفر السابقة .

١ - قاموس ميريام وبستر ، مادة (( irreligious ))

٢ - سورة الكهف

(٣) راجع : لسان العرب ، مادة (( ردد )) ، ج ٣ ص ١٧٢

- مفردات الفاظ القرآن ، مادة (( الرد )) ، ج ١ ص ٣٩٣

٤ - سورة البقرة

والارتداد بكلا قسميه جريمة عظمى يرتكبها المرتد في حق نفسه ، اذ لا يوجد اشع من تنازل الانسان عن رتبته الوجودية وانحطاطه الى مرتبة البهيمة او الحجارة ، تلك الرتبة التي كرمه الله بها وفضله بها على كثير من خلقه كما قال تعالى : (( وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ))<sup>١</sup> ، كما هو سرطان اجتماعي ينخر جسد المجتمع المسلم ويقذف به في مهاوى الرذيلة ، ولأجل ذلك جاءت احكام الاسلام المترتبة على الارتداد مناسبة لعظم هذه الجريمة وابعادها النفسية والاجتماعية الخطيرة فقال تعالى : (( وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ))<sup>٢</sup> فلا ينظر الاسلام للارتداد على أنه مجرد حرية فكرية كما يخدع الملاحدة انفسهم .

وهذه نبذة من احكام المرتد في الفقه الاسلامي :

((مسألة ٩٦٧: المرتدّ وهو من خرج عن الإسلام واختار الكفر على قسمين: فطريّ وملّيّ، والفطريّ من ولد على إسلام أحد أبويه أو كليهما ثمّ كفر، وفي اعتبار إسلامه بعد التمييز قبل الكفر وجهان، والصحيح اعتباره. وحكم الفطريّ أنّه يقتل في الحال، وتبين منه زوجته بمجرد ارتداده وينفسخ نكاحها بغير طلاق، وتعدّد عدّة الوفاة - على ما تقدّم - ثمّ تتزوّج إن شاءت، وتقسّم أمواله التي كانت له حين ارتداده بين ورثته بعد أداء ديونه كالميت ولا ينتظر موته، ولا تفيد توبته ورجوعه إلى الإسلام في سقوط الأحكام المذكورة مطلقاً على المشهور بين الفقهاء (رضوان الله تعالى عليهم)، ولكنّه محلّ إشكال فلا يترك مراعاة مقتضى الاحتياط فيه، نعم لا إشكال في عدم وجوب استنابته.

وأما بالنسبة إلى ما عدا الأحكام الثلاثة المذكورات فالصحيح قبول توبته باطناً وظاهراً، فيطهر بدنه وتصحّ عباداته ويجوز تزويجه من المسلمة، بل له تجديد العقد على زوجته السابقة حتّى قبل خروجها من العدّة على القول

١ - سورة الاسراء

٢ - سورة البقرة

ببينونتها عنه بمجرد الارتداد، كما أنه يملك الأموال الجديدة بأسبابه الاختيارية كالتجارة والحياسة والقهرية كالإرث ولو قبل توبته.

وأما المرتد المَلِيّ - وهو من يقابل الفطريّ - فحكمه أنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وانفسخ نكاح زوجته إذا كان الارتداد قبل الدخول أو كانت يائسة أو صغيرة ولم تكن عليها عدّة، وأما إذا كان الارتداد بعد الدخول وكانت المرأة في سنّ من تحيض وجب عليها أن تعتدّ عدّة الطلاق من حين الارتداد، فإن رجع عن ارتداده إلى الإسلام قبل انقضاء العدّة بقي الزواج على حاله، وإلا انكشف أنّها قد بانّت عنه عند الارتداد. ولا تقسّم أموال المرتد المَلِيّ إلا بعد موته بالقتل أو غيره، وإذا تاب ثمّ ارتدّ ففي وجوب قتله من دون استتابة في الثالثة أو الرابعة إشكال فلا يترك مراعاة مقتضى الاحتياط.

هذا إذا كان المرتد رجلاً، وأما لو كان امرأة فلا تقتل ولا تنتقل أموالها عنها إلى الورثة إلا بالموت، وينفسخ نكاحها بمجرد الارتداد بدون اعتداد مع عدم الدخول أو كونها صغيرة أو يائسة وإلا توقّف الانفساخ على انقضاء العدّة وهي بمقدار عدّة الطلاق كما مرّ في المسألة (٥٦٣).

وتحبس المرتدة ويضيق عليها وتضرب على الصلاة حتّى تتوب فإن تابت قبلت توبتها، ولا فرق في ذلك بين أن تكون مرتدة عن ملة أو عن فطرة.

مسألة ٩٦٨: يشترط في ترتيب الأثر على الارتداد البلوغ وكمال العقل والقصد والاختيار، فلو أكره على الارتداد فارتدّ كان لغواً، وكذا إذا كان غافلاً أو ساهياً، أو هازلاً أو سبق لسانه، أو كان صادراً عن الغضب الذي لا يملك معه نفسه ويخرج به عن الاختيار، أو كان عن جهل بالمعنى<sup>١</sup>.

بعد تمهيدنا هذا، ربما لا يزال البعض يعترض على قساوة هذه الأحكام ولكن نأمل بعد اكمال قراءة الكتاب أن يزول هذا الاعتراض.

<sup>١</sup> - منهاج الصالحين، السيد السيستاني، ج ٣، كتاب الميراث، ص ٣١٧-٣١٨

الفصل الاول

تأريخ الإلحاد

هناك سؤال : ايهما الاصل في البشرية هل هو الالحاد ام الايمان والتدين ؟ حيث يزعم الملاحدة ان الاصل في البشرية هو الالحاد وان التدين هو ظاهرة طارئة على المجتمع البشري لها اسبابها ، بينما يقول المتدينون بأصالة الايمان والتدين وان الالحاد حالة عرضية لها دوافعها الخاصة . هذا الفصل يتكفل بالإجابة عن هذا السؤال بعرض ابرز النماذج التي حفظها لنا التاريخ للإلحاد ، ونحن خلصنا في التوطئة الى ان للإلحاد معنيين الاول هو مطلق الانحراف عن الدين الحق والثاني هو خصوص انكار وجود اله خالق ونسبة الكون الى المادة على نحو الجزم او التشكيك ، وكذلك خلصنا الى ان الربوبية هي نحو من الالحاد ، وان اللادينية هي الحاد مبطن ، ولأجل ذلك فان ما سنعرضه من نماذج الالحاد سيشمل هذه المعاني جميعا . كما نود الفات النظر الى ان ما سنعرضه من النماذج يشمل ما كان تيارا شعبيا للإلحاد او مذهباً فكرياً او مدرسة فلسفية او غير ذلك من العناوين والمحطات التاريخية التي نعبر عنها جميعاً بكلمة (( نماذج )) ، ونحن لا نريد بذلك تكثير الملاحدة وتضخيم حجمهم فإننا لو اقتصرنا على الالحاد بمعنى خصوص انكار اله خالق للكون على نحو الجزم ، فلن تجد له الا شذمة قليلة ونموذجاً واحداً او اثنين في التاريخ كله ، وانما نحن نريد بذلك ان نبحت في جذور الالحاد وظروفه الزمانية والمكانية والاجتماعية والسياسية ، ونستعرض مقالاته ومظاهره لتشخيص حجمه التاريخي الحقيقي وكشف دوافعه واقنعتة .

## أبرز النماذج التاريخية للإلحاد

### ١- الذرية

ظهرت المدرسة الذرية كتأمل فلسفي ساذج حول طبيعة الكون في القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا في اليونان ، وكان لوقيبوس هو أول من قال بالنظرية الذرية في طبيعة العالم ، ولكن ديموقريطس هو الذي احكم صياغتها وتفسيراتها وحاول حل مشكلاتها .

قامت النظرية الذرية على افتراض فلسفي هو استحالة ان يوجد شيء من لا شيء أو ان يصير الى لا شيء لذلك ذهبت الى القول بقديم العالم ، وهو ما يعبر عنه بلغة العصر بقانون ازلية المادة ، وهو مبدأ مرادف لإنكار خلق الكون .

والكون يتألف في نظر الذريين من الذرات وهي عندهم جسيمات مادية لامتناهية من حيث عددها وحجمها وتنوع اشكالها ، تتحرك بسرعة وتتجمع لتشكل كافة ما في العالم من الموجودات الحية وغير الحية ، وعلى هذا الاساس فسروا كل ما هو موجود في الكون تفسيراً ساذجاً يبطله حتى الحس البسيط ، فاللون الابيض عندهم ما هو الا نعومة الذرات التي تشكل منها الجسم الابيض ، والرائحة اللاذعة ماهي الا خشونة الذرات التي انبعثت من الجسم لتصل الى الانف ، والصور المرئية ماهي الا ذرات انبعثت من الجسم المرئي ووصلت الى العين<sup>(١)</sup> .

انا لا نستطيع الجزم بأن الذريين اليونانيين كانوا ملحدين بمعنى انكار وجود الاله الخالق للكون وان كانت نظريتهم تنسجم مع ذلك ، ولكن بلا اشكال هم ملحدون بحسب بعض المعاني الاخرى التي ذكرناها للإلحاد ، كما اننا يمكننا ان نعتبر النظرية الذرية هي الجذر الفلسفي للإلحاد ، وأقدم

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( الذرية )) ، ص ١٥٢ - معجم الفلاسفة ، اعداد جورج طرابيشي ، مادة (( ديموقريطس )) ، ص ٣٠٧

نموذج ثابت تاريخيا للإلحاد ، وهذه النظرية - كما رأينا - تأمل فلسفي ساذج مثير للسخرية ، يبطله الحس البسيط فضلا عن التجربة والعلم الحديث ، لذا فهي لم تلق رواجاً فلسفياً ولا شعبياً حتى في وقتها ، فقد فندها أرسطو فلسفياً وبرهن على افتقار الكون إلى خالق منزه عن المادة ، كما أن المجتمع اليوناني آنذاك كان يعتقد بالآلهة المتصرفة بالعالم ، إلا أن الافتراض الفلسفي الذي قامت عليه وهو مادية الوجود بالمطلق وأزلية المادة ، هو المبدأ الفلسفي الذي قامت عليه كل نماذج الإلحاد فيما بعد وحاولت اثباته عبثاً ، فلم يتمكن الملاحدة الجدد باستخدام العلوم الحديثة من إثبات مادية كل ما في الوجود حتى الروح والعقل ، كما عجزوا عن إثبات أزلية المادة واستغنائها في وجودها عن إله خالق غير مادي ، ذلك لأن هذا الافتراض هو خلاف الإدراك الفطري السليم ، فالكرسي لا يصنع نفسه من مادته بنفسه بل هو مفتقر إلى علة فاعلية هي غيره ، وسيأتي التفصيل في ذلك إن شاء الله.

## ٢- الأبيقورية

مدرسة فلسفية ظهرت في اليونان حوالي القرن الرابع قبل الميلاد ، حيث دعا أبيقور الناس إلى حياة مادية قائمة على عدم المبالاة بالدين والقيم الأخلاقية ، فكان يقول للناس استمتعوا بملذاتكم كيفما شئتم فإن الآلهة مشغولة عنكم في شؤونها.

وتعتمد الأبيقورية على أساسين :

١- أساس لاهوتي : حيث تبنى أبيقور النظرية الذرية في طبيعة الكون ، ولم يكن أبيقور نفسه ملحداً بمعنى إنكار وجود إله للكون ، ولكن الإله بنظره قد اعتزل التحكم في الكون والتدخل في شؤون البشر .

٢- أساس أخلاقي : حيث ذهب أبيقور إلى تفسير الأخلاق باللذة والألم ، فالخير هو اللذة والشر هو الألم ، فلا قيمة لفضيلة أخلاقية في حد ذاتها

وانما الفضيلة هي كل ما يحقق لنا لذة ويدفع عنا الما ، واللذة وحدها هي الخير وهي خير على الدوام<sup>(١)</sup> .

هذه المدرسة لم تجتذب آنذاك - والى الان - إلا فئة قليلة من الناس ، وكان الابيقوريون موضع نفور عام ، حيث ان المجتمع ذلك العصر وفي كل عصر يعتقد بوجود اله خالق ويعتقد بحاكميته ، كما يعتقد بفضائل الاخلاق كقيم روحية سامية غير خاضعة لمقياس اللذة الخاصة ، على ان الاخلاق الابيقورية كانت هي الجذر الاخلاقي لجميع النزعات الالحادية فيما بعد ، فجميع مذاهب الملاحدة في الأخلاق كما سوف نرى لا تقر - نظريا - بفضائل الاخلاق كقيم روحية عامة متعالية على المادة وغير خاضعة لحسابات المنفعة الشخصية ، وان كان (( بعض )) الملاحدة جريا على فطرتهم ملتزمون - عمليا - ببعض مكارم الاخلاق .

### ٣- مذهب الشكية

هو مذهب ينظر الى امكانيات المعرفة على انها محدودة ، ويذهب في اكثر صورته تطرفا الى القول باستحالة الحصول على معرفة يقينية في حقيقة من الحقائق .

ظهر مذهب الشك كفلسفة في اليونان حوالي القرن الرابع قبل الميلاد كتعبير عن السخط على الفوضى العقلية الناتجة عن صراع المذاهب الفلسفية الجرمية انذاك ، فكان رائد فلسفة الشك بيرون يذهب الى ان الراحة العقلية لا تتم الا بترك البحث عن الحقيقة . ويندر ان يتبنى العقلاء مذهب الشك كفلسفة عامة في الحياة فهو علامة على التخبط الذهني ، كما هو ينقض نفسه بنفسه ، فالقائل بمبدأ (( استحالة تحصيل معرفة يقينية ))

---

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( ابيقور )) ، ص ١٤

ان كان شاكا في قوله هذا ثبت امكان تحصيل اليقين ، وان كان متيقنا  
جازما بقوله هذا ثبت انه ليس شاكا شاكا مطلقا<sup>(١)</sup> .

مذهب الشك هو مرض نفسي لمن يتخذه كفلسفة معرفية ونظرية في  
عالم الوجود ، لأن الانسان مفطور على طلب اليقين لتحقيق الاطمئنان  
الروحي ، وهو مبدأ علمي لمن يجعله طريقا للوصول الى الحقيقة ، فما  
ذهب اليه بيرون من ان الراحة العقلية لا تتم الا بترك البحث عن الحقيقة  
ما هو الا هذيان مخالف للفطرة السليمة ، ولذلك لم يجد مذهب الشك  
المطلق رواجاً في عصره في الوسط الشعبي ، اما في الوسط الفلسفي فقد  
فنده ارسطو بوضع قواعد المنطق الموصلة الى المعرفة اليقينية كما فند  
النظرية الذرية في طبيعة العالم والاخلاق الابيقورية<sup>(٢)</sup> . ولكن مع ذلك فقد  
ظل مذهب الشك يظهر بين آونة واخرى مرتدياً قناعاً فلسفياً مختلفاً ، كما  
في نظرية نسبية المعرفة عند أمانويل كانت ، ونظرية خيالية الادراك عند  
ديفيد هيوم<sup>(٣)</sup> . وبشكل عام نستطيع ان نقول ان مذهب الشك اليوناني هو  
الجزر النفسي لجميع نزعات الاحاد فيما بعد ، فكما قلنا في التوطئة فان  
اكثر الملاحدة هم شكاكون لا ادريون ويندر جدا أن تجد ملحدًا جازماً.

#### ٤- الدهرية

الدهر في لغة العرب بمعنى الامد والزمان الطويل<sup>(٤)</sup> ، والدهرية اسم  
يطلق على جماعة قيل أنها كانت موجودة في بلاد العرب قبل الاسلام ،  
ويقال انهم هم الذين أشير إليهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : ((  
وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ  
بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) ))<sup>٥</sup> ، وهم يقولون ببقاء الدهر ،

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( مذهب الشك )) ، ص ٣٠٦

(٢) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( ارسطو )) ، ص ٣٢

(٣) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( هيوم )) ، ص ٤٠١

(٤) راجع : لسان العرب ، مادة (( دهر )) ، ج ٤ ص ٢٩٢

٥ - سورة الجاثية

وبنكران البعث والآخرة ، وكذلك ينكرون وجود الخالق والرسول - على بعض الآراء - وينسبون كل شيء إلى فعل الدهر أي عوامل الطبيعة ، ويعتقدون بتأثيرها في حياة الإنسان وفي العالم ، ولهذا أضافوا إلى الدهر بعض الألفاظ والنعوت التي تشير إلى وجود هذا التأثير في الحياة فقالوا: يد الدهر وريب الدهر<sup>(١)</sup> .

ونحن لا يمكننا الجزم بأن جماعة الدهرية كانوا ملاحدة بمعنى انكار وجود الله ، ولكن بلا اشكال هم كانوا ينكرون حاكمية الله وتصرفه كما ينكرون الحياة بعد الموت ، وعلى فرض انهم كانوا ينكرون وجود الاله الخالق والوجود الخلقي للكون فإن الراجح انهم كانوا شردمة قليلة من سفهاء كفار العرب لا يؤبه بهم ويقولهم في المجتمع العربي آنذاك ، لان مسألة اصل وجود الله هي قضية فطرية راسخة جدا فيكون نكرانها هو اخر ما تنسلخ عنه الفطرة البشرية ، ولأن من المقطوع به تاريخيا ان كفار الجاهلية كانوا يعتقدون بوجود إله خالق للكون كما قال تعالى : (( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) ))<sup>٢</sup> ولكنهم كانوا يشركون بربوبية الله ويتخذون الاصنام اربابا يعبدونها للاعتقاد بتأثيرها في حياتهم ، وقد حكى القرآن الكريم تبريرهم لذلك فقال تعالى : ((أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) ))<sup>٣</sup> . ولأجل ذلك لم يأبه القرآن كثيرا لمسألة اثبات اصل وجود الله ، بل كرس اهتمامه للدعوة الى التوحيد ونفي الاشرارك واثبات حاكمية الله واستقلاله بالتدبير والدعوة الى مكارم الاخلاق وصالح الاعمال .

(١) راجع : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، ج ١١ ص ١٤٨

٢ - سورة الزخرف

٣ - سورة الزمر

## ٥- الزندقة

كلمة (( الزندقة )) ليست عربية وقد اختلف في اصلها ، فقيل انها فارسية معربة من كلمة (( زنده )) وتعني بالفارسية الحياة والدهر ، والنسبة اليها (( زندگي )) اي دهري ، فتكون الزندقة مرادف (( الدهرية )) في العربية اي القول ببقاء الدهر ونكران اليوم الاخر ، وهو ما يرادف القول بأزلية العالم واصالة المادة عند المدرسة الذرية الاغريقية . وقيل ان اصلها من كلمة (( زند )) وتعني (( التفسير )) في اللغة الفارسية القديمة ويشار بها الى كتاب ماني الحكيم الفارسي الذي ظهر بعد نبوة النبي عيسى عليه السلام وقبيل مجيء الاسلام ، حيث زعم ان كتابه إنما هو تفسير لكتاب (( بستنا )) لزرادشت الحكيم الذي يقال انه نبي الفرس حوالي الف سنة قبل الميلاد ، وقد وضع ماني في كتابه هذا اصول العقيدة الثنوية وهي الاعتقاد بوجود اصلين للنور واله الظلام ، اله النور يخلق الخير واله الظلمة يخلق الشر . وعلى هذا المعنى فالزندقة : هي خصوص القول بالثنوية اي بوجود اصلين للكون ، ثم ألحق بها كل اعتقاد ينفي وجود الله وينفي حدوث العالم وينفي النبوة والرسالة واليوم الاخر<sup>(١)</sup> .

وبقطع النظر عن تحديد معنى الكلمة واصلها فان قصدنا فعلا من البحث هو تلك الحركة الالحادية التي برزت في المجتمع الاسلامي حوالي القرن الثاني الهجري ، ايام سلاطين بني العباس ، مستهدفة التشكيك في عقائد الاسلام ، والتي يؤرخ المسعودي لظهورها من خلال وصفه لعصر المهدي السلطان العباسي الثالث فيقول : ((وأمعن في قتل الملحدين ، والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه ، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ؛ لما انتشر من كتب ماني وابن دَيْصَانَ ، ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنفه

(١) راجع : لسان العرب ، مادة (( زندق )) ، ج ١٠ ص ١٤٧  
- تاج العروس ، الزبيدي ، مادة (( زندق )) ج ٢٥ ص ٤١٨  
- مروج الذهب ، المسعودي ، ج ١ ص ١٠٨  
- الملل والنحل ، الشهرستاني ، مادة (( المانوية )) ، ج ١ ص ٢٤٣

في ذلك ابن أبي العوجاء ، وحماد عَجْرَدٍ ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانية والدَيْصَانِيَّة ، والمَرْقِيُونِيَّة ، فكثير بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس ((<sup>١</sup>) ، وقد كان ابرز من مثل هذه النزعة الالحادية في العصر العباسي هم صالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن ابي العوجاء وابن الرواندي(<sup>٢</sup>) ، حيث لم يكتفوا بالاحتفاظ بأرائهم الفاسدة لأنفسهم ، بل جعلوا التشكيك والتهديم لعقائد الاسلام رسالة يبشرون بها كما يفعل الملاحدة الجدد اليوم، فأخذوا يجوبون البلدان الاسلامية ويثقفون الناس على ترك الدين الحق ، كما كتبوا كتباً بثوا فيها آراءهم الفاسدة(<sup>٣</sup>) ، كما قيل عن صالح بن عبد القدوس : (( وكان مذهبه مذهب السوفسطائية الذين يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها، وأن حال اليقظان كحال النائم؛ وله كتاب سماه كتاب الشكوك، قال فيه: كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان! ))<sup>٤</sup> بل عمدوا الى الدس في التراث الروائي الاسلامي بما يخدم توجهاتهم الالحادية ، كما قيل عن عبد الكريم بن ابي العوجاء من انه اقر بوضع اربعة الاف حديث مكذوب لما استيقن القتل(<sup>٥</sup>) .

وقد كتب الكثير من العرب والمستشرقين قديما وحديثا حول ظاهرة الزندقة واسبابها واصحابها ، وأغلب الكتابات جاءت بين افراط وتفريط لأن الكاتب اما مستشرق قرأ التأريخ الاسلامي قراءة سطحية او قومي متعصب للقومية العربية على الفارسية ، او طائفي متعصب لمذهب السلطة الحاكمة ، ونحن لا يهمننا هنا ذكر الآراء والمصادر لأصحاب تلك الاتجاهات الإستشراقية والقومية والطائفية ومناقشة اقوالهم والرد عليها ، انما يهمننا ان نسلط الضوء على الزندقة كمحطة من محطات النزعة الالحادية في التأريخ البشري عموما ، ومعرفة بواعثها التي تشترك بها مع النزعات الالحادية السابقة واللاحقة .

<sup>١</sup> - مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٧٣

<sup>٢</sup> ) راجع : الفهرست ، ابن النديم ، ص ٤٧٣

<sup>٣</sup> ) راجع ترجمة ابن الرواندي : تأريخ الاسلام ، الذهبي ، ج ٥ ص ٢٤٥

<sup>٤</sup> - تأريخ اداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، ج ٣ ص ٨٧

<sup>٥</sup> ) راجع : تأريخ الطبري ، الطبري ، ج ٤ ص ٥٠٨

والذي نعتقد به ان بواعث هذه النزعة في المجتمع الاسلامي في تلك الفترة تنحصر فيما يلي :

١- استغلال الفرقة المانوية النفوذ السياسي للفرس في الدولة العباسية : حيث استعان العباسيون بجيش من المسلمين من القومية الفارسية للقضاء على دولة بني امية ، فكان مبدأ انطلاق ثورة العباسيين من خراسان بقيادة ابي مسلم الخرساني كما ذكر الطبري في احداث سنة ١٢٩ للهجرة (١) ، وقد كان الدافع للفرس لاحتضان الثورة العباسية هو تحقيق مبدأ العدالة الاسلامية الذي نص عليه القرآن الكريم فقال : (( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ))<sup>٢</sup> وهو المبدأ الذي نقضه بنو امية وولاتهم بخطرستهم العروبية المنافية لمبادئ الاسلام المحمدي الاصيل الذي جاء رحمة للعالمين ، فعملوا على تأجيج الصراع الشعبي القومي ما بين المسلمين العرب والفرس (٣) والبربر (٤) ، بل حتى ما بين القبائل العربية (٥) . ثم أنه بعد استقرار السلطة لبني العباس استعانوا بالكثير من الفرس في ادارة الدولة وتطويرها ، وذلك لما يمتلكونه من خبرة كبيرة في هذا المجال حيث ان الحضارة الفارسية هي اقدم من الحضارة الاسلامية ، فصار لذلك شيء من النفوذ السياسي للفرس لبرهة من الزمن استغله الزنادقة من اتباع الديانة المانوية في الدعوة لعقيدتهم الثنوية ونشرها في المجتمع الاسلامي ، مستعملين اساليب السفسطة والتشكيك في عقائد الاسلام ، اما قبل العصر العباسي فلم تكن الاجواء السياسية والاعلامية مناسبة للترويج لعقيدتهم الفاسدة ، مع كونهم كانوا يعيشون في نواحي المجتمع الاسلامي منذ زمن ملوك بني امية كما ذكر ابن النديم في الفهرست وان خالدا القسري عامل بني امية في العراق كان يعتني بهم (٦)

(١) راجع : تاريخ الطبري ، ج ٤ ص ٣٠٦ وما بعدها

٢ - سورة الحجرات

(٣) راجع : تاريخ الطبري ، احداث سنة ١١٠ للهجرة ، ج ٤ ص ١٢٩

(٤) راجع : الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، احداث سنة ١١٧ للهجرة في افريقيا ، ج ٢ ص ٤١٢

(٥) راجع : المصدر السابق ، احداث سنة ١٠٩ للهجرة ، ج ٢ ص ٣٩٧

(٦) راجع : الفهرست ، ص ٤٧١

، ولهذا فنحن لا نقول - كما قال البعض - ان من كان في الجيش العباسي وفي ادارة الدولة من الفرس كان زنديقا مانويا متسترا بالإسلام متحينا الفرصة للانقضاء على الاسلام ، بل نقول ان الزنادقة قد استغلوا الفضاء السياسي المفتوح للنيل من الاسلام ، واليوم نرى كيف استغل بقايا الماركسيين الشيوعيين الملاحدة الفضاء الديموقراطي المفتوح للتسلل الى مراكز السلطة ، والترويج للإلحاد خلف ستار الديموقراطية والحرية الفكرية.

٢- استغلال اليهود والنصارى النفوذ العلمي لعلمائهم في الدولة العباسية : فقد استعان سلاطين الدولة العباسية بالكثير من علماء اليهود والنصارى في مجالات الطب والفلك وترجمة الكتب ، لما يتمتعون به من خبرة واسعة في هذا المجال بسبب اتقانهم للغات العربية والسريانية واليونانية بحكم محيطهم العربي وديانتهم ، وقد اشتهر منهم عائلة بختيشوع فكانت هي المتولية لطبابة الاسرة العباسية (١) ، وعائلة حنين بن اسحاق الذي اشتهر بالطب والترجمة وقد ، اوكل اليه السلطان العباسي المأمون مهمة ترجمة الكتب اليونانية الى العربية (٢) وعينه رئيسا لبيت الحكمة خلفا ليحيى بن ماسويه(٣) .

هذا النفوذ العلمي لدى السلطة العباسية استغله احبار اليهود وقساوسة النصارى لترويج مالم يستطيعوا سابقا ترويجه ، من قصص الطعن في القرآن ورسول المسلمين والانبياء عليهم السلام ، وبالرغم من ان الرواة والمؤرخين المسلمين كانوا يتنزهون عن اثبات الطعون الصريحة في الاسلام والقرآن والرسول الاكرم في كتبهم الا انهم اثبتوا ما يطعن بصورة غير مباشرة ، وهو ما تم الالتفات اليه بعد ذلك واطلق عليه اسم ((الاسرائيليات)) ، معتمدين في اثباتهم لها في كتبهم على حديث مكذوب صححه البخاري هو :

(١) راجع ترجمة بختيشوع بن جورجس : عيون الانبياء في طبقات الاطباء ، ابن ابي اصيبعة ، ص ١٨٦ وما بعدها

(٢) راجع : المصدر السابق ، مادة (( حنين بن اسحاق )) ص ٢٥٧ وما بعدها

(٣) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( حنين بن اسحاق )) ، ص ٢٧٥

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرْجَ ، وَمَنْ كَذَّبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَفْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ))<sup>١</sup> ، وهذا الحديث المكذوب هو رخصة دخول الاسرائيليات في التراث الاسلامي لتخريب الاسلام ، بل هو نفسه من الاسرائيليات المدسوسة للطعن بصورة غير مباشرة في الاسلام ، حيث ان مؤداه ان الرسول الاكرم لم يأمر ان يبلغ عنه غير القرآن ، اما بيان القرآن والاسلام فقد اوكله لبني اسرائيل !! ولعل الابيات المنسوبة للشاعر ابي العلاء المعري تشير الى حالة الاضطراب التي اصابته بعض النفوس نتيجة ذلك ، حيث يقول :

في اللاذقية فتنةٌ ... ما بين أحمدَ والمسيح

هذا بناقوسٍ يدُقُّ ... وذا بمئذنةٍ يصيح

كل يعزُّزُ دينه ... لبيت شعري ما الصحيح (٢)

وهذا ما نشهده اليوم ايضا من استغلال بعض اليهود والنصارى للفضاء السياسي والاعلامي المفتوح لإحياء شبهاتهم البالية ومطاعنهم القديمة ، التي يظن من لا اطلاع له على التاريخ أنها من مبتكرات العقل المعاصر .

٣- صدمة المجتمع الاسلامي بالثقافات الوافدة : فالمعروف انه لم تكن للعرب حضارة قبل الاسلام وانما كانت هناك ثقافة عربية و ليست حضارة ، و بالإسلام اصبح للعرب حضارة وثقافة اسلامية ولكنها لما تزل حضارة فتية اوائل القرن الثاني للهجرة ، ولما يزل المجتمع الاسلامي غير ناضج فكريا ، وعند وصول سلاطين بني العباس للحكم بثورة مسلحة اراد الحاكم العباسي ان يكسر الصورة النمطية السابقة لملوك بني امية كحكام عسكريين مستبدين منغلقيين ، وذلك بأن يظهر كحاكم مدني متنور منفتح ، ولهذا فتح سلاطين بني العباس الابواب على مصارعها امام الثقافات الوافدة ، دون تمهيد ودون غربلة ودون ادراك لخصائص المجتمع ومقتضيات المرحلة ، كما لا نستبعد قيام الامبراطورية الرومانية التي

١ - صحيح البخاري ، البخاري ، ج ٣ الحديث رقم ٣٢٧٤

(٢) راجع : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، ص ٣٧٧

ارعبها الاسلام ، بعولمة الثقافة الرومانية واليونانية كنحو من الغزو الثقافي لطمس الثقافة الاسلامية التي هددت وجودها .

هذا الفضاء الثقافي المفتوح في تلك المرحلة ، سمح بنفوذ مدارس الالحاد اليونانية الذرية والشكية والابيقورية ، ومذهب البراهما الهندي القائل بقدره العقل على الاهتداء لجميع المعارف الالهية دون الحاجة الى الوحي والنبوة ، مما احدث صدمة في المجتمع الاسلامي غير الناضج فكريا ، ادت الى نزوع البعض من اصحاب الذهنيات البسيطة نحو الالحاد بمعناه العام . ولعل هذا الخبر الذي ينقله المسعودي عن سيرة ابي جعفر الدوانيقي السلطان العباسي الثاني يشير الى ما ذكرناه في هذه النقطة والنقطتين السابقتين ، حيث يقول : ((وكان أول خليفة قَرَّبَ المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وكان معه نُوبَخْتُ المجوسيّ المنجم، وأسلم على يديه، وهو أبو هؤلاء النوبختية، وإبراهيم الفزاري المنجم، صاحب القصيدة في النجوم، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك، وعلي بن عيسى الإسطرلابي المنجم . وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية، منها: كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند، وترجمت له كُتُبُ أرسطاطاليس، من المنطقيات وغيرها، وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس، وكتاب الأرتماطريقي، وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية، والرومية، والفهلوية، والفارسية، والسريانية، وأُخرجت إلى الناس، فنظروا فيها، وتعلقوا إلى علمها، وفي أيامه وضع محمد بن إسحاق كتاب المغازي، والسير ، وأخبار المبتدأ ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مُصنَّفة، وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلماؤه في أعماله وصرفهم في مهماته، وقَدَّمهم على العرب ، فامتثل ذلك الخلفاء من بعده من ولده، فسقطت وبادت العرب، وزال بأسها، وذهبت مراتبها، وأفضت الخلافة إليه، وقد نظر في العلم، وقرأ المذاهب، وارتاض في الآراء، ووقف على النَّحْلِ، وكتب الحديث، فكثرت في أيامه روايات الناس، واتسعت عليهم علومهم ))<sup>١</sup> .

<sup>١</sup> - مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٧٢

وما أشبه اليوم بالأمس ، حيث يظهر الجيل الجديد من زعماء الدول الإسلامية كامل الانصياع لمتطلبات عولمة الثقافة الغربية ، فيفتح ابواب الدولة على مصارعها لكل ما هب ودب ، دون نظر في العواقب أو تمهيد أو غربلة أو رقيب أو حسيب ، مما تسبب في صدمة ثقافية لم تستطع العقول غير الناضجة استيعابها .

٤- الانحطاط الاخلاقي للسلطين التي تحكم باسم الدين : عندما يكون السلطان الذي يزعم الخلافة عن رسول الله فاسقا متهتكاً مستحلاً للخمر والرقص والغناء والقمار ، مسرفاً في ملذات الدنيا من الجنان والقصور والجواري والاطعمة والاشربة ، لاهياً في ثراء فاحش يبدد اموال بيت مال المسلمين في سبيل شهواته الخاصة ، قاتلاً في سبيل السلطة لأبيه واخيه واعمامه وبنيه ، وفي ذات الوقت يحج بالمسلمين ويعظهم في خطبة صلاة الجمعة بالقرآن وتعاليم الدين ، عندما يكون هكذا فإن ذلك سيرتد حتماً على حقانية الدين الإسلامي في نفوس بعض المسلمين ، الذين لم يميزوا بين خلفاء الحق الذين هم ال بيت محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وبين خلفاء الباطل . والسقوط الاخلاقي للسلطين الحاكمة باسم الدين قديم منذ تلاعب بني امية بالملك وتسترهم بالإسلام في عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، ولكنه برز عند بني العباس بسبب الثراء الفاحش للدولة واستتباب الملك وقلة المعترضين وكثرة وعاظ السلطين ، فكان بروزه سبباً في الانحطاط الاخلاقي للمجتمع وقد قيل ان الناس على دين ملوكهم ، وسبباً في اختلال عقائد الناس . ينقل المسعودي المؤرخ وصفاً للسلوك المزدوج لهارون خامس سلطين بني العباس فيقول : ((كان مواظباً على الحج، متابعاً للغزو، واتخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة، وأظهر ذلك بها و في منى وعَرَقات ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فعمَّ الناس إحسانه، مع ما قرن به من عدله، ثم بنى الثغور، ومدَّ المدن، وحصَّن فيها الحصون ..... وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان في الميدان ورمى بالنشاب في البرجاس، ولعب بالأكرة والطبّاطب. وقرب الحدّاق في ذلك فعم الناس ذلك الفعل . وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس، وبالنرد وقدم اللعاب، وأجرى عليهم الرزق، فسمى

الناس أيامه - لنضارتها، وكثرة خيرها وخصبها - أيام العروس ))<sup>١</sup> ، ثم يستمر المسعودي في نقل وصف حال زبيدة زوجة هارون مصورا حالة البذخ التي كانت تعيشها فيقول :

((فأما الجد والآثار الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلها، مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، فإنها حفرتها، ومهدت الطريق لمائها في كل حَفْض ورفع وسَهْل وجبل ووَعْر، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة ..... وأما الوجه الثاني - مما تتباهى به الملوك في أعمالهم، وينعمون به في أيامهم ويصنونون به دُولهم، ويُدون في أفعالهم وسيرهم - فهو أنها أوَّل من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكَلَّلة بالجوهر ، وصنع لها الرفيع من الوَشْي ، حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليتها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصعةً بالجواهر وشمع العنبر، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأمر جعفر ))<sup>٢</sup> و تشبه الناس في سائر أفعالهم بأمر جعفر !!

ونحن ننزه كتابنا عن ذكر أمثلة الفجور والانحطاط الاخلاقي لسلطين بني العباس التي تزخر بذكرها كتب التاريخ ، فالتهتك والفجور والخلاعة والمجون والبذخ كانت سمات السلطة التي تدعي خلافة الرسول الاكرم ، تمزجها ببعض مظاهر التدين ، لتسوقها للرعية بكل استهتار بواسطة حفنة من وعاظ السلطين المتلبسين بالدين ، وبزمرة من الشعراء الذين باعوا دينهم وضمائرهم للطغاة ، كأبي العتاهية القائل في مدح السلطان :

أنته الخلافة منقادةً ... إليه تجرر أذيالها

١ - المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٣

٢ - المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٧٤

ولم تك تصلح إلا له ... ولم يكن يصلح إلا لها  
ولو رامها أحدٌ غيرُهُ ... لزلزلت الأرضُ زلزالها  
ولو لم تطعه بناتُ القلوبِ ... لما قبل اللهُ أعمالها<sup>(١)</sup>

الامر الذي دعا شاعرا ماجنا مثل بشار بن برد متهما بالزندقة يسخر من  
المسلمين قائلا :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعود<sup>(٢)</sup>

وهذا حال اليوم وكل يوم ، حيث يهرع معظم الطغاة المتهتكين الى  
استغلال الدين لتحقيق مكاسب سياسية دنيئة ، ولتبرير جرائمهم  
وانحطاطهم الاخلاقي وغضبهم لحقوق الناس ، مستعينين بحفنة من  
المتلبسين بزى الدين والاعلاميين الذين باعوا دينهم وضمايرهم للطاغية  
السياسي الفاسد ، مما كان لذلك الأثر الأكبر في تشويه مبادئ الدين  
والأخلاق ، وبالتالي الانحطاط الديني والأخلاقي للمجتمع .

٥- تصاعد حدة الجدل الديني بين المذاهب الاسلامية : فقد استغرقت  
المذاهب الاسلامية في الجدل في مسائل عويصة مثل خلق القرآن والقدر  
والصفات الالهية مما لا تتحملة عقول اكثر الناس ، ولا يتوقف على اكثره  
ثمرة معرفية ولا عملية ، وكان بعض الشعراء كأبي نواس وبشار بن برد  
يجالس اصحاب الآراء وينظم سخيف ما يذهبون اليه وينشره بين الناس<sup>(٣)</sup>  
، مما جر بعض بسطاء التفكير الى الشك في عقائد الاسلام لعدم استيعابهم  
التمييز بين الآراء المتعارضة ، وما دفاع الشاعر بشار بن برد عن موقف  
ابليس في رفضه السجود حيث امره الله تعالى ، وما قول بعضهم :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له ... إياك إياك ان تبتل بالماء

(١) راجع : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ١٦٩

(٢) راجع : مروج الذهب ، ج ١ ص ١٥٤

(٣) راجع : تاريخ اداب العرب ، ج ٣ ص ٨٦ وما بعدها

إلا تعبير عن تلك الفوضى الجدلية التي تحيي حالة مدرسة الشك اليونانية في المجتمع الاسلامي ، والتي ينقل ابن حجر صورة عنها في ترجمته لعبد الكريم بن ابي العوجاء الزنديق فيقول : ((كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام واصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد فكانوا يجتمعون في منزل الأزد فأما عمرو و واصل فصارا الى الاعتزال واما عبد الكريم وصالح فصححا الثنوية واما بشار فبقي متحيراً ))<sup>١</sup> .

مما زاد في الطين بلة هو دخول السلطة العباسية على الخط فكان كل من يعارض السلطة او يخالف مذهب السلطة يرمى بالزندقة ، بحيث صارت تهمة الزندقة في العصر العباسي لتصفية المعارضين مثل تهمة العمالة أو الارهاب في عصرنا الحالي . وبما أن التشيع لآل بيت محمد (( صلى الله عليه واله )) والاعتقاد بحقانية خلافتهم للرسول الاكرم - طبقا لخبر الثقلين المتواتر - كان هو الخطر الاكبر الذي يقض مضاجع السلطة الفاسدة ، لأجل ذلك كان للشيعة من تهمة الزندقة الحظ الاوفر والنصيب الاكبر ، و صار كل من يتشيع يوصف بأنه زنديق متستر ، وكل من يتزندق كأبن الراوندي وابن ابي العوجاء يوصف بأنه شيعي في مصادر كتب مذهب السلطة. يقول الحافظ الذهبي وهو من اكابر علماء المخالفين لولاية آل البيت عليهم السلام في ترجمة ابن الراوندي الزنديق : (( أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي الملحد. صاحب الزندقة. كان حياً إلى حدود الثلاثمائة. و كان يلزم الرافضة و الملحدة ، فإذا عوتب قال: أنا أريد أن أعرف مذاهبهم؛ ثم كاشف وناظر، وصنف في الزندقة، لعنه الله. ))<sup>٢</sup> ويقصد بالرافضة شيعة آل البيت عليهم السلام .

واليوم حيث تمزق الصراعات المذهبية التي تقف وراءها مخططات سياسية جسد الامة الاسلامية ، يجنح بعض الشباب نحو الشك والاحاد بسبب عدم استيعاب عقولهم للجدل المذهبي .

<sup>١</sup> - لسان الميزان ، ابن حجر ، ج ٤ ص ٥١

<sup>٢</sup> - تاريخ الاسلام ، الذهبي ، ترجمة سيرة (( احمد بن يحيى بن اسحاق الراوندي )) ، ج ٦ ص ٩٠٢

## نور آل البيت (( ع )) في مواجهة الإلحاد

ومادام الكلام جرننا لهذا المقام ، دعونا نستطرد في ذكر بعض مواقف آل البيت الاطهار عليهم السلام في محاوراة الملاحدة والزنادقة والرد على شبهاتهم ، وهي مما حفظه وتعلمه شيعتهم المهتدون بهديهم - ونحن منهم ان شاء الله تعالى - دفعا للافتراءات المذهبية ، وتصحيحا للأخطاء التاريخية .

= روى الشيخ الكليني عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن محمد بن علي عن عبد الرحمن بن محمد بن أبي هشام، عن أحمد بن محسن الميثمي قال: كنت عند أبي منصور المتطبب فقال: أخبرني رجل من أصحابي قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبدالله بن المقفع في المسجد الحرام فقال ابن المقفع: ترون هذا الخلق - وأوماً بيده إلى موضع الطواف - ما منهم أحد اوجب له اسم الانسانية إلا ذلك الشيخ الجالس - يعني أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام - فأما الباقر فرعاع وبهائم . فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأنني رأيت عنده ما لم أراه عندهم فقال له ابن أبي العوجاء: لا بد من اختبار ما قلت فيه منه، قال: فقال ابن المقفع: لا تفعل فإني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك ، فقال: ليس ذا رأيك ولكن تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه المحل الذي وصفت، فقال ابن المقفع: أما إذا توهمت علي هذا فقم إليه وتحفظ ما استطعت من الزلل ولا تثني عنانك إلى استرسال فيسلمك إلى عقاب وسمه مالك أو عليك . قال: فقام ابن أبي العوجاء وبقيت أنا وابن المقفع جالسين فلما رجع إلينا ابن أبي العوجاء قال: ويلك يا ابن المقفع ما هذا ببشر وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهرا ويتروح إذا شاء باطنا فهو هذا، فقال له: وكيف ذلك؟ قال: جلست إليه فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال: إن يكن الامر على ما يقول هؤلاء - وهو على ما يقولون - يعني اهل الطواف - فقد سلموا وعطبتم وان يكن الامر على ما تقولون - وليس كما تقولون - فقد استويتم وهم ، فقلت له: يرحمك

الله وأي شيء نقول وأي شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلا واحدا، فقال: وكيف يكون قولك وقولهم واحدا؟ وهم يقولون: إن لهم معادا وثوابا وعقابا ويدينون بأن في السماء إلها وأنها عمران وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد، قال: فاغتنمتها منه فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف منهم اثنان ولم احتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل؟ ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به؟ فقال لي: ويالك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك: نشوأك ولم تكن وكبرك بعد صغرك وقوتك بعد ضعفك وضعفك بعد قوتك وسقمك بعد صحتك وصحتك بعد سقمك ورضاك بعد غضبك وغضبك بعد رضاك وحننك بعد فرحك وفرحك بعد حزنك وحبك بعد بغضك وبغضك بعد حبك وعزيمك بعد أناتك وأناتك بعد عزيمك وشهوتك بعد كراهتك وكراهتك بعد شهوتك ورغبتك بعد رهبتك ورهبتك بعد رغبتك ورجاءك بعد يأس ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك، وما زال يعدد علي قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني وبينه.

= وعنه عن بعض أصحابنا رفعه، وزاد في حديث ابن أبي العوجاء حين سأله أبو عبدالله عليه السلام قال:

عاد ابن أبي العوجاء في اليوم الثاني إلى مجلس أبي عبدالله عليه السلام فجلس وهو ساكت لا ينطق فقال أبو عبدالله عليه السلام: كأنك جننت تعيد بعض ما كنا فيه؟ فقال: أردت ذلك يا ابن رسول الله فقال له أبو عبدالله عليه السلام: ما أعجب هذا تنكر الله وتشهد أنني ابن رسول الله! فقال: العادة تحملني على ذلك، فقال له العالم عليه السلام فما يمنعك من الكلام؟ قال: إجلالا لك ومهابة ما ينطلق لساني بين يديك فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلني هيبة قط مثل ما تداخلني من هيبتك، قال: يكون ذلك ولكن أفتح عليك بسؤال، وأقبل عليه فقال له: أمصنوع أنت أو غير مصنوع؟ فقال عبد الكريم بن أبي العوجاء بل أنا غير مصنوع، فقال له العالم عليه السلام: فصف لي لو كنت مصنوعا كيف كنت تكون؟ فبقي عبد الكريم مليا لا يحير جوابا وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول:

طويل عريض عميق قصير متحرك ساكن كل ذلك صفة خلقه، فقال له العالم: فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها فاجعل نفسك مصنوعا لما تجد في نفسك مما يحدث من هذه الامور، فقال له عبد الكريم: سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ولا يسألني أحد بعدك عن مثلها، فقال أبو عبدالله عليه السلام: هبك علمت أنك لم تسأل فيما مضى فما علمك أنك لا تسأل فيما بعد، على أنك يا عبد الكريم نقضت قولك لأنك تزعم أن الاشياء من الاول سواء فكيف قدمت وأخرت، ثم قال: يا عبد الكريم أزيدك وضوحا رأيت لو كان معك كيس فيه جواهر فقال لك قائل: هل في الكيس دينار فنفيت كون الدينار في الكيس، فقال لك صف لي الدينار وكنت غير عالم بصفته هل كان لك أن تنفي كون الدينار عن الكيس وأنت لا تعلم؟ قال: لا، فقال: أبو عبدالله عليه السلام فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس فلعل في العالم صنعة من حيث لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة ، فانقطع عبد الكريم وأجاب إلى الاسلام بعض أصحابه وبقي معه بعض.

فعاد في اليوم الثالث فقال: أقلب السؤال فقال له أبو عبدالله عليه السلام: سل عما شئت فقال: ما الدليل على حدوث الاجسام؟ فقال: إني ما وجدت شيئا صغيرا ولا كبيرا إلا وإذا ضم إليه مثله صار أكبر وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الاولى، ولو كان قديما ما زال ولا حال ، لان الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث ، وفي كونه في الازل دخوله في العدم ، ولن تجتمع صفة الازل والعدم و الحدوث والقدم في شيء واحد، فقال عبد الكريم: هبك علمت في جري الحالتين والزمانين على ما ذكرت واستدللت بذلك على حدوثها فلو بقيت الاشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدوثهن؟ فقال العالم عليه السلام: إنما نتكلم على هذا العالم الموضوع فلو رفعناه ووضعنا عالما آخر كان لا شيء أدل على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره ، ولكن اجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا فنقول: إن الاشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء إلى مثله كان

أكبر وفي جواز التغيير عليه خروجه من القدم ، كما أن في تغييره دخوله في الحدث ، ليس لك وراءه شيء يا عبد الكريم . فانقطع وخزي .

فلما كان من العام القابل التقى معه في الحرم فقال له بعض شيعته: إن ابن أبي العوجاء قد أسلم فقال العالم عليه السلام: هو أعمى من ذلك لا يسلم، فلما بصر بالعالم قال: سيدي ومولاي ، فقال له العالم عليه السلام: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟ فقال : عادة الجسد وسنة البلد ولننظر ما الناس فيه من الجنون والخلق ورمي الحجارة ؟ فقال له العالم عليه السلام : أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم ، فذهب يتكلم ، فقال له عليه السلام : لا جدال في الحج ، ونفض رداءه من يده وقال : إن يكن الامر كما تقول - وليس كما تقول - نجونا ونجوت ، وإن يكن الامر كما نقول - وهو كما نقول - نجونا وهلكت ، فأقبل عبد الكريم على من معه فقال : وجدت في قلبي حزاة فردوني . فردوه فمات لا رحمه الله<sup>(١)</sup> .

## ٦- العلمانية والثورة الفرنسية

العلمانية (( secularism )) وترجمت حسب قاموس اكسفورد الى (( الدنيوية ))<sup>٢</sup> ، فهي مشتقة من ( العالم ) اي الحياة الدنيا بالمعنى المقابل للتدين والحياة الاخرة ، ولا علاقة لها بالعلم كما قد يتوهم البعض أو يحاول البعض الخداع ، ويعرفها قاموس ميريام وبستر الامريكي بانها : (( اللامبالاة او الاستبعاد للدين ))<sup>٣</sup> ، بينما تعرفها دائرة المعارف البريطانية بانها : ((حركة في المجتمع موجهة بعيدا عن العالم الآخر إلى الحياة على الأرض ))<sup>٤</sup> ، وفي الاستعمال السياسي تعني (( مبدأ فصل الدين عن الدولة ))<sup>٥</sup> أي عدم اقامة نظام الحكم على اسس دينية وعدم تبني

(١) راجع : كتاب الكافي ، الشيخ الكليني ، ج ١ ، كتاب التوحيد ، باب حدوث العالم ، الحديث رقم ٢

٢- قاموس اكسفورد ، مادة (( secular ))

٣- قاموس ميريام - وبستر ، مادة (( secularism ))

٤- الموسوعة البريطانية ، مادة (( secularism ))

٥- قاموس اكسفورد القانوني ، مادة (( secularism ))

الدولة لدين معين كدين رسمي للدولة ، فهي ايدولوجية تسعى الى تفسير الحياة وادارتها على مبادئ وضعية بعيدا عن الاديان والشرائع الدينية .

### عصر النهضة

كانت أوروبا في القرون الوسطى (( ق ٧- ١٥ م تقريبا )) تعيش عصر الظلمات حقيقة ، فقد كان التخلف هو السائد في جميع ميادين الحياة ، وما ان اكملت أوروبا حملاتها الصليبية على بلاد الاسلام باسم الدين حتى شرعت في حركة احياء للتراث اليوناني القديم ونهضة حضارية أدت الى ما يسمى بعصر النهضة (( ق ١٥- ١٨ م )) ، معتمدة في نهضتها شبه اعتماد كامل على ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية في جميع الميادين الفكرية والعلمية والسياسية والصناعية . يقول ول ديورانت في موسوعته الشهيرة :

(( ... ويدين علم الجبر، الذي نجد أصوله في مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليوناني من رجال القرن الثالث، باسمه إلى العرب، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات. وأبرز الشخصيات في هذا الميدان العلمي هي شخصية محمد بن موسى (٧٨٠-٨٥٠) المعروف بالخوارزمي نسبة إلى مسقط رأسه في خوارزم (خيوه الحديثة) الواقعة شرقي بحر الخرز؛ وقد كتب الخوارزمي رسائل قيمة في علوم خمسة: كتب عن الأرقام الهندية، وجمع أزياجاً فلكية، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت في بلاد الأندلس الإسلامية هي المعمول بها في جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان في الصين؛ وهو الذي وضع أقدم الجداول المعروفة في حساب المثلثات، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون، وأورد في كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية. ولقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، لكن جرارد الكريمونائي Gerard of Cremona ترجمه في القرن الثاني عشر، وظلت ترجمته تدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف ..... ويكاد المسلمون يكونون هم الذين

ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان- على ما نعلم - على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة ..... وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية. وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات، وهم الذين أنشئوا أول مدرسة للصيدلة، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمي التحمس في دعوتهم إلى الاستحمام، وخاصة عن الإصابة بالحميات ، وإلى استخدام حمام البخار؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجذري والحصبة ، وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الجراحية ..... وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازي (٨٤٤-٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases. وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء في وقته فارسياً يكتب بالعربية. وكان مولده في بلدة الري القريبة من طهران، ودرس الكيمياء بنوعيتها، والطب في بغداد، وألف ١٣١ كتاباً نصفها في الطب، ضاع معظمها. ومن أشهر كتبه كتاب الحاوي وهو كتاب في عشرين مجلداً، ويبحث في كل فرع من فروع الطب. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمي Liber continens، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض، وكان من الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس عام ١٣٩٤. وكانت رسالته في الجذري والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية، وأول مجهود يبذل للفرقة بين هذين المرضين. وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامي ١٤٩٨، ١٨٦٦. وأشهر كتب الرازي كلها كتاب طبي في عشر مجلدات يسمى كتاب المنصوري أهدها إلى أحد أمراء خراسان. وقد ترجمه جرار الكريمو إلى اللغة اللاتينية. وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم Nonus Almansoris متداولاً في أيدي طلاب الطب في

أوروبا حتى القرن السادس عشر ..... ولقد كان الرازي بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريري (الكلينيكي) في العصور الوسطى ..... وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى، وأن الرازي أعظم أطبائها، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها وابن الهيثم أعظم علمائها في البصريات، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها. تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحي في الوقت الحاضر إلا القليل وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى ((<sup>١</sup>)).

كانت أوروبا خلال عصر النهضة تحكمها امبراطوريات مستبدة متصارعة فيما بينها ، وكان المجتمع منقسما الى عدة طبقات : الاكليروس (( طبقة الكهنوت )) وارسنقراطية متسلطة (( طبقة النبلاء الاشراف من الاسر العريقة )) وبرجوازية ثرية (( طبقة التجار واصحاب المصانع )) وبروليتاريا (( الطبقة العاملة الكادحة )) ، وكان الدين السائد هو الديانة المسيحية ، ولكن حدث هناك صراع بين رجال الكنيسة حول قضايا في جوهر العقيدة المسيحية مثل التثليث والتجسيد والتعميد وترجمة الانجيل ، وسبب ذلك يعود الى عدة أمور ، منها :

١- احياء التراث اليوناني الالاحادي (( المدارس الذرية والابيقورية والشكية )) ، فقد نسب الكاهن الكاثوليكي الفرنسي غاسندي نفسه الى مذهب ابيقور وكرس له عددا من مؤلفاته وان لم يشاطره في الحاده ، كما تبني النظرية الذرية وان لم يكن ماديا<sup>(٢)</sup> ، بينما بشر الكاهن الايطالي كمبانيلا بالمادية الشيوعية الملحدة<sup>(٣)</sup> ، وافتتح القرن السابع عشر بإحراق الكاهن الايطالي برونو الذي افتتن بالمذاهب الذرية والابيقورية والفلسفة الاسلامية ، وبرغم مسيحيته فأن (( الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلهبه خفية. كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى؟

<sup>١</sup> - قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ج ١٣ ص ١٨١-١٩٦

<sup>(٢)</sup> راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( غاسندي )) ، ص ٤٢٠

- قصة الحضارة ، ج ٣٠ ص ٣١٨

<sup>(٣)</sup> راجع : قصة الحضارة ، ج ٣٠ ص ٣٠٢

كيف يتسنى لكاهن مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه؟<sup>١</sup> .

٢- فضيحة بيع صكوك الغفران ، حيث كانت الكنيسة تبيع صكوكا تضمن الكنيسة بموجبها لمن يشتريها الأمن من العقاب بعد الموت ، وكانت تستعمل الاموال التي تقبضها من بيع الصكوك في تمويل حروبها الصليبية ضد الاسلام ، وفي شؤونها الخاصة كبناء الكنائس والقصور وشراء الاملاك ، ثم فشلت الحروب الصليبية فشلا ذريعا واغتنت الكنيسة بينما افترق المسيحيون وشعروا بأن الرب قد خذلهم أو أن عقيدتهم فاسدة ((وقام المتشككون الجريؤون يقولون إن إخفاق الحروب الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثله في أرضه. ولما أن قام الرهبان بعد عام ١٢٥٠ يسألون الناس المال لإعداد حروب صليبية أخرى، استدعى بعض من كانوا يستمعون خطبهم بعض المتسولين وتصدقوا عليهم باسم محمد من قبيل السخرية بالرهبان أو الحقد عليهم، لأن محمداً في رأيهم قد أظهر أنه أعظم قوة من المسيح))<sup>٢</sup> .

٣- كذلك ساهم دخول عقائد الاسلام الى أوروبا من تركيا شرقا ومن الأندلس غربا في اعادة تفكير رجال الكنيسة في معتقداتهم .

ادى تطور العلوم الطبيعية الى صدام شديد بين الكنيسة وعلماء الطبيعة فيما يتعارض مع فهم علماء الطبيعة وتعاليم الكنيسة ، حيث تسجل محاكمة الكنيسة لغاليليو وسجنه ومصادرة كتبه واذلاله فصلا ساخرا من فصول الاضطهاد العلمي في ذلك العصر ، فلم يرق الرجل بسوى الاعتقاد بكروية الارض ودورانها حول الشمس وحول محورها ، الامر الذي اعتبرته الكنيسة هرطقة وتكذيبا للكتاب المقدس حسب دعواها لأنها كانت تتبنى نظرية بطليموس (( القرن الثاني للميلاد تقريبا )) والتي تقول بأن الارض ثابتة وهي مركز الكون وان الشمس تدور حولها<sup>(٣)</sup> .

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، ج ٣٠ ص ٢٨٩

<sup>٢</sup> - المصدر السابق ، ج ١٥ ص ٦٧

<sup>(٣)</sup> راجع : قصة الحضارة ، ج ٣٠ ص ٢٦٨-٢٨٢

كان الاضطهاد والقمع والتمييز الطبقي والفقر والجهل وضريبة الحروب هو حصة الاكثرية الكادحة البروليتاريا ، كما كانت الطبقة البرجوازية - رغم ثرائها - تعاني من احتقار الطبقة الارستقراطية لها مع انها تمثل القوة الاقتصادية للدولة ، وكانت تشعر بالغبن من اعفاء الطبقة الارستقراطية وطبقة الاكليروس من الضرائب وتحميلها على عاتقها . وكانت المصالح متبادلة بين الكنيسة والسلطة الحاكمة ، فقد كانت الكنيسة تمنح للسلطة شرعية وجودها بنظرية الحق الالهي في الحكم ، كما كانت تبرر قمعها وفسادها ، وتعينها في صراعاتها السياسية ، وحتى الزوجية ، كما في قصة هنري الثامن ملك انجلترا الذي من اجل الحصول على ولي عهد ذكر ابتدع كنيسة خاصة ، وانشق عن كنيسة روما الكاثوليكية وتزوج ست نساء بإبطال عقد بعضهن وقتل بعض اخر ، وفي المقابل كانت السلطة تعطي للكنيسة امتيازات خاصة كحق الاشراف على التعليم واخذ الضرائب من الناس ، وتعفيها من ضرائب السلطة على املاك الكنيسة ، وتعينها في حرب الكنائس ، كما تعينها في محاربة العلم والعلماء ، فان كانت الدولة للكنيسة الكاثوليكية قامت بإحراق كل من يخالف تعاليمها ، وان كانت الدولة للكنيسة البروتستانتية قامت بحراق كل من يخالف تعاليمها ، واهيانا يتعاون الكاثوليك والبروتستانت على احراق اتباع حركة الموحدين المناهضين لعقيدة التثليث ، رغم ان الجميع مؤمن بالله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام واليوم الاخر<sup>(١)</sup> .

هذه الحالة في ما يسمى (( عصر النهضة )) ادت الى غليان شعبي ونفور من الدين و من تعاليم الكنيسة ، أدى الى سريان الروح اليونانية الالحادية الذرية والابيقورية والشكية بين افراد المجتمع من جميع الطبقات ، يلخصها ول ديورانت بقوله : (( تضافرت عوامل كثيرة على تقويض صرح العقيدة المسيحية في إنجلترا: ارتباط الكنيسة بصعود الأحزاب السياسية وسقوطها؛ وازدياد الثروة ومطالب اللذة في طبقات المجتمع العليا، ودولية الأفكار بفضل التجارة والسفر، والإلمام المتزايد بالأديان

---

(١) راجع : المصدر السابق ، ج ٢٥ ص ٥٧-١٩١

والشعوب غير المسيحية، وتكاثر الملل وتبادل النقد فيما بينها، وتطور العلم، وازدياد الإيمان بالأسباب الطبيعية والقوانين الثابتة، والدراسة التاريخية والنقدية للكتاب المقدس، واستيراد أو ترجمة كتب خطيرة مثل معجم بيل و الرسالة اللاهوتية السياسية لسبينوزا ، والكف عن رقابة الدولة على المطبوعات ، ومكانة العقل الصاعدة، والمحاولات الجديدة للفلسفة، في أعمال بيكون، وهوبز، ولوك، لتفسير العالم والإنسان تفسيرات طبيعية و- تلخيصاً لكثير من هذه العوامل - حملة الربوبيين Deists لاختزال المسيحية إلى مجرد الإيمان بالله والخلود. (١) .

### عصر التنوير

بدأ ما اطلقوا عليه اسم (( عصر التنوير )) في القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو في الحقيقة عصر التدمير وشحذ الهمم للترويج والمجاهرة بالإلحاد والربوبية ومناهضة غطرسة الكنيسة واستبدالها وجهلها وحماقاتها آنذاك ، وقد ابتدأت الحملة في انكلترا فكان ابرز قادتها هم جون تولاند و طوني كولنز ، ولكن كان ديفيد هيوم (( مات ١٧٧٦ م )) اشدهم سفسطة وأبعدهم تأثيرا ، حيث لم يكتف كمن سبقه بتقويض ادلة الكنيسة على معتقداتها ، بل عمد الى احياء الذرية والابيقورية والشكية اليونانية بأبشع صورها الفلسفية ، فشكك بإمكان كل معرفة غير حسية بل فسر العلم بأنه مجرد خيالات مبنية على انفعالات آنية بما تدركه الحواس ، وبالتالي لا يوجد جزم وحقيقة ثابتة ، وانكر مبدأ السببية والتلازم الذاتي بين العلة والمعلول وفسره بأنه مجرد تعاقب لوقوع الحوادث ، وبالتالي لا يمكن استنتاج وجود شيء من وجود شيء لم نشاهده ، وفسر الدين بأنه راجع الى الجهل بأسباب الظواهر الطبيعية والخوف منها ، وفسر الاخلاق برجوعها للمصلحة الشخصية وبالمذهب الابيقوري(٢) . ثم انتقل هذا الهراء الفلسفي الى باريس وكان ابرز قادة حملة التدمير فيها فولتير

١ - قصة الحضارة ، ج٣٥ ص١٧٢

(٢) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( هيوم )) ، ص٤٠١  
قصة الحضارة ، ج٣٥ ص٢٠١-٢٣١

وهولباخ وهلفسيوس وديرو ودالمبير وجان جاك روسو . وهولباخ (( مات ١٧٨٩ م )) كان كاتباً ثريا ، ملحدا شرسا مجاهرا بإحاده ، مقهورا من الانظمة التي تحد حرية الاقتصاد ، ومن استكبار طبقة الارستقراط ، ومن طبقة الاكليروس التي تدعم الملك وتتحالف مع الارستوقراطيين وتشكل ازعاجا اخلاقيا ، يفسد على الاثرياء الاستمتاع بالفجور والرذيلة واستعباد الفقراء ، ففتح هولباخ ابواب قصره وخزائنه لدعم الحملة (١) ، وكان بيته وكرا للملاحدة والاباحية وأحد الصالونات التي انتشرت في باريس ، كظاهرة عامة تجمع بين الانحطاط الاخلاقي والفكري (٢) في عصر ازدهرت فيه الاخلاق الابيقورية وتقلصت الفضيلة الالهية فصار الزنى سمة الحضارة ، والعفة صفة يخجل حاملها (٣) . اما فولتير (( مات ١٧٧٨ م )) فقد كان ادبيا بارزا في عصر اتفق ان تكون فيه صناعة الادب بضاعة رائجة بين جميع طبقات المجتمع ، بل اصبح سمة حضارية تحرص الطبقات العليا على الاتسام بها ، مما اتاح لفولتير الثراء الفاحش والشهرة الشعبية الواسعة وشبكة علاقات مع ملوك وحكومات أوروبا ، وقد سخر فولتير كل هذه الامكانيات لقيادة حملة الالحاد وتوجيهها مستعملا شتى وسائل المكر والخداع والدناءة التي تستعملها التنظيمات السرية عادة لأسقاط الانظمة الحكومية ، ولكنه كان يخوض حربه ضد الدين والفضيلة وليس ضد السياسة ، وان كان في اخر سنوات حياته - بعد أن غادره طيش الشباب وعنفوانه - اختار الربوبية وأقر بضرورة الدين لحفظ الاخلاق ، واصطدم بالملاحدة من اتباعه كهولباخ (٤) ، كما اصطدم قبله جان جاك روسو (( مات ١٧٧٨ م )) بهم جميعا وانفرد يدعو الى الفضيلة (٥) ، فاشتتهر كفيلسوف للتربية والتعليم والفضيلة في جميع انحاء أوروبا والعالم (٦) في حين كان سلوكه العملي - كجميع كتيبة التدمير -

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( هولباخ )) ، ص ٧١٦

(٢) راجع : قصة الحضارة ، ج ٣٩ ص ١٩٦

(٣) راجع : المصدر السابق ، ج ٣٩ ص ١٦١

(٤) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( فولتير )) ، ص ٤٧١

قصة الحضارة ، ج ٣٨ ص ١٦٢ وما بعدها

(٥) راجع : قصة الحضارة ، ج ٣٩ ص ٢٦٤

(٦) راجع : المصدر السابق ، ج ٣٩ ص ٢٩٣

يجافي الفضيلة تماما ، فقد قضى جان جاك روسو حياته بمعاشرة امرأة بدون زواج ، وانجب منها خمسة اطفال كان يلقي كل طفل منهم بعد الولادة في ملجأ اللقطاء ، رغم اعتراض الأم التي لم يتزوجها إلا في اخر حياته<sup>(١)</sup> .

فبرز حينئذ في الفكر الاوربي موقفان من الدين هما :

١- تحجيم الدين : وهو موقف حيادي من الدين ، دعا له امثال فولتير ( آخر حياته ) وسبينوزا وهوبز وجون لوك ومونتسكيو ، وهو يدعو الى فصل السلطة السياسية عن الدين ، مع اقرار حرية التدين للناس . وهو الموقف الذي اطلق عليه فيما بعد اسم (( العلمانية )) .

٢- الغاء الدين من الحياة : وهو موقف الحادي متطرف مناهض للدين ، دعا له امثال هيوم وهولباخ وهلفسيوس ، وتبناه فيما بعد امثال كارل ماركس و انجلز .

أدت جميع الظروف السابقة الى تفجير الثورة الفرنسية (( ١٧٨٩ م )) في عصر لويس السادس عشر ، وقد كانت ثورة شعبية عارمة لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية ، ولكن استطاع الملاحدة والروبويون واللاادريون - امثال ميرابو و روبسيير - الصعود على اكتافها بدعوى تمثيلهم للشعب الفرنسي كنخبة مثقفة مدعومة بالبرجوازية المقهورة<sup>(٢)</sup> ، بعد ان حركت جماعة فلاسفة عصر التدمير الطبقات المثقفة في العالم المسيحي كله صوب أما ربوبية مهذبة و أما إلحاد مستتر ، فأقر ملاحدة الثورة الفرنسية المنتصرون العلمانية - نظريا فقط - لاتفاقهم على بغض الدين ، رغم اختلافهم في شكل الحكم الجديد ملكي ام جمهوري ؟ رأسمالي ام اشتراكي ؟ كما اعلنوا حرية التدين وحلوا مؤسسة الكنيسة وحولوا رجال الأكليروس الى موظفين عند سلطة الثورة ، ولا يستحق احدهم الراتب الوظيفي إلا اذا أقسم يمين الولاء للدستور الثوري ، وصادروا

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( روسو )) ، ص ٣٢٨

قصة الحضارة ، ج ٣٩ ص ٣٦

(٢) راجع : قصة الحضارة ، ج ٤٢ ص ٤٨٣

جميع ممتلكات الكنيسة وحولوا الأديرة والكنائس الى اندية ترفيهية ومقرات حزبية<sup>(١)</sup> . وراحوا - عمليا - يمارسون سياسة نشر الالحاد والاباحية والازراء بالدين الى درجة ممارسة الرذيلة في داخل الكنائس ، وحدثوا المجازر بقتل المئات من رجال الكنيسة ، والالاف من المتدينين باسم الحرية ((فبعد ساعات قليلة من عزل الملك عن عرشه أرسل كومون باريس إلى الأحياء المختلفة فيها قائمة بالقسس المشكوك في أهدافهم والمشكوك في أن لديهم مشاعر معادية للثورة، وكان عدد كبير منهم - كما يفهم - قد أرسلوا إلى السجون المختلفة لذا فقد كانوا ضحية أساسية في أثناء المذبحة ))<sup>٢</sup> ، حتى اضطروا اخيرا تحت وطأة الخوف من الغالبية المتدينة ، ان يوقفوا هذه السياسية المناهضة للدين ، ويعقدوا صداقة زائفة بين السلطة والدين تفعيلا لتوصية جد الثورة جان جاك روسو ، فقال روبسبير وهو ربوبي (( يؤمن بوجود خالق وينكر تدخله في شؤون العالم وينكر الاديان)) وهو عضو بارز في المؤتمر الوطني الحاكم وحكومة الثورة عام (( ١٧٩٣ م )) :

((كل فيلسوف وكل شخص يمكنه أن يعتقد من أفكار الإلحاد ما يحلو له . وأي شخص يرغب في أن يجعل هذا الفكر جريمة متهم، لكن الرجل العام (صاحب المسؤولية الحكومية) أو المشرع إذا ما تبني هذه الأفكار الإلحادية فإنه غبي بل إن غباءه يتضاعف مائة مرة عن غيره .....))

فالإلحاد أرسنقراطي ( يعني فكر الطبقة الارستوقراطية ) ؛ ففكرة الموجود الأعظم (الله) الذي يرى ويعلم كل شيء والمطلع على كل ما يناقض الطهارة، ويعاقب على الجرائم الكبرى ، هي فكرة الشعب في الأساس (فكرة شعبية) ، إن هذه الفكرة هي التي تمثل شعور أوربا بل والعالم . إنها فكرة الشعب الفرنسي التي تمثل مشاعره وإحساسه . إن هذه الفكرة (وجود موجود أعظم) لا علاقة لها بالقسس ولا بالخرافة ولا بالطقوس . إنها فقط

(١) راجع : المصدر السابق ، الملحق ، ص ٨٣

٢ - المصدر السابق ، الملحق (( عصر نابليون )) ، ص ١١٢

مرتبطة بقوة لا يدركها أحد (مبهما لا يمكن سبر أغوارها) .. إنها فكرة مرهبة للآثمين وراحة واستقرار للمتمسكين بالفضيلة ))<sup>١</sup> .

فكانت العلمانية : هي الحاد مبطن تم اقراره بالثورة الفرنسية وتسويقه الى العالم بغطاء سياسي . ولذلك تجد زعماء اميركا الاوائل الذين يلقبونهم (( الآباء المؤسسون )) مثل جورج واشنطن وبنيامين فرانكلين وجيفرسون كانوا من ابناء حركة التدمير الفرنسي وكانوا من الملاحدة او الربوبيين<sup>(٢)</sup> ، بل انهم بدهائهم السياسي ونفوذهم في المجتمع الفرنسي ، هم من اغرى الملك الواهن لويس السادس عشر بتقديم الدعم المالي والاشترك الفعلي في الحرب التي خاضتها المستعمرات البريطانية في قارة اميركا للانفصال عن التاج البريطاني ، وبعد تحقق الانفصال بتوقيع معاهدة فرساي (( ١٧٨٣م )) قبيل الثورة الفرنسية راحوا يدورون في صالونات باريس يمجدون بثورتهم وتنويرها ، ويحرضون الفرنسيين على الاقتداء بها ((وأضافت الثورة الأمريكية مزيداً من المكانة والقدر للأفكار الجمهورية. ولقد استمدت تلك الثورة هي أيضاً قوتها من وقائع الحال الاقتصادية كنظام الضرائب والتجارة، وكان "إعلان استقلالها" مديناً للمفكرين الإنجليز دينه للمفكرين الفرنسيين، ولكن لوحظ أن واشنطن ، وفرانكلين وجفرسون، قد تهيأوا لقبول الفكر الحر بفضل جماعة الفلاسفة الفرنسيين. وعن طريق أولئك الأبناء الأمريكيين للتنوير الفرنسي، تدرجت النظريات الجمهورية حتى تمثلت حكومة ظافرة في السلاح، يعترف بها ملك فرنسي، وتمضي في إرساء يدين ببعض الفضل لمونتسكيو ))<sup>٣</sup> مع انهم أي زعماء انفصال اميركا كانوا هم العامل الاكبر في انهيار الاقتصاد الفرنسي قبيل الثورة الفرنسية فقد (( أفلست الحكومة الفرنسية نتيجة للحرب وأفضى ذلك الإفلاس إلى الثورة. فقد بلغ مجموع ما أنفقته فرنسا

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، الملحق (( عصر نابليون )) ، ص ١٧٦

<sup>(٢)</sup> راجع : المصدر السابق ، ج ٤٢ ص ٣٣٩

<sup>٣</sup> - المصدر السابق ، ج ٤٢ ص ٣٩٠

على الصراع بليوناً من الجنيهات، وكانت الفائدة على الدين القومي تجر الخزانة يوماً فيوماً إلى هاوية العجز عن السداد ((<sup>١</sup>).

هذا هو الأساس الفكري والاخلاقي الذي نشأت عليه الحضارة الغربية في (( عصر الحداثة )) بعد الثورة الفرنسية ، فقد نشأت متشعبة بروح الالحاد والرذيلة . والعلمانية وإن لم تستطع فصل الناس عن الدين بشكل مطلق ، حيث بعد انتهاء عصر التدمير الفرنسي عاد للدين النصراني هيئته وإن فقد سلطانه ورونقه ((وبعد عقد من الهياج والنزاع بين الطبقات والحروب الخارجية والقتال السياسي والمحاکمات غير القانونية والسلب والنهب والإعدامات والمذابح أصبح أهل فرنسا كلها من ضحايا الثورة فراحوا يتحسرون على الأيام الطيبة التي خلت، أيام لويس السادس عشر وشعروا أنه لا يستطيع أحد أن يعيد إلى فرنسا النظام والسلامة سوى ملك . وأولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم راحوا يصلون مبتهلين طالبين أن يحل اليوم الذي يتخلصون فيه من حكم الملحين، بل إن بعض المتشككين الذين تخلوا عن المعتقدات الغيبية كلها ، راحوا الآن يتشككون في إمكانية أن يستطيع نظام أخلاقي لا يدعمه دين مقاومة العواطف والانفعالات غير المنضبطة والدوافع غير الاجتماعية ، التي ترسخت في قرون انعدم فيها الأمان وسادت فيها الوحشية والقتل، وراح كثيرون من الآباء غير المتمسكين بعقيدة يرسلون أبناءهم إلى الكنائس لأداء الصلوات، وتأدية طقس الاعتراف وتناول العشاء الرباني حتى يعين ذلك كله على تحليهم بالتواضع ولتقوية عرى الروابط الأسرية وتحقيق السلام مع النفس ))<sup>٢</sup> ، وظلت عامة الناس تؤمن بالله والنبوة واليوم الآخر بحسب تعاليم الكنيسة التي نعتقد انحرافها عن الدين الحق . وانتهت الثورة الفرنسية بانقلاب نابليون على حكومة الثورة وعلان نفسه امبراطورا لفرنسا ، فاتحا بذلك اكثر العصور دموية وفقرا في تاريخ فرنسا و أوربا<sup>(٣)</sup> ، لكنها - العلمانية

١ - المصدر السابق ، ج٢ ص٤٦٦

٢ - المصدر السابق ، الملحق (( عصر نابليون )) ، ص٢٦٤

(٣) راجع : المصدر السابق ، الملحق (( عصر نابليون )) ، ص٢٦٦ - ٢٧٤

الفرنسية - وفرت الغطاء السياسي الملائم لنشر الاحاد والرذيلة في كل العالم فيما بعد ، ولذلك اعتبرناها ابرز محطات الاحاد على الاطلاق .

## ٧- الشيوعية

قلنا انه في القرن الثامن عشر الميلادي (( عصر التدمير الاوربي )) برز تياران الحاديان : تيار معتدل يقر بحرية التدين والاحاد بل يرى اهمية الدين لحفظ النظام الاجتماعي ويمثل هذا التيار كل من فولتير - اخر حياته - وجان جاك روسو ، وتيار مناهض للدين يدعو لإلغاء الدين من الحياة ويمثل هذا التيار كل من هولباخ وهلفسيوس. وقرأنا الثورة الفرنسية (( ١٧٨٩ م )) بأنها قد كانت أولا ثورة شعبية عارمة لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية لا علاقة لها بالدين، ولكن استطاعت نخبة الملاحدة - امثال ميرابو وروبسبير ومارا- الصعود على اكتافها بدعوى تمثيلهم للشعب الفرنسي ، كنخبة مثقفة مدعومة بالطبقة البرجوازية المقهورة من تسلط الطبقة الارستقراطية ومن طبقة الاكليروس التي تسبب لها ازعاجا اخلاقيا دائما ، ومن القيود والضرائب التي يفرضها الملك عليها ، وكانت نتيجة الثورة الفرنسية قد انتهت الى تبني التيار الاول بعقد صداقة كاذبة مع الدين فيما يسمى (( النظام العلماني )) .

لكن في القرن التاسع عشر الميلادي ظهر كارل ماركس (( مات ١٨٨٣ م )) الملحد الالماني من اصل يهودي برجوازي<sup>(١)</sup> ، والذي يتجلى جذر الاحاد اليوناني في عنوان اطروحته (( الفرق في فلسفة الطبيعة بين ديموقريطس واپيقور )) ، وظهر اتباعه (( الماركسيون )) فتنبوا التيار المناهض للدين من تياري عصر التدمير الفرنسي ، ذلك التيار الذي لا يرى في الوجود سوى البعد المادي ، وأن الانسان ما هو الا كتلة مادية من لحم ودم وعظم تنطبق عليها جميع قوانين المادة كما تنطبق على كل شيء في الوجود ، وبالتالي انكروا وجود الروح وانكروا وجود الله ، والدين

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( ماركس )) ، ص ٦١٨

عندهم ليس الا اكاذيب تم نسجها لتحل محل العلوم الطبيعية<sup>(١)</sup> ، بل هو عند ماركس واتباعه وسيلة اخترعها الأقوياء والاثرياء لتخدير الفقراء وايهامهم بسعادة زائفة ومنعهم عن التمرد والمطالبة بحقوقهم ، ولذلك فإن تحقيق السعادة الحقيقية للشعوب - حسب زعمهم - يتطلب اجتثاث الدين والغاء أي دور له في حياة الفرد والمجتمع ، يقول ماركس : ((ان التعاسة الدينية هي في شطر منها ، تعبير عن التعاسة الواقعية ، وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية . الدين زفرة الإنسان المسحوق ، روح عالم لا قلب له ، كما انه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح ، انه أفيون الشعب . إن إلقاء الدين من حيث هو سعادة وهمية للشعب ، هو ما يتطلبه صنع سعادته الفعلية . ان طلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو طلب التخلي عن وضع بحاجة الى وهم . فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا ))<sup>٢</sup> .

كذلك اخذ ماركس واتباعه النظرية الشيوعية من فلاسفة عصر التدمير الفرنسي امثال جان جاك روسو ومايلي و موريللي<sup>(٣)</sup> ، تلك النظرية القائمة على مجرد افتراض خيالي ، وهو ان المجتمع البشري الاول لم يكن مشتملا على سلطة حاكمة ولا على انظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الافراد ، وكانت كل خيرات الارض مشاعة أي مبدولة للجميع ، وكان ناتج العمل يقسم بين جميع الافراد بالتساوي ، فكان - حسب زعمهم - مجتمعا مثاليا لا وجود للصراعات فيه أبدا ، حتى ظهرت فكرة الملكية الخاصة باستحواذ البعض على وسائل الانتاج كالأرض وادوات العمل ، فكانت الملكية الخاصة هي اصل جميع الصراعات والويلات والشرور التي حصلت بعد ذلك ، ولأجل ذلك كما قال جان جاك روسو (( كان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي هو الانسان الاول الذي سور ارضا فرأى أن يقول " هي ملكي " ، وقد وجد من البسطاء من يصدقونه ، فكان مؤسس المجتمع المدني الحقيقي ، وما أكثر ما صان النوع البشري من

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( ماركس )) ، ص ٢٨٨

٢ - نقد فلسفة الحق عند هيجل ، كارل ماركس ، ص ١

(٣) راجع : قصة الحضارة ، ج ٣٩ ص ١٣٦

جرائم وحروب وقتل وبؤس وهول ذلك الذي خلع الاوتاد وملاً الخندق }  
أي : حبذا لو كان هناك من تصدى لمنع اختصاص الملكية { وهو يقول :  
" احذروا سماع هذا الدجال فالهلاك يُكْتَبْ لكم اذا نسيتم أن الثمرات للجميع  
، وأن الارض ليست ملكاً لأحد " ))<sup>١</sup> ، ولكن كارل ماركس لم يكتف بهذه  
النظرة الشيوعية البسيطة للتأريخ والمجتمع ، بل ادخل عليها عنصر  
الديالكتيك (( التطور الجدلي )) الذي اخذه من الفيلسوف الالمانى هيجل ،  
فزعم ان محور تطور المجتمع وحركة التأريخ هو العامل الاقتصادي فقط  
، وأن هذا التطور يكون بشكل جدلي اي صراع بين وضع سائد ووضع  
معارض له ، ينتهي حتميا وبشكل جبري حتمي ، بصيرورة الوضع  
المعارض وضعاً سائداً حتى يزيله الوضع المعارض له ، فإن (( تأريخ  
اي مجتمع لحد الان ليس سوى تأريخ صراعات طبقية ))<sup>٢</sup> ابتداءً بظهور  
الملكية الخاصة ، ولذلك قرأ ماركس الثورة الفرنسية ليس على انها ثورة  
شعبية من عامة الناس كما قرأناها ، بل هي عنده ثورة الطبقة البرجوازية  
الرأسمالية على عدوتها الطبقة الارستوقراطية المتسلطة وقد انتهت بتسلط  
البرجوازية الرأسمالية عدوة الطبقة العمالية البروليتاريا (( فالثورة  
الفرنسية مثلاً قضت على الملكية الاقطاعية لمصلحة الملكية البرجوازية ،  
وإن ما يميز الشيوعية ليس القضاء على الملكية بشكل عام بل إلغاء الملكية  
البرجوازية ))<sup>٣</sup> ، فمقتضى الديالكتيكية المادية ان ينتهي الصراع حتميا  
بسيادة طبقة البروليتاريا التي ستلغي الملكية الخاصة البرجوازية وتحل  
محلها الاشتراكية كمرحلة اولى ، حيث تكون فيها وسائل الانتاج ومقدرات  
الشعب بيد سلطة حزب العمال (( دكتاتورية البروليتاريا )) مؤقتاً لإتمام  
القضاء على البرجوازية تمهيدا للمرحلة الثانية ، وهي عودة البشرية الى  
المرحلة الشيوعية ، حيث لا دولة ولا سلطة ولا نظام ولا قوانين ولا دين ،  
اذ كل هذه الامور هي من افرازات الملكية الخاصة والصراع الطبقي -  
حسب زعمه - وبالقضاء على البرجوازية الرأسمالية نهائياً تنتفي الطبقة

١ - اصل التفاوت بين الناس ، جان جاك روسو ، ص ٥٧

٢ - بيان الحزب الشيوعي ، ماركس و أنجلز ، الفصل الاول ، ص ١٩

٣ - المصدر السابق ، الفصل الثاني ، ص ٤٢

فينتفي الصراع فلا حاجة للسلطة والدولة ، كما يقول لينين الزعيم الشيوعي الماركسي الابرز والحاكم الاول للاتحاد السوفيتي : (( في البيان الشيوعي لخصت دروس التاريخ العامة التي تجعلنا نرى في الدولة هيئة للسيادة الطبقية ، وتفضي بنا الى استنتاج لا مندوحة عنه وهو أن البروليتاريا لا تستطيع اسقاط البرجوازية ، اذا لم تستول في البدء على السلطة السياسية ... وأن هذه الدولة البروليتارية تبدأ بالاضمحلال فور انتصارها ، لأن الدولة لا لزوم لها ولا يمكن أن توجد في مجتمع خال من التناقضات الطبقية ))<sup>١</sup> .

تنفيذا للنظرية الشيوعية المادية الديالكتيكية ، قام ماركس واتباعه بتشكيل التنظيم الشيوعي العالمي تحت شعار (( يا عمال العالم اتحدوا )) ، الذي اتخذ على عاتقه بث الشيوعية الاحادية الاباحية ، وحياسة المؤامرات وتدبير الانتفاضات الشعبية والثورات المسلحة ، التي منيت بالفشل جميعها في حياة ماركس وما بعد موته ، الى أن استطاع الماركسيون اخيرا بقيادة لينين من استغلال الانتفاضة الشعبية الروسية (( ١٩١٧م )) والتي كانت أصلا نتيجة لظروف الحرب العالمية الأولى فقفزوا الى السلطة بقوة السلاح ، واقاموا ((دكتاتورية البروليتاريا )) واقروا النظام الاشتراكي في روسيا ، ثم استفادوا من امكانات هذه الدولة فتمددوا بالانقلابات والاحتلالات العسكرية ، حتى تمكنوا من تشكيل أول امبراطورية في العصر الحديث بل في التاريخ كله يكون الاحاد هو العقيدة الرسمية لها تحت مسمى (( الاتحاد السوفيتي )) الذي نشر الاحزاب الشيوعية المسلحة في كل العالم ، وتمكن من السيطرة على السلطة بالقوة في عدة دول كالصين وكوريا وكوبا ودول أوروبا الشرقية ، فأزهق ارواح الملايين ، وأرسل الملايين الى معسكرات الاعتقال للعمل القسري ، وزاد الفقراء فقرا والقمع قمعا ، وراح ينشر الفكر الاحادي الاباحي المناهض للدين والاخلاق في كل ارجاء العالم بشتى الوسائل حتى انتهى امره الى انهيار الاتحاد السوفيتي ، وتفكك دول المنظومة الشيوعية

<sup>١</sup> - الدولة والثورة ، فلاديمير لينين ، ص ٥٤

(( ١٩٩١ م )) ، قبل وصول المجتمع الى المرحلة الشيوعية حسب الديالكتية الماركسية الحتمية ، وعادت السلطة في بعض تلك الدول الى النظام الرأسمالي الديمقراطي ، وكفى بذلك برهانا على سقوط اصل النظرية وتهافتها فلسفيا<sup>(١)</sup> ، بل راحت الحكومات الشيوعية المتبقية تخطب ود عدوها ، الانظمة البرجوازية الرأسمالية ، وراحت الاحزاب الشيوعية في دول العالم تبذل جدها وتعقد صداقة زائفة مع الدين والاحزاب الدينية والحكومات الرأسمالية ، وتنخرط في العملية السياسية الديمقراطية السلمية ، ولسنا هنا بصدد نقد الفكر السياسي والاقتصادي للماركسية بل بصدد نقد الالحاد فلا نطيل . إن نقد الالحاد هو بداية نقد بحر الدماء والرذيلة الذي تمثل الشيوعية واحدة من اهم وابشع نماذجه التاريخية .

## ٨- الإلحاد المعاصر والعولمة

اتسم الالحاد في القرن العشرين بسمة الماركسية الشيوعية ، التي خطفت شعاراتها البراقة قلوب البعض من الشباب المتصف بالروح الثورية والفقر الفكري والمادي ، ولكنها لم تستطع تحقيق وهما في القضاء على الدين والفقر ، حتى في الدول التي سيطرت عليها الاحزاب الشيوعية ، بل بالعكس ازداد المؤمنون ايمانا وعددا وتخلي العديد من اقطاب الماركسية عن ماركسيتهم ، مثل المفكر الفرنسي الماركسي السابق روجيه غارودي الذي دخل الاسلام عام (( ١٩٨٢ م )) . ولكن بين ابتهاج النظام الرأسمالي العلماني الغربي بسقوط النظام الشيوعي السوفيتي (( ١٩٩١ م )) وبين هلهة من صعود الاسلام كمنظومة عقائدية سياسية مضادة ، خصوصا بعد قيام الحكومة الاسلامية في ايران (( ١٩٧٨ م )) ، برز وهم جديد للإلحاد تمثل في مشروع عولمة الديمقراطية الليبرالية الامريكية بمبادئها في العلمانية والحرية السياسية والاقتصادية والدينية والشخصية ، كايولوجية كونية تمثل - حسب وهمهم - خلاصة ما وصل اليه الفكر الانساني في تحقيق السعادة للمجتمع البشري . وهم لا يقصدون واقعا بالعلمانية سوى رفض أن يكون لله أي دور في سياسة عباده ، ولا

(١) راجع : الموسوعة البريطانية ، الاتحاد السوفيتي

يقصدون بالحرية السياسية سوى تقييد الشعوب بدستور يضمن مصلحة الطبقة الرأسمالية ، ولا يقصدون بالحرية الاقتصادية سوى اطلاق عنان الشركات الرأسمالية لتبتلع الفقراء ، ولا يقصدون بالحرية الدينية والشخصية سوى الترويج للإلحاد والانحلال الاخلاقي . جاءت هذه الاطروحة في كتاب (( نهاية التاريخ )) لخبير السياسة الاميركية فرانسيس فوكوياما عام (( ١٩٩٢ م )) وتولت تطبيقها مؤسسات الالحاد المبطن ليس على الطريقة السوفيتية ، باستعمال القوة الخشنة والاحزاب الثورية التي ثبت فشلها ، بل باستعمال القوة الناعمة عن طريق الضغط السياسي والاقتصادي والاعلامي على الدول ، وفتح عالم الانترنت والقنوات الفضائية ، وما يسمى منظمات المجتمع المدني والمننديات الشبابية والأفلام الموجهة لغسل ادمغة الاطفال والشباب ، كما جرى اصطناع نجوم للإلحاد من المرضى عقليا ونفسيا ، المغلفين بشهادات والقاب علمية لوسم الالحاد بسمة العلمية مع كون العلم منه براء ، فكان ممن اصطنعوه لهذه المهمة ستيفن هوكنج بدعوى انه عبقرى الفيزياء الكونية الملحد الذي يبرهن عدم الحاجة لوجود خالق للكون على اساس فرضية الانفجار الكبير ، بينما تكفل ريشارد دوكنز بدعوى انه عبقرى البيولوجيا التطورية الملحد بمهمة برهنة عدم الحاجة لوجود خالق للأحياء على اساس فرضية التطور الدارونية ، وسيأتي ان شاء الله عرض فرضياتهم ومناقشتها وبرهان تهافتها وعدم قدرتها على اثبات ما تدعيه . وقد امتلأت مؤسسات الالحاد المبطن رعبا من الإسلام عند بروز تنظيم القاعدة الإرهابي وقيام فئة متحجرة محسوبة على الاسلام والمسلمين بتفجير مركز التجارة العالمي في اميركا عام (( ٢٠٠١ م )) ، ذلك التفجير الضخم الذي أودى بحياة الآلاف من المدنيين ، مما زاد بعض الملاحدة مرضا وحنقا وجزما بأن الدين يشكل اخطر العقبات امام تحقيق مصالحهم السياسية والاقتصادية في العالم ، وأنه الكابوس الاخلاقي الاكبر الذي يفسد عليهم بهيميتهم ويحول بينهم وبين أن يتمتعوا ويعيشوا كما تعيش الأنعام ، و أعطاهم الذريعة لقيادة حملة للقضاء على الدين بدعوى ان الدين يعني الارهاب وتعكير صفو السلام العالمي !! فقد كتب الملحد الامريكي الشرس سام هاريس كتاب (( نهاية الايمان )) عقب ذلك التفجير مؤكدا أن السبيل الوحيد

ليتلخص عالمه من الارهاب هو إلغاء الاديان جميعها ، وتطبيقا لذلك رفع نبي الملاحدة المعاصر ريشارد دوكنز شعار (( العالم بلا دين افضل )) و (( يا ملاحدة العالم اتحدوا )) مستلهما بذلك شعارات فولتير في شبابه وماركس في عذابه ، ومعلنا استمرار تيار الالحاد المناهض للدين . والعجيب أن دوكنز بصفته الاكاديمية يزعم تمثيل العقلانية العلمية وهي تقوم على مبدأ اللاحتمية العلمية ، أي عدم وجود اليقين في النظريات العلمية ، والاعجب أنه يصنف نفسه في رتبة اللا أدرية أي لا جزم له بوجود او عدم وجود الله ، فشرسته في محاربة الدين واستماتته في سلب المؤمنين ايمانهم هي خيانة لمبادئ العلم عموما ولنفسه خصوصا ، ولا مبرر لذلك سوى المرض النفسي ، أو صفقة تجارية مع مؤسسات الالحاد المبطن . في مقابل تيار الالحاد المعاصر المناهض للدين برز تيار الالحاد المتوافق مع الدين ، وهو التيار الإلحادي الذي يحترم حق الآخرين بالتدين ولا يرى في الدين خطرا يجب على الناس اجتنابه ، ولا يجعل من الالحاد رسالة يبشر بها . من الذين مثلوا تيار الالحاد المتوافق مع الدين كارن ارمسترونج البريطانية الملحدة اللا دينية (( مؤمنة بطريقتها الخاصة )) وقد كانت راهبة كاثوليكية ، ثم اصطدمت بتعاليم الكنيسة فألحقت واعتبرت أن الاديان مجرد اساطير ، لكنها لم تحارب الاديان بل بالعكس تصدت للتيار المناهض للدين وسعت الى التوفيق بين الاديان بنزع خصوصياتها وجمعها في دين اللا دين ، تقول في مقدمة كتابها (( الله لماذا ؟ )) : (( لا أنوي اطلاقا الهجوم على أية معتقدات يعتنقها الافراد بصدق ))<sup>١</sup> وفي آخر الكتاب تقول : (( فما يردده الملحدون الجدد يكشف عن عدم فهم يعكس تشويشا واضطرابا او عدم اكترات بتشابك والتباس التجربة الانسانية في العصر الحديث ، كما أن جدالهم العنيف للطعن في آراء مخالفيهم يعجز تماما عن الاحاطة بعناية بأديان التوحيد الثلاثة ))<sup>٢</sup> وهذا برهان على تهافت الملاحدة

١ - الله لماذا ؟ ، كارن ارمسترونج ، ص ١٩

٢ - المصدر السابق ، ص ٤٦٥

## \* خلاصة قصة الإلحاد

تبين لنا مما تقدم ان جذور الالحاد تعود الى مرحلة الفلسفة اليونانية (( ٥٠٠ عام )) قبل الميلاد ، أي أن عمر الإلحاد مع ملاحظة توسعنا في تعريف الالحاد ، ومع المبالغة في التقدير الزمني ، لا يتجاوز (( ٢٥٠٠ عام )) تقريبا ، أما قبل ذلك فلم يثبت - تاريخيا - مرور البشرية بمرحلة الحادية ، ويكذب من يزعم ثبوت ذلك ، فكل الحضارات القديمة المعروفة كالحضارة السومرية والبابلية والفرعونية والفارسية والهندية والصينية اليونانية والرومانية وغيرها كانت تؤمن بوجود الإله الخالق للكون ، وإن اختلفت في اسمه وصفاته ورساله وطرق عبادته ، ولا حاجة بنا الى اثبات ذلك بالمصادر ، فحتى الاطفال اليوم يعرفون اسماء بعض آلهة الاغريق وسومر وبابل ومصر ، كزيوس وافروديت و مردوخ وعشتار وأمون وايزيس ، وهذا يثبت اصالة الدين و عرضية الالحاد . ولا يعني تعدد الالهة أن الاصل في الدين هو الاشراك ثم طراً التوحيد بعد ذلك ، كما يحلو لبعض الملاحدة أن يزعم ، بل إن دين التوحيد هو الاصل ثم طراً الانحراف والتشريك ، فقد بدأ الإنسان بالإيمان بوجود الله وحده ثم تدهورت مفاهيمه الدينية إلى الإيمان بآلهة متعددة ، هذا ما تثبته الكتب المقدسة لليهود والنصارى والاسلام ، كما تثبته أيضا الدراسات الانثربولوجية والسيسولوجية والميثولوجية ، وممن اثبت ذلك - انثربولوجيا - فيلهلم شميدت في كتابه (( أصل فكرة الله )) واثبته - ميثولوجيا - كارن ارمسترونج في كتابها (( تأريخ الاسطورة )) حيث تقول : (( فقبل البدء بعبادة آلهة عدة اقتصر الناس في أجزاء مختلفة من العالم على الاعتقاد بإله واحد قادر خلق العالم ويدير شؤون الناس عن بعد . احتوت كل المعابد القديمة على (( الله السماء )) حيث وجده الانثربولوجيين عند القبائل مثل بيجميز الاستراليين والفيوجيانز ، كان هذا الإله السبب الأول لكل الأشياء وحاكم السماء والأرض ))<sup>١</sup> .

<sup>١</sup> - تأريخ الاسطورة ، كارن ارمسترونج ، ص ٢٣

كما تبين لنا مما تقدم ان الالحاد عبارة عن فايروس اصيبت به الحضارة الانسانية في المرحلة اليونانية لظروف خاصة ولم يتمكن من الفتك بها ، ثم انتقل عبر البحر وتزندق في بغداد ، ولما لم يجدها بيئة مناسبة بل مكافحة للفايروسات عاد الى اوربا وتستر بالعلمانية ، ثم شاع في الشيوعية وتعولم بالعولمة . فهو حالة مرضية تعود جميع اعراضها الى مذاهب الذرية والشكية والابيقورية اليونانية وإن حاول في كل مرحلة ان يطور نفسه او يغير شكله ، وقد عاد اليوم الى المجتمع الاسلامي متوهما وجدان البيئة المناسبة او متخيلا الأمان بوجه من الوجوه ، او محاولا ايجاد تشابه بين ظروف المجتمع الاسلامي المعاصر وظروف المجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر ، ومحاولا اعادة تصنيع فولتير و لويس سادس عشر وبابا كاثوليك بنسخ اسلامية ، لإيهام من لا يملك الوعي التاريخي بوجود عصر تنوير حقيقي في القرن الثامن عشر وأنه قد حان حينه في المجتمع الاسلامي ، ونحن قد طالعنا فيما سبق ظروف عصر التدمير الاوربي وحقيقته وكيف كانت نهايته ، فلا ربط بينه وبين ظروف المجتمع الاسلامي المعاصر ، كما لا تشابه بين مقومات الحضارة الاوربية المسيحية والحضارة الاسلامية ، فالحضارة الاسلامية قائمة على الرسالة الإلهية الاشمل الاكمل ، وعلى تعظيم مكارم الاخلاق ، وعلى رجال تجسد فيهم كمال الرسالة وكمال الاخلاق ، ولئن استطاع الفايروس ان يصيب بعض افراد المجتمع الاسلامي فإنه لا يزيد المجتمع إلا حصانة ووعيا وايمانا ، وادركا لطريق الاسلام المحمدي الاصيل الذي اوصى به الرسول الاكرم امته قبيل وفاته فقال صلى الله عليه وآله : (( إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ))<sup>١</sup> ، ذلك الطريق الذي عمد خلفاء الباطل وسلاطين الجور على مر العصور الى طمسه ، وعمد فقهاء السلطة واعلامها المأجور الى تجنب السير عليه والى تجهيل الامة به ، وعلى اولئك قد اعتمد معظم المستشرقين في تشويه الاسلام ، واعتمدت مؤسسات الالحاد العالمي في تضليل بعض افراد

<sup>١</sup> - الكافي ، ج ٢ ، كتاب الايمان والكفر ، باب (( أدنى ما يكون به العبد مؤمنا او كافرا او ضالا )) ، الحديث رقم ١

المجتمع الاسلامي . و كما ذكرنا فأن تيار الالحاد المناهض للدين قد عاد ولكن هذه المرة بأشد الأدوات الاعلامية مكررا واوسعها نطاقا ، وبتركيز أكبر على دين الاسلام ، لذلك فأن من المتوقع ان تكون هذه المرحلة المعاصرة هي آخر صيحات الملاحدة ونهاية تأريخ الالحاد .

## الفصل الثاني

### فرضيات الملحدين حول أصل الدين

نستعرض في هذا الفصل اهم الاطروحات التي وضعها الملاحدة لتفسير وجود الدين والايمان ، وهذه الاطروحات مبنية على افتراض ان الدين والتدين حالة عارضة للفرد والمجتمع الانساني ، ونحن وان كنا قد اثبتنا - تاريخيا - اصالة الدين و وهمية الالحاد في الفصل الاول وبيننا زيف هذا الافتراض ، إلا أن هذه الاطروحات مما يتمسك به الملاحدة لإلقاء الشبهات على المؤمنين لذلك نرى لزاما علينا عرضها وبيان تهاافتها .

## ١- فرضية الأرواح و الاحلام

رائد هذه الفرضية هو الملحد البريطاني الأنثربولوجي إدوارد تايلور (( توفي ١٩٠٩ م )) ، حيث قام بصياغة فرضيته في اصل الدين والمعروفة باسم الأرواحية ((Animism)) نسبة الى الأرواح وشرحها في كتابه ((المجتمع البدائي)) ، وقد وصف تايلور فرضيته بانها نظرية الحد الأدنى في تعريف الدين ، مفترضا أن الدين في كل العالم هو نمط واحد قد تطور من الحالة البسيطة الى الحالة المعقدة .

يفترض تايلور ان اقدم شكل للدين يقوم على الايمان بوجود الارواح ، وهو يفترض أن فكرة وجود الروح قد تكونت لدى الانسان البدائي من خلال مراقبته لظاهرة الاحلام ، ففي الاحلام يرى النائم اقاربه واصدقائه واسلافه الذين قد ماتوا منذ زمن بعيد ، كما انه ايضا يسافر سائحا من خلال النوم الى مناطق نائية وجسده راقد في سريره ، ومن هنا انبثقت - كما يزعم - في ذهن السلالة الاولى من البشر فكرة وجود الروح وثنائية الروح والجسد ، وأن الروح عند مفارقتها للجسد تكتسب قدرات وطاقات اضافية ، وهي تستطيع ان تسكن في اي موضوع من موضوعات العالم الطبيعي ، وأن الارواح المتحررة تبقى بشكل من الاشكال متصلة بعالم الاحياء ولها تأثير فيه ، ومن هنا جاءت فكرة الطقوس العبادية وتقديم

القرابين ، ثم تطورت الفكرة من عبادة الأرواح الكامنة في الموجودات الطبيعية أو عبادة خصوص أرواح الأسلاف الى الاعتقاد بالآلهة الغيبية<sup>(١)</sup> ونحن نرد هذه الفرضية بفروعها التي قال بها سبنسر و فريزر فنقول :

أولا : أول من رفض هذه الفرضية هو زعيم الملاحدة دوركايم ، الذي يعدونه مؤسس علم الاجتماع الحديث ، وهو صاحب الفرضية الطوطمية التي سنذكرها لاحقا ، حيث نقد هذه الفرضية كثيرا في كتابه (( الأشكال الأولية للحياة الدينية )) الصادر عام (( ١٩١٢ م )) وأعتبرها غير عقلانية ولا ينبغي أن تصدر من إنسان عاقل ، فالدين اهم واعمق وأشد رسوخا من ان ينشأ عن احلام نائم ، قال : (( لا يجدر أن يخطر بالبال أن مجموعات من الافكار مثل الدين، والتي أدت دورا مهما للغاية على مر العصور، وعليها اعتمدت الشعوب في كل الأزمنة لأجل الحصول على القوة المطلوبة لبقائها ، لا يعقل أن تكون مجرد نسيج من الأوهام . نحن نعرف اليوم أن القضاء والأخلاق وحتى التفكير العلمي تولدت من الدين، وامتزجت به خلال فترة طويلة وبقيت متداخلة فيه. كيف يمكن لرؤيا وهمية أن تشكل بطريقة صلبة ولفترة زمنية طويلة فكر ومعرفة البشر؟ ))<sup>٢</sup> ، وهذا كلام سليم تماما ، فمن المضحك للتكلى هذا العقل الالحادي الذي يرى أن اصل الدين هو الاحلام والكوابيس ، ولكن سنرى مدى عقلانية دوركايم و وفائها بهذا الكلام عند عرضنا لفرضيته الطوطمية .

ثانيا : إن هذه الفرضية تدعي أن الحالة الأولية للدين هي عبادة ارواح الاجداد أو مطلق الارواح المزعوم وجودها في الموجودات الطبيعية ثم تطورت الى عبادة الله تعالى ، ولكن هذه الدعوى يعارضها العديد من زعماء الملاحدة مثل كارن ارسترونج التي سنذكر فرضيتها الاسطورية لاحقا ، حيث تقول : (( فقبل البدء بعبادة آلهة عدة اقتصر الناس في أجزاء مختلفة من العالم على الاعتقاد باله واحد قادر خلق العالم ويدير شؤون الناس عن بعد . احتوت كل المعابد القديمة على (( الله السماء )) حيث

(١) راجع : قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (( تايلور ، ادوارد ))  
- الموسوعة البريطانية ، مادة (( الأرواحية ، Animism ))

٢ - الأشكال الأولية للحياة الدينية ، إميل دوركايم ، ص ٧٠

وجده الانثربولوجيين عند القبائل مثل بيجميز الاستراليين والفيوجيانز ، كان هذا الإله السبب الأول لكل الأشياء وحاكم السماء والأرض (( ' ، أي أن عبادة إله واحد هي الأصل ثم حصل التدهور متخذاً اشكالا متعددة من الضلال .

ثالثا : تدعي هذه الفرضية أن السبب في عبادة الأرواح هو الاعتقاد بامتلاكها لقدرات فائقة عند انفصالها عن الجسد بالنوم أو الموت ، وقد جاء هذا الاعتقاد مما يراه النائم في احلامه من انطلاق الأرواح في آفاق واسعة وقيامها بأفعال خارقة . نقول : إن الانسان النائم كما يرى روحه في احلامه وهي تنطلق في آفاق واسعة وتقوم بأفعال خارقة كذلك يراها وهي تتردى من شاهق أو يأكلها السبع مثلا ، فلماذا رجح السيد تايلور الحالة الإيجابية للروح وجعلها موجبة لعبادة الأرواح دون الحالة السلبية المبرزة لضعف الروح ؟ إنه ترجيح بلا مرجح ، ام يريد القول أن السلالة الاولى من البشر كانت احلامهم مقتصرة على رؤية الحالة الايجابية للروح ؟ لا يمكنه اثبات ذلك ولا حتى في أحلامه .

رابعا : لم يذكر تايلور ومن قال بالفرضية الأرواحية مثل فريزر وسبنسر سببا للتطور المزعوم بتحول البشر من حالة تقديس روح الاسلاف او الخوف من ارواح الموتى الى عبادة ارواح الموتى ، فالتقديس والخوف شيء آخر غير التأليه والعبادة ، كما لم يذكروا سببا للتحول من عبادة أرواح الأسلاف أو مطلق الارواح الكامنة في الموجودات الطبيعية الى حالة عبادة الله خالق الموتى والطبيعة ولا كيف حصل هذا التطور . لم يذكروا دليلا لأن فرضيتهم باطلة ويريدون ترقيع فجواتها بالطفرات ، انها طفرات دينية ، على غرار الطفرات البيولوجية التي رقع بها دارون فرضيته الواهية في تطور الانواع الحية من بعضها البعض .

١ - تاريخ الاسطورة ، كارن ارسترونج ، ص ٢٣

## ٢ - فرضية الجهل

أبرز المنظرين لهذه الفرضية هو الملحد الفرنسي أوغست كونت مؤسس الفلسفة الوضعية<sup>(١)</sup> (( توفي ١٨٥٧م)) حيث زعم في كتابه (( دروس في الفلسفة الوضعية )) انه قد اكتشف قانون تطور العقل البشري فقال : (( من خلال دراسة التطور الكلي للذكاء البشري في مختلف مجالات نشاطه ، من أبسط تطوره إلى يومنا هذا ، أعتقد أنني اكتشفت قانونًا أساسيًا كبيرًا ، يخضع له لضرورة ثابتة. والذي يبدو لي راسخًا ، إما على البراهين العقلانية التي توفرها معرفة منظماتنا ، أو على التحقيقات التاريخية الناتجة عن دراسة متأنية للماضي . يتكون هذا القانون من حقيقة أن كل من مفاهيمنا الرئيسية ، كل فرع من فروعنا ، يمر عبر ثلاث حالات نظرية مختلفة: الحالة اللاهوتية أو الوهمية ؛ الحالة الميتافيزيقية أو المجردة ؛ الحالة العلمية أو الوضعية ))<sup>٢</sup> .

وخلاصة هذا القانون انه يقسم تاريخ المعرفة الى ثلاث مراحل متتالية : المرحلة الدينية ثم المرحلة الفلسفية ثم المرحلة العلمية ، ففي طفولة العقل البشري حيث كان البشر يجهلون حقائق الطبيعة وتفسير ظواهرها فأنهم نسبوها الى موجودات خارقة ما وراء الطبيعة أو أرواح كامنة في ذات الموجودات الطبيعية ، ثم تطور العقل البشري فراح يبحث عن الاجابات بالتأملات العقلية الفلسفية المجردة ، ثم تطور واستطاع بالعلوم الحسية ان يكتشف قوانين الطبيعة واسباب الظواهر الطبيعية . وعلى هذا فإن الدين - حسب فرضية كونت - هو وليد الجهل ويشكل مرحلة بدائية للمجتمع البشري قد تم تجاوزها بتطور العلوم ، وهذا القانون حسب زعمه ينطبق على الفرد كما ينطبق على تاريخ المجتمع ، فالفرد في مرحلة الطفولة لَمَّا كان يجهل اسباب الظواهر فإنه ينسبها الى قوى غيبية غير مادية ثم في

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( كونت )) ، ص ٢٦٦

- معجم الفلاسفة ، مادة (( كونت )) ، ص ٥٤٠

٢ - دروس في الفلسفة الوضعية ، أوغست كونت ، الدرس الاول ، ج ١ ص ١

شبابه يدرك رجوعها لقوانين المادة . ونحن نرد هذه الفرضية ومشتقاتها فنقول :

اولا : إن هذه الفرضية تعترف بالأصالة التاريخية والروحية للدين والتدين وإن كانت تردده الى الجهل بأسباب ظواهر الطبيعة ، وهذا يثبت بطلان دعوى اصالة الالحاد .

ثانيا : هذه الفرضية تعبر عن الدين كمرحلة تاريخية متقدمة على المرحلة الفلسفية ، ولكن الواقع التاريخي يثبت عكس ذلك ، فمثلا بعد ازدهار المدارس الفلسفية في أوروبا قبل الميلاد جاءت القرون الوسطى المسيحية التي كانت دينية بامتياز .

ثالثا : اذا كانت السلالة الاولى من البشر - حسب زعم هذه الفرضية - قد ابتكرت وجود الله كتفسير للظواهر الطبيعية ، فكذلك السلالة المتأخرة من البشر قد اكتشفت القانون الطبيعي لتفسير الظواهر الطبيعية ، فما الذي جعل السلالة الاولى تؤله وتعبد ابتكارها بينما السلالة المتأخرة لا تؤله وتعبد اكتشافها ؟ وبعبارة اخرى : إن وجود الله مادام هو مجرد تفسير للظواهر الطبيعية بحسب منطق السلالة الاولى فلماذا يعبدونه ؟ هذا يعني أن التأليه والعبودية هي لغرض آخر ، غير معرفة اسباب الظواهر الطبيعية ، وأن وجود الله ليس ابتكارا لتفسير تلك الظواهر .

رابعا : هذه الفرضية تزعم ان العلم قد احال الدين على التقاعد فلم تعد البشرية بحاجة اليه بعد تصدي العلم للإجابة عن الاسئلة الكبرى ، وهذه اذنوبة كبيرة ومبالغة في تعظيم العلم وتضليل لعقول البسطاء ، فميدان العلوم الطبيعية منحصر في البحث عن كيفية حدوث الظواهر الطبيعية والعلاقات بين الموجودات كالكسوف والكسوف والزلازل وحركات الاجسام وغيرها ، وليس من شأنه البحث في العلل الاولى للموجودات ، وقد اتفق جمهور علماء الطبيعة اليوم على حصر أبحاثهم ونطاق عملهم في معرفة كيفية حدوث الظواهر واسبابها القريبة ، وترك البحث عما وراء ذلك من العلل البعيدة ، وهذا موقف علمي رشيد يدل على التواضع العلمي ووفاء العالم لعلمه ، فما يتشدد به انصار فرضية الجهل من أن العلم قد

احال الدين على التقاعد ما هو الا تبجح من بعض الملاحدة يكشف عن غرورهم وجهلهم بحقائق التاريخ والانسانية والعلم ، كتبجحهم بفرضية دارون وفرضية الانفجار الكبير رغم عدم ثبوتهما في الاوساط العلمية .

خامسا : لازم هذه الفرضية ان الانسان عندما يكون عالما بقوانين الطبيعة فإنه سيكون ملحدا ، وهذا الزعم ينقضه الواقع فالكثير من علماء الطبيعة هم مؤمنون ، ونحن لا نريد أن ندخل في جدل ذكر اسماء العلماء المؤمنين بالله ، حيث درج سفهاء الملاحدة على انكار ايمان كل عالم ، ولكن حسبنا الارشاد الى كتاب (( الله يتجلى في عصر العلم )) الذي هو عبارة عن مجموعة من المقالات كتبها ثلاثون من العلماء الامريكيين في تخصصات علمية مختلفة ، وفيه يثبت كل عالم منهم وجود الله من وحي تخصصه دحضا لافتراءات الملاحدة على العلماء ، وبرهانا على أن معرفة قوانين الطبيعة لا تزيد المؤمن إلا ايمانا بعظمة الخالق .

سادسا : إن اتباع هذه الفرضية يقرون بمبدأ العلية وأن قضية (( لكل معلول علة ولكل حادث محدث ولكل أثر مؤثر )) هي قضية بديهية راسخة في تخوم الوجود البشري ، ولا علاقة لها بالنضج العقلي ولا تطور المعارف البشرية ، ولكنهم يزعمون أن اسلافنا من البشر قد اخطأوا الاستدلال بالمعلول على العلة فنسبوا الحوادث الكونية والظواهر الطبيعية الى غير علتها الحقيقية وهي قوانين الطبيعة !! وهكذا يريد الاستاذ كونت واتباعه اخراس الالسن ولجم العقول ، مدعيا انه قد أتى بالذئب من ذيله وانزل الدين من علياء عرشه . لكن هيهات ، إنما أتى بفضيحة الملاحدة وأزرى بالعلم ولم يكن مستوليا إلا على اضعف السفهاء ، أما العقول الجامحة والالسن الصادحة فتظل تفكر وتسأل : ومن قنن قوانين الطبيعة ؟ يقولون : نحن اكتشفنا قوانين الطبيعة عند معرفتنا لخواص العناصر والمركبات الطبيعية . قلنا : ومن الذي جعل لكل عنصر من عناصر المادة ولكل مركب من مركبات المادة خواص كيميائية وفيزيائية خاصة به يمتاز بها عن غيره ؟ يقولون : إن ذلك يرجع الى الظروف التي تشكلت بها عناصر المادة والمركبات . قلنا : ومن الذي أوجد ورتب هذه الظروف بحيث انتجت في النهاية تلك القوانين الطبيعية الكلية الثابتة المتحكمة في

الحوادث والظواهر والموجودات ؟ يقولون : لم يوجد لها أحد ولم يرتبها أحد بل هي حصلت هكذا صدفة بصورة عشوائية !! قلنا : إذا كانت السلالة البشرية الاولى التي تزعمونها همجية وحشية بربرية جاهلة ، كانت تعتمد التفكير المنطقي المنظم عملا بمبدأ العلية وأنه لا بد لكل معلول من علة بينما انتم انتكستم الى الصدفة والعشوائية ، فمن الأولى منكم بالعلمية والتفكير السليم ؟ ما أتفه العلم حينما يتشدد به الملاحظة وما أجمله حينما يزيد العالم خشوعا (( فقد يستطيع الانسان أن يفسر ما كان غامضا عليه باكتشاف القوانين التي تحكمه ، ولكن الانسان عاجز عن أن يفسر تلك القوانين ، فهي من صنع الله وحده ، ولا يفعل الانسان أكثر من أنه يكتشفها ثم يستخدمها في محاولة ادراك اسرار هذا الكون ، وكل قانون يكتشفه الانسان يزيده قربا من الله ))<sup>١</sup> .

سابعاً : إن التفكير الديني والفلسفي والعلمي ليست مراحل تاريخية للفكر البشري متميزة زمنياً عن بعضها البعض كما تزعم هذه الفرضية ، بل هي انماط للتفكير ترافق الوجود النوعي والفردى للإنسان فلا ينفي بعضها بعضاً ، ففي عصر واحد قد توجد هذه الانماط الثلاثة للتفكير متزامنة كما فيما سمي بالعصر العباسي حيث وجد علماء الدين مع الفلاسفة وعلماء الطبيعة ، وقد يشيع احد انماط التفكير في فترة ما دون ان يلغى انماط التفكير الاخرى كشياع التفكير العلمي فيما سمي بعصر الثورة الصناعية في أوروبا وهو العصر الذي طرح فيه كونت فرضيته الاحادية ، علماً أن سبب تعظيم العلم وشياع نمط التفكير الوضعي في القرن التاسع عشر ليس راجعاً للتطور العلمي أو تطور العقل البشري ، بل لتوجهات اقتصادية وسياسية ولأجل الخصومة مع الكنيسة وتعاليمها ، فقد اتخذ الجشع الرأسمالي العلماني من العلم الوضعي وسيلة لتضخيم رأس المال على حساب الدين والاخلاق .

ثامناً : لا دليل عند كونت ومن يتشدد بهذه الفرضية سوى الشواهد التاريخية ، التي ذكرت ابتداء بعض الامم آلهة متصرفة بالطبيعية كآلهة

<sup>١</sup> - الله يتجلى في عصر العلم ، نخبة من العلماء الامريكيين ، ص ١٠٨

الشمس والقمر والرياح والخصب ، ونحن نقر بضلال البشرية في بعض المراحل التاريخية ، ولكن ذلك لا يعود الى الجهل بقوانين الطبيعة بل الى الضلال عن الله الواحد الاحد الخالق الحقيقي لكل الوجود والمدبر الاصلي لجميع شؤون الكون ومطبع الطبيعة ومقنن قوانينها ، قال الله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ))<sup>١</sup> ، فما ذكره كونت واتباعه مجرد تأويل لحالة ضلالية عارضة ينافيه الواقع التاريخي والمعاصر .

تاسعا : لا نجد العلم الوضعي في يومنا هذا قد تمكن من الاجابة الحاسمة عن الاسئلة الكبرى حول اصل الوجود ومصيره ، كما لا نجد انقطاع البشرية عن السؤال عما وراء ظاهر الطبيعة ، وعن معنى الحياة وهدفيتها مهما بلغ رقيها في العلم الوضعي ، وهذا يثبت اصالة هذه الاسئلة وعمقها في الوجدان البشري ، فهي اسئلة ترافق الوجود البشري بجميع مراحل التاريخ ولا تختص بمرحلة معينة ، كما ترافق تفكير الفرد في جميع مراحل حياته بقطع النظر عن مستواه الثقافي ونضجه العقلي ، بدليل أن اوغست كونت نفسه لولا تفكيره في هذه المسائل لما وضع فرضيته هذه وإلا فلا نحتمل أنه استيقظ صباحا فوجد الفرضية تحت الوسادة مثلا .

عاشرا : يا عزيزي إن الحاجة للدين لا تقتصر على الحاجة الى معرفة الاجابة عن الاسئلة المعرفية الكبرى ، فهذه المعرفة هي من توابع الحاجة الفطرية للدين ، وهي الحاجة الى الكمال الروحي والتعلق بالكمال المطلق الذي لا يشوبه النقص ، فإن ادعى كونت واتباعه وجود صراع بين العلم والدين وأن العلم قد حل بديلا عن الدين في جانبه المعرفي وهي دعوى باطلة ، فإنه يستحيل أن يحل بديلا عن الدين في جانبه الروحي ، بدليل أن اوغست كونت نفسه قد ابتدع في آخر حياته دينا وجعل له ربا وطقوسا ونصب نفسه كاهنا ، فهذا برهان عبثية اوغست كونت التي سخر منها حتى كبار الملاحدة أمثال دوركايم كما سنذكر لاحقا .

<sup>١</sup> - سورة فصلت

### ٣- فرضية الفقر

ابرز المنظرين لهذه الفرضية هو الملحد من أصل يهودي ، الالمانى كارل ماركس (( توفي ١٨٨٣ م )) مؤسس الشيوعية الديالكتيكية<sup>(١)</sup> ، وتزعم هذه الفرضية ان الدين هو وسيلة اخترعها الأقوياء والاثرياء لتخدير الفقراء وايهامهم بسعادة زائفة لمنعهم عن التمرد والمطالبة بحقوقهم ، كما ان التدين من جهة الفقراء هو وعي زائف وانعكاس لحالة الفقر حين يعجز الفقير عن تحقيق السعادة في حياته الواقعية فيوهم نفسه بتحقيقها في حياة اخرى ، يقول ماركس : ((ان التعاسة الدينية هي في شطر منها ، تعبير عن التعاسة الواقعية ، وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية . الدين زفرة الإنسان المسحوق ، روح عالم لا قلب له ، كما انه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح ، انه أفيون الشعب . إن إلغاء الدين من حيث هو سعادة وهمية للشعب ، هو ما يطلبه صنع سعادته الفعلية . ان تطلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو تطلب التخلي عن وضع بحاجة الى وهم . فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا ))<sup>٢</sup> ، ويقول في البيان التأسيسي للحزب الشيوعي الذي كتبه مع شريكه فردريك انجلز : (( القوانين والاخلاق والدين هي والاحكام البرجوازية المغرضة الكثيرة سواسية بالنسبة اليه ، تتستر وراءها مصالح برجوازية كثيرة ))<sup>٣</sup> ونحن نرد هذه الفرضية ومشتقاتها فنقول :

اولا : إن هذه الفرضية بحسب التنظير الماركسي الشيوعي قائمة على افتراض ان المجتمع البشري الاول لم يكن مشتملا على سلطة حاكمة ولا على انظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الافراد ، وأن كل خيرات الارض كانت مشاعة أي مبدولة للجميع ، وكان ناتج العمل يقسم بين جميع الافراد

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( ماركس )) ، ص ٦١٨

٢ - نقد فلسفة الحق عند هيجل ، ص ١

٣ - بيان الحزب الشيوعي ، ماركس و إنجلز ، الفصل الاول ، ص ٣٦

بالتساوي ، فكان - حسب زعمهم - مجتمعا مثاليا لا وجود للصراعات فيه أبدا ، حتى ظهرت فكرة الملكية الخاصة باستحواذ البعض على وسائل الانتاج كالأرض وادوات العمل ، فكانت الملكية الخاصة هي اصل جميع الصراعات والويلات والشور التي حصلت بعد ذلك ، وبسبب وجود الملكية الخاصة وجد الانقسام الطبقي : طبقة الاثرياء وطبقة الفقراء ، وبسبب الفقر والصراع الطبقي وجد الدين والتدين ، فقبل ظهور الملكية الخاصة لا يوجد دين و لا تدين لعدم وجود الفقر والصراع الطبقي وهذا يثبت اصالة الالحاد بحسب هذه الفرضية ، ونحن نقول : ان هذا المجتمع البدائي الشيوعي الاول لا وجود له أصلا الا في خيال ماركس ومن سبقه من الحالمين كجان جاك روسو ، فهو محض افتراض لا مثبت حقيقي له ، ذلك لأن اقصى ما يثبتته التأريخ المكتوب والمحفور إنما هو وجود سلالة بشرية في مرحلة أقدم كانت تمارس الصيد والرعي والزراعة بشكل جماعي ، ولكن مجرد هذا المقدار لا يثبت المدعيات الشيوعية الكبرى بأنه مجتمع لم يكن مشتملا على سلطة حاكمة ولا على انظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الافراد ولا على ضوابط اخلاقية ولا على دين وتدين ، كما لا يثبت عدم وجود الملكية الخاصة ، ولا يثبت كونه مجتمعا مثاليا لا وجود للصراعات فيه أبدا ، فإنه الى يومنا هذا تمارس الناس الزراعة والصيد والرعي بشكل جماعي ، ولا ملازمة بين هذه الممارسة وبين انعدام الدين والتدين والاخلاق والانظمة والملكية الخاصة والصراعات .

لا يوجد شاهد لماركس واتباعه على وجود المجتمع الشيوعي البدائي المفترض ، سوى اكتشاف حياة بعض القبائل المعاصرة من السكان الاصليين لأستراليا والامريكيتين ، والتي زعموا وجود المشاعة الجنسية والاقتصادية فيها ، فطاروا بذلك فرحا وزعموا انهم قد عثروا على الاثبات التاريخي لشيوعيتهم المفترضة ، بدعوى أن هذه القبائل المعاصرة تعكس طفولة المجتمع البشري ، وأنها مازالت تعيش في مرحلة ما قبل التأريخ أي مرحلة ما قبل ظهور الملكية الخاصة حسب زعمهم ، ومع كوننا لا نسلم بهذه الدعوى ، أي دعوى ان حالة هذه القبائل المعاصرة تعكس طفولة المجتمع البشري ولا مثبت عندهم لهذه الدعوى ، ولكن مع ذلك فإن

اكتشافهم هذا ينقض دعواهم في أن الدين والتدين انما ظهر بظهور المدنية والملكية الخاصة ، فهذا الملحد إنجلز زميل ماركس وشريكه في كتاباته وتنظيراته الشيوعية ، قد بسط الكلام في عرض حياة تلك القبائل المعاصرة في كتابه (( أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة )) بغية اثبات الوجود المفترض للمجتمع الشيوعي البدائي ، هو نفسه يقر بوجود الدين والتدين عند تلك القبائل فيقول : (( لكل قبيلة افكارها الدينية وطقوسها } وقد اصبح الهنود الامريكيون شعبا متدينا بناء على الموضة التي سادت الشعوب في عصر البربرية } . ولم يقم احد بدراسة افكارهم الدينية دراسة دقيقة الى الان ، وكل معلوماتنا عن هذه الافكار هي ايمانهم بالأرواح من كل نوع ، ولم تكن تماثيل الالهة أو الأصنام قد عرفت عندهم بعد إذ كانوا لا يزالون في المرحلة الدنيا للبربرية وكانوا يؤمنون بتعدد الالهة . وقد كان لكل قبيلة احتفالاتها الدينية الخاصة بها ))<sup>١</sup> .

هذه حجة من لسانهم تثبت اصالة الدين و وجوده عند اقدم السلالات البشرية المفترضة ، قبل ظهور الملكية الخاصة والمدنية و قبل أن يغرق الوادي بدموع الفقراء الذين يتباكى ماركس عليهم ، وهذا برهان وهمية الالحاد وبرهان تهافت الملاحدة ، فدعوى ان الدين والتدين وليد الفقر والملكية الخاصة والصراع الطبقي ، هي دعوى باطلة جزما لقيامها على افتراض خيالي ، والعجيب قيام فلسفة تاريخية معرفية اقتصادية اجتماعية سياسية على هذا الافتراض الخيالي ، والاعجب هو قيام امبراطورية إحادية على هذا الخيال الماركسي هي امبراطورية الاتحاد السوفيتي السابق ومنظومة الدول الشيوعية .

ثانيا : ان هذه الفرضية تجعل الدين والتدين بناء فوقيا ، وانعكاسا لحالة الصراع الطبقي ، الراجع الى وجود الملكية الخاصة والبناء التحتي للنموذج الاقتصادي ، وبالتالي فعند إلغاء الملكية الخاصة وزوال ذلك النموذج الاقتصادي يزول الدين تلقائيا ، يقول جورج بوليتزر مؤسس مركز التوثيق التابع للحزب الشيوعي الفرنسي : (( يتولد البناء الفوقي عن

<sup>١</sup> - اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، فرديريك انجلز ، الفصل الثالث ، ص ٩١

الاساس ويزول معه ويكون مصيره مصيره ، اذ تتولد الافكار السائدة في مجتمع معين من نموذج ملكية وسائل الانتاج التي تسيطر فيه ، ليس البناء الفوقي اذن مجرد تراكم افكار سياسية ، تشريعية ، فلسفية ، دينية ، الخ ... ذلك لأن لهذه الافكار رابطا داخليا فهي تعكس نفس الاساس ))<sup>١</sup> . ولكن واقع التطبيق الماركسي يكذب ذلك ، فقد قام الاتحاد السوفيتي السابق ومنظومة الدول الاشتراكية الماركسية بإلغاء الملكية الخاصة وقرار النظام الاشتراكي وتطبيقه ولم يزل الدين ولا التدين تلقائيا ، بل إنهم لم يتمكنوا من اجتثاث الدين والتدين حتى باستخدام اساليب القمع بغلق المساجد والكنائس ، ومنع الكتب الدينية والتدريس والارشاد الديني واعتقال رجال الدين وقتلهم ، ولم يتمكنوا حتى بتغيير المناهج الدراسية ودورات التثقيف الشيوعي ، لقد زالوا ولم يزل الدين والتدين وكفى بذلك برهانا على اصالة الدين والتدين وعلى تهافت الماركسية ووهمية الالحاد .

ثالثا : إن كان الدين هو اختراع الاثرياء لاستغلال الفقراء ، لزم أن يكون كل الاثرياء ملاحدة جشعين ، وهذا اللازم باطل جزما لشهادة الواقع وجود فئة من الاغنياء الصالحين ، المتمسكين بالدين والمضحين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الدين ونصرة المظلومين وانعاش الفقراء ، وإن كان التدين من جهة أخرى هو تعبير الفقراء عن بؤسهم الاقتصادي ، لزم أن يكون كل الفقراء متدينين ، وهذا اللازم باطل جزما كذلك ، لشهادة الواقع وجود فئة من الفقراء لا تؤمن بدين ، فدعوى أن الدين خدعة الاثرياء و زفرة الفقراء كما يدعي ماركس واتباعه ، هي دعوى يكذبها الواقع ، بل ان حياة ماركس نفسه تكذب قوله ، فهو نشأ في عائلة ثرية رأسمالية وكان متدينا ، ثم لما عاش حالة الفقر صار ملحدا ، وكان اللازم حسب اطروحته أن يكون العكس ، أي يكون ملحدا بداية حياته لأنه غني ، ومؤمنا اخر حياته لأنه فقير ، هذا برهان تهافت الملاحدة .

رابعا : إن تأريخ الاديان الالهية يثبت أن الدين هو ثورة الانبياء والصالحين ، على الطغاة الفاسدين المستكبرين وعلى كل مظاهر الظلم

<sup>١</sup> - اصول الفلسفة الماركسية ، جورج بوليتزر ، ج ٢ ص ٧٥

الاجتماعي نصره للفقراء و المظلومين . فهذا النبي موسى عليه السلام قد نشأ في قصر فرعون الذي كان يدعي الربوبية وكان جبارا يستعبد الناس ولكن النبي موسى عليه السلام كان رافضا لربوبية فرعون وعمله ورافضا لحياة القصور ومحبا ونصيرا للمظلومين ، وعندما أمره الله بقيادة الدعوة الالهية وقف في وجه فرعون مطالبا بتحقيق العدالة الاجتماعية ((وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) ))<sup>١</sup> ولم يرضخ للتهديدات ولا للإغراءات الفرعونية ، وعندما خرج ببني اسرائيل من مصر وأغرق الله فرعون وجنوده في البحر ، لم يعد النبي موسى عليه السلام الى مصر ليستولي على ملك فرعون . ثم بعد ذلك ((وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَالْبَيِّنَاتِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (٦٣) ))<sup>٢</sup> ولم يأت ليبرر للطغاة الرومان والمستكبرين من بني اسرائيل ظلمهم ، فقد نشأ فقيرا وعاش فقيرا ، بين الفقراء في فلسطين حين كانت مستعمرة للرومان ، ولما كان المستكبرون من بني اسرائيل يأكلون أموال الناس بالباطل ويخالفون تعاليم الله أمره الله أن يجهر بالحق نصره للمستضعفين وهداية للضالين ، فلقي في سبيل ذلك هو وانصاره شتى الوان العذاب ، وأراد المستكبرون قتله فجعلهم الله الاذلين . ثم (( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) ))<sup>٣</sup> وهو نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله ، الذي نشأ في مكة ورغم كونه من أسياد قبائل العرب ، إلا أنه عاش عيشة الفقراء رافضا لجميع مظاهر الطغيان والاستكبار والعادات الجاهلية وعبادة الاوثان ، ولما أمره الله أن يصدع بالرسالة الالهية لنشر دعوة التوحيد وتتميم مكارم الاخلاق وتحقيق العدالة الاجتماعية ، كان الفقراء والعبيد اسرع من استجاب لدعوته وكان المترفون اسرع من جد في تكذيبه ومحاربتة ، ولما جاء نصر الله والفتح

١ - سورة الاعراف

٢ - سورة الزخرف

٣ - سورة التوبة

أقام دولة العدل الالهي . وهذا خليفته بالحق أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، وهو حاكم الدولة الاسلامية الذي عرك الدنيا ومرغ انفها بالتراب ، قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ، وكانت حياته عبارة عن ثورة مستمرة على الطغيان والترف والفساد والاستكبار قبل السلطة وبعد السلطة ، وهو الذي يقسم فيقول : (( فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا أدخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا ... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القر ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الاطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى وأكباد حرى ؟ ))<sup>١</sup> فرحمك الله يا أبا الحسن صدقت وأوفيت بما عاهدت الله عليه وفزت ورب الكعبة .

وهذا الامام جعفر الصادق عليه السلام ، يشدد المنع على شيعته من الدخول في اعمال سلاطين الجور واعانتهم في ظلمهم ، فعن ابن ابي يعفور قال : (( كنت عند ابي عبدالله ( عليه السلام ) اذ دخل عليه رجل من أصحابنا فقال له : جعلت فداك إنه ربما أصاب الرجل منا الضيق أو الشدة فيدعى إلى البناء بينيه ، أو النهر يكرهه ، أو المسناة يصلحها ، فما تقول في ذلك ؟ فقال أبو عبدالله ( عليه السلام ) : ما أحب أني عقدت لهم عقدة ، أو وكيت لهم وكاء ، وإن لي ما بين لابتيها ، لا ولا مدة بقلم ، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد ))<sup>٢</sup>

وهذا الامام موسى الكاظم عليه السلام ، يعاتب صاحبه المخلص عتاباً مرا وينذره انذاراً شديداً ، لأنه قام بتأجير جماله في خدمة سلطان بني العباس الجائر هارون السفية ، فعن صفوان بن مهران الجمال قال : (( دخلت على ابي الحسن الاول ( عليه السلام ) فقال لي : يا صفوان ، كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً ، قلت : جعلت فداك أي شيء ؟

<sup>١</sup> - نهج البلاغة ، جمع السيد الشريف الرضي ، شرح الشيخ محمد عبده ، ج ٣ ص ٧١  
<sup>٢</sup> - وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، ج ١٧ ص ١٧٩ ، باب تحريم معونة الظالمين ، الحديث رقم ٦

قال : إكراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون - قلت : والله ما أكريته  
أشرا ولا بطرا ولا للصيد ولا للهو ، ولكني أكريته لهذا الطريق - يعني  
طريق مكة - ، ولا أتولاه بنفسي ، ولكني ابعت معه غلماني . فقال لي : يا  
صفوان أيقع كراؤك عليهم ؟ قلت : نعم جعلت فداك ، قال : فقال لي :  
أتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك ؟ قلت : نعم ، قال : من أحب بقاءهم فهو  
منهم ، ومن كان منهم كان ورد النار . قال صفوان : فذهبت فبعت جمالي  
عن آخرها ))<sup>١</sup> .

فأين أفيون الشعوب ايها الماركسيون ؟ إنه في أدمغتك التي اسكرها  
خمر الالحاد والرذيلة ، إنه في اطروحاتكم الزائفة التي خدعتم بها بعض  
السفهاء ، إنه في الأديان الزائفة ورجال الدين المزيفين من وعاظ  
السلاطين ، فاعرفوا الحق تعرفوا أهله .

#### ٤ - فرضية الخوف

أبرز من تشبث بهذه الفرضية ليخدع بها نفسه والآخرين هو الملحد  
البريطاني برتراند رسل (( توفي ١٩٧٠ م )) ، قال في كتابه (( لماذا  
لست مسيحيا ؟ )) : (( يقوم الدين برأيي بصورة اساسية واولية على  
الخوف ، إنه جزئيا الخوف من المجهول ، وجزئيا الرغبة في أن تشعر  
بأن لديك أبا اكبر سيقف الى جانبك في كل ما تواجهه من مشاكل  
ونزاعات . إن الخوف هو أساس الأمر كله ، الخوف من كل ما هو  
غامض ، الخوف من الهزيمة ، الخوف من الموت .... فالعلم يستطيع أن  
يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه  
الجنس البشري لأجيال عديدة . إن العلم يستطيع أن يعلمنا ، وأحسب أن  
قلوبنا ايضا تستطيع أن تتعلم أن لا تجري وراء مدافع خيالي ، وألا نصنع  
لأنفسنا حلفاء في السماء ، بل نبذل قصارى جهودنا على الارض لكي

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، ج ١٧ ، ص ١٨٢ ، باب تحريم معونة الظالمين ، الحديث رقم ١٧

نجعل منها مكانا مناسباً لحياتنا بدلاً من ذلك المكان الذي عملت الكنائس طوال تلك القرون كلها على صنعه<sup>١</sup> .

وخلاصة تقرير هذه الفرضية ، انها تدعي أن الانسان في السلالة الاولى من البشر وجد نفسه ضعيفا محاطا بالأخطار المهددة لحياته من كل جهة ، مهدد من الطبيعة بسبب وقوع الكوارث الطبيعية كالزلازل والصواعق والاعاصير والبراكين والظوفان ، ومهدد من الحيوانات المفترسة التي تفوقه في اسلحتها الذاتية ، ومهدد من اخيه الانسان الذي يعتدي عليه ، ومهدد من نفسه ونوازع الشريرة مع ادراكه لمصيره الحتمي بالموت . كل هذا جعله يعتقد بوجود ارواح في الطبيعة ذات وعي وارادة وقوة ، وان ما يقع من الكوارث الطبيعية والظواهر المخيفة انما هو بسبب غضب الطبيعة عليه ، فراح يقدم الهدايا والقرابين ويقدم طقوس الخضوع لأجل ارضائها ، ومن ناحية ثانية يطلب منها العون على مواجهة اعدائه من الحيوان والانسان ، ومن ناحية ثالثة يضمن السعادة بعد الموت فلا يخاف من المصير المجهول . ونحن نرد هذه الفرضية ومشتقاتها فنقول :

أولا : تشترك فرضية الخوف مع فرضية الجهل التي ذكرناها سابقا في ارجاع الاعتقاد بوجود روح في الطبيعة ، او آلهة مستقلة ما وراء الطبيعة الى الجهل بقوانين الطبيعة ، ولكن الفرق بينهما أن فرضية الجهل ركزت على العامل العقلي وهو الاستناد الى مبدأ العلية ، أما فرضية الخوف فركزت على العامل النفسي وهو الخوف من جبروت الطبيعة ، فالإنسان حسب زعم فرضية الجهل لم يكن خائفا وانما هو اخطأ في الاستدلال بالمعلول على العلة الحقيقية وهي قوانين الطبيعة ، وهو حسب زعم فرضية الخوف جعله الخوف يتوهم وجود قوة حية مدركة واعية متحركة بالطبيعة ، ولذلك فإن تلك الردود التي دحضنا بها فرضية الجهل تدحض فرضية الخوف ولا حاجة لتكرارها .

<sup>١</sup> - لماذا لست مسيحيا ؟ ، برتراند رسل ، ص ٣٤

ثانيا : يقول رسل ((فالعالم يستطيع أن يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجنون والذي عانى منه الجنس البشري لأجيال عديدة )) فلان كلامه أن الانسان كلما ازداد علما بالطبيعة وقوانينها زال منه الخوف عند وقوع الكوارث الطبيعية والظواهر الطبيعية المخوفة ، وهذا اللازم يشهد الواقع ببطلانه ، فنحن نرى معظم البشر تتناهم حالة الهلع والخوف عند وقوع الزلازل - مثلا - بقطع النظر عن مستواهم العلمي ولا تمنع معرفتهم بأسباب الزلازل من الخوف عند وقوعه .

ثالثا : لازم كلام رسل انه كلما تطور الانسان بالعلم كلما زال خوفه من الموت ، وهذا اللازم باطل جزما بشهادة الواقع ايضا ، فحتى الملاحدة والعلماء يخشون الموت ولا يختص الخوف من الموت بالمؤمنين والجهلاء .

رابعا : لازم كلام رسل انه كلما تطور الانسان بالعلم كلما زال خوفه من عدوان اخيه الانسان ، وهذا اللازم باطل جزما ايضا ، فلم يستطع التطور العلمي في يوم من الايام أن يحقق السلام وأن يجلب الشعور بالأمان وأن يكبح النوازع الشريرة لدى الفرد والشعوب والدول ، وخير دليل على ذلك هو الدول الغربية فهي في سباق للتطور العلمي والمعرفي في جامعاتها الدراسية ومختبراتها العلمية ، ولم يمنحها ذلك من استعمار الشعوب وتدميرها ، بل لم يمنحها ذلك الأمن والسلام فيما بينها حيث دخلت في صراع مع بعضها في حربين عالميتين .

العجيب ان برتراند رسل هو من بريطانيا ، اكثر الشعوب تطورا من الناحية العلمية ، وقد عاصر مرحلتها الاستعمارية التي تقطر لها جبين البربرية خجلا ، كما عاصر الحربين العالميتين ، والأعجب ما قيل عنه انه من علماء الرياضيات ، فأى منطق بائس هذا جعله يجزم أن سبب نشوء الدين هو الخوف من الطبيعة ومن الموت ومن عدوان البشر وأنه بمعرفة قوانين الطبيعة ، وتطور العلم والمعرفة ، سيزول الخوف من الطبيعة ومن الموت ومن عدوان البشر وستزول النوازع الشريرة ، وستحل مكانها مشاعر المحبة والتسامح والأمان والسلام بلا حاجة للدين

ولا التفكير فيما بعد الموت ، ولا لتعاليم الكنيسة ، كما يقول في النص السابق (( نبذل قصارى جهودنا على الارض لكي نجعل منها مكانا مناسباً لحياتنا بدلاً من ذلك المكان الذي عملت الكنائس طوال تلك القرون كلها على صنعه )) !! ليس هذا المنطق الرياضي ولا منطق من خبر التاريخ والواقع والنفس البشرية ، إنه منطق الالحاد الذي لا منشأ علمي له ولا علاقة له بالعلم والمعرفة لا من قريب ولا من بعيد ، كل همه أن يخدع نفسه ويبرر لها الحادها بتأطيره بإطار علمي وهمي ، كالطبيب مدمن الخمر يأتي ليبرهن للناس منافعها ، إنه منطق العالم الخائن لعلمه - إن كان عالماً حقاً - وبرهان تهافت الملاحظة ونقضهم لمبادئهم ، فهذا هو التطور العلمي والمعرفي قد بلغ القمة اليوم ، وبرهن أن لا زوال للخوف ولا اطمئنان للقلوب ولا رادع للنوازع الشريرة ، ولا مهذب للأخلاق ولا ضابط لسلوك الفرد والمجتمع بدون الدين الحق (( ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ))<sup>١</sup> .

خامساً : إن الخوف حالة طبيعية عند الانسان ، تنشأ من حبه لذاته و من إدراكه لحجمه الحقيقي في الوجود ، فالإنسان مفطور على حبه لذاته لأجل المحافظة عليها ، فلا يبذلها في غير ما يريده الله من خلقه كما قال تعالى : (( إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ))<sup>٢</sup> ، وهو مخلوق من ضعف كما يؤكد الله تعالى : (( اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ))<sup>٣</sup> ولا حول له ولا

١ - سورة الحج

٢ - سورة التوبة

٣ - سورة الروم

قوة فعلية إلا بمدد ممن له القوة الفعلية المطلقة ، ولكن الانسان قد يغفل عن هذه الحقيقة التكوينية التي يؤكدها القرآن ، فيستكبر أو يستقوي بما هو في ذاته ضعيف ، ولا ينتبه من غفلته إلا إذا انقطعت عنه كل اسباب القوة الوهمية ، كما في الشاهد الذي يذكره الله تعالى : (( هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ))<sup>١</sup> ، وربما عاد الانسان الى غفلته و خداع نفسه ، فلا يدعن حتى يرى العذاب ولات حين مندم (( وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) ))<sup>٢</sup> .

فالخوف يا سيدي ليس هو منشأ الدين والتدين ، وإنما هو كاشف عن واقع الانسان وافتقاره الى الله ذي القوة المتين وتعلقه الفطري به .

## ٥- فرضية الأسطورة وعاطفة التقديس

تمسك الكثير من الملاحدة بفرضية الاسطورة ليبرر إحداه ، ولكن أول من ربط بين الاسطورة وبين عاطفة التقديس للطبيعة كفرضية لتفسير الدين ، هو الملحد الالمانى ماكس مولر (( توفي ١٩٠٠م )) والمعدود عند الغرب بأنه مؤسس علم الاديان المقارن (( حيث يرجع مولر نشأة الدين الى افعال قوية مارستها الطبيعة على الانسان فأثارته ، ويرى أن هناك مرحلتين في نشأة الدين ، الاولى تكمن في التأمل والعجب والدهشة التي دفعت الانسان الى التفكير في انه محاط بقوى مستقلة عن ارادته ، والمرحلة الثانية هي التعبير عن هذا التفكير عن طريق اللغة ، وقد عبر الانسان عن هذه الطبيعة وقواها في استخدامات لغوية كثيرة انفصلت عن

<sup>١</sup> - سورة يونس

<sup>٢</sup> - سورة البقرة

التعبير المباشر بواسطة المجازات ، ثم اصبحت هذه المجازات قائمة بذاتها فتحوّلت الى آلهة ، لا سيما مع تطور اللغة وابتعادها عن مرحلة تكوين تلك المجازات لغويا ، وهكذا فرضت اللغة على الطبيعة عالما خياليا من الكائنات الروحية التي اصبحت محرّكة للطبيعة وجوهر المعتقد الديني ))<sup>١</sup>. ومن الذين تابعوا ماكس مولر في ذلك واستفاضوا في شرح فرضيته ، الملحد اللادينية البريطانية المعاصرة كارن ارمسترونج ، ففي كتابها (( تأريخ الاسطورة )) قالت : (( كانت بعض الاساطير الاولى التي ربما يعود تأريخها الى الفترة الباليائية ذات علاقة بالسماء ، حيث أوحى للناس التصور الاول عن الألوهة ، فعندما حدق الناس في السماء اللانهائية والبعيدة والموجودة بشكل منفصل عن حياتهم الهزيلة تولدت لديهم تجربة دينية ... قد ملأ تأملُ السماء الناس بالرعب والابتهاج ، بالدهشة والخوف . فالسماء اجتذبتهم ونفرتهم ، إنها بطبيعتها الذاتية إلهية ... في تلك الاوقات المبكرة اختبرنا العالم المحيط بنا كشيء غامض بعمق ، ليضعنا في حالة من الرعب والدهشة اللذين هما جوهر العبادة ... استمرت السماء رمزا للقداسة لفترة طويلة بعد نهاية الفترة الباليائية ... في لحظة ما ولا نعرف متى ، بدأ الناس في أجزاء مترامية الاطراف من العالم في شخصنة السماء ، وبدأوا يخبرون قصصا عن (( الله السماء )) أو (( الله الرفيع )) الذي خلق السماء والارض بيد واحدة من لا شيء ))<sup>٢</sup> ، وفي كتابها الآخر (( الله والانسان )) قالت : (( عندما بدأ الناس بابتكار اساطيرهم وعبادة آلهتهم فإنهم لم يكونوا يسعون الى ايجاد تفسير حقيقي للظواهر الطبيعية . فكانت القصص الرمزية ولوحات الكهوف والنقوش محاولة للتعبير عن إعجابهم ))<sup>٣</sup> .

خلاصة تقرير هذه الفرضية ، حسب تصوير كارن ارمسترونج أن السلالة الاولى من البشر لما بدأوا أولا بالتأمل في السماء ملأهم الشعور برهبة الجمال تعظيما وتقديسا لها ، ثم لم يكتفوا بمجرد الاحساس بالقداسة

<sup>١</sup> - علم الأديان ، خزعل الماجدي ، ص ٤٤

<sup>٢</sup> - تأريخ الاسطورة ، ص ٢١-٢٣

<sup>٣</sup> - الله والانسان ، كارن ارمسترونج ، ص ١٩

بموضوع غير متشخص ، بل قاموا بتشخيص السماء في شخصيات مجازية في قصص ترمز الى اعجابهم بالطبيعة ، ثم بتكثر التجمعات البشرية تكثرت أساطير الآلهة المجازية الرمزية ، وبتطور السلالات البشرية وتطور الحياة ، وتغير طموحات البشر ورغباتهم ، وإساءة فهم الرموز والمجازات الاسطورية ظهرت الاديان . فأصل الأديان حسب ما تراه كارن ليس الجهل او الخوف او الفقر او صناعة ملوك او كهنة ، وإنما هي متطورة عن الاساطير التي هي أصلا تعبير رمزي عن عاطفة القداسة تجاه عظمة الكون . و نحن نرفض هذه الفرضية بجميع مشتقاتها فنقول :

أولا : نتمكن أن نقول ان فرضية الاسطورة هي أقدم فرضية تم طرحها للطعن في دين الاسلام ، فقد ادعى اكابر المشركين في مكة أن كتاب القرآن الكريم بما يشتمل عليه من المعارف واخبار الأمم ما هو إلا اساطير الاولين ، وقد كان القرآن أمينا في نقل نص دعواهم في تسعة موارد ، منها قوله تعالى : (( وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) ))<sup>١</sup> وقوله تعالى : (( إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) ))<sup>٢</sup> وقوله تعالى : ((وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) ))<sup>٣</sup> ، فلو كان ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله عبارة عن اساطير الاولين حقا كما زعموا ، لما نص القرآن على دعواهم في تسعة موارد ، ولكان الاخرى به كتمان هذا الأمر والتعتيم عليه ، بدل أن يردده تسع مرات ويفضح نفسه ، فذكر القرآن الكريم لهذه الفرضية ، وترديده لها في تسعة موارد في قرآن يتلى الى يوم الدين ، هو اعظم دليل على بطلان هذه الفرضية .

١ - سورة الانعام  
٢ - سورة الفرقان  
٣ - سورة الانفال

ثانيا : ان اكابر المشركين في مكة لما تمسكوا بفرضية اسطورية القرآن قالوا أنهم لو شاءوا لقالوا مثل هذا ، ولكن القرآن تحداهم أن يقولوا مثله فقال تعالى : ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَأَلَمْ يَسْتَحْيُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) ))<sup>١</sup> ولكنهم لم يقولوا مثله ، رغم تكرار القرآن للتحدي أكثر من مرة ، بل استسهلوا الحرب على القول ، ومن هنا يظهر أن السبب في ترديد القرآن لدعواهم اسطورية القرآن تسع مرات ، هو لإثبات عجزهم وكشف خزيهم وفضح كذبهم ، والتحدي نفسه قائم أمام الملاحظة الجدد ، الذين لم يأتوا بجديد سوى محاولة احياء هذه الفرضية البالية والباسها ثوبا جديدا .

وهنا تتجلى ألوهية القرآن وخلود الرسالة الاسلامية ، بإثبات الدعوى والتحدي في القرآن الى يوم الدين ، حتى نعلم أننا أنزل بعلم الله وأن الله موهن كيد الكافرين .

ثالثا : ما برح اكابر المشركين في مكة يرددون دعواهم ، ويثقفون الناس على فرضية اسطورية القرآن ليمنعوهم عن التصديق والايمان بدين الاسلام ، ولكن مع كل ذلك فقد آمن الكثير من الناس خلال مرحلة ما قبل هجرة الرسول الاكرم الى مدينة يثرب والتي دامت ١٣ عاما ، وقد عانوا شتى انواع الاضطهاد والتعذيب حتى أمر الرسول الاكرم بعضهم بالهجرة الى الحبشة ، وأمر البعض الاخر بالهجرة الى يثرب . فلا معنى لإيمان الناس بالإسلام في تلك المرحلة الصعبة قبل الهجرة ، مع تثقيف المشركين لهم على فرضية اسطورية القرآن ، سوى اعتقادهم بواقعية القرآن وحقانية مبادئ الاسلام وسخافة فرضية الاسطورية .

رابعا : إن المشركين أنفسهم في جزيرة العرب كان عندهم دين يعتقدون بحقانيته ، ومع ذلك فقد وصفوا ما جاء به الرسول الاكرم بأنه اساطير الاولين ، هذا يعني أنهم يفرقون بين العقائد والتعاليم الدينية ، وبين

<sup>١</sup> - سورة هود

القصص الاسطورية ، فلو كانت الاديان كلها هي عبارة عن قصص اسطورية رمزية للتعبير عن الشعور بالمقدس ، كما تزعم كارن ارمسترونج ، لما فرق المشركون بين معارفهم فوصفوها بالدين وبين معارف الاسلام فوصفوها بالاساطير . إن خبراء المشركين يميزون بين مفهوم الدين ومفهوم الاسطورة ، ولا يقرون فرضية اسطورية الاديان وهم يعلمون أن ما جاء به الرسول الاكرم ليس اساطير ، ولكنهم وصفوه بذلك بقصد التوهين تعصبا واستكبارا .

خامسا : لا ننفي وجود أديان اسطورية وضعية زائفة في الاصل وظهور ادعاء الاتصال بالله ، كما لا ننفي تعرض دين التوحيد الإلهي الى عمليات تحريف وسطو ودخول الاساطير فيه ، منذ فجر التاريخ البشري الى يومنا هذا ، ولأجل ذلك واطر الله سبحانه وتعالى بعث الانبياء والمرسلين الى خلقه لتصحيح الانحراف وهداية الناس وإقامة دعائم الدين الحق واثبات المبادئ التي يميز فيها بين الاصيل والدخيل . قال الله تعالى : (( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) ))<sup>١</sup> وقال تعالى : (( وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ))<sup>٢</sup> وقال تعالى : (( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ))<sup>٣</sup> وقال تعالى : (( وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) ))<sup>٤</sup> وقال تعالى : (( قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

١ - سورة البقرة

٢ - سورة يونس

٣ - سورة الانعام

٤ - سورة المؤمنون

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤))<sup>١</sup> وقال تعالى : (( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦))<sup>٢</sup> .

فالدين الواقعي واحد ، هو دين التوحيد الاسلامي ، وهو دين كافة الانبياء والمرسلين الذين بعثهم الله تعالى وخاتمهم هو نبينا محمد صلى الله عليه و آله وسلم ، فيجب التفريق بين الاسطوري والواقعي وبين الاصيل والدخيل .

سادسا : تقول كارن في النص السابق (( في لحظة ما ولا نعرف متى ، بدأ الناس في أجزاء مترامية الاطراف من العالم في شخصنة السماء ، وبدأوا يخبرون قصصا عن (( الله السماء )) أو (( الله الرفيع )) الذي خلق السماء والارض بيد واحدة من لا شيء )) ولكنها لم تخبرنا عن السبب المفاجئ الذي دعا الناس الى تشخيص السماء وابتكار إله السماء ، كما لم تخبرنا عن سبب نقل الناس عاطفة القداسة من السماء الى إله السماء ، ولم تخبرنا عن سبب انتقال عاطفة تقديس إله السماء الى عبادة إله السماء فإن تقديس الشيء لا يقتضي عبادته ، فنحن نقدر الأنبياء والاوصياء ولكن لا نعبدهم . لم تخبرنا كارن عن اسباب هذه الانتقالات وكيف حصولها لأن فرضيتها باطلة وهي تريد ترقيعها بالطفرات . ولهذا فقد انكر الكثير من الملاحدة فكرة رجوع ظهور إله السماء الى تشخيص السماء وعدوها وهما ساذجا لأنه لا أثر لها في الاساطير ولا تستند الى فرض منطقي كما سنذكر .

سابعا : ما لا تريد السيدة كارن واتباع هذه الفرضية الإقرار به لأسباب نفسية ، هو أن البشر حينما يتفكرون في عظمة السماوات والارض فإن

١ - سورة آل عمران

٢ - سورة النساء

مبدأ السببية الفطري يقودهم ذلك الى الإذعان بوجود الله فاطر السماوات والارض .

ثامنا : إن أكابر زعماء الملاحدة رفضوا جعل اساطير الشعوب و قصصهم الشعبية الخيالية منشأ للدين ، أو محورا لدراسة الأديان ، ومنهم فريز زعيم الملاحدة الاسكتلندي (( توفي ١٩٤١ م )) والمعدود عندهم أنه رائد علم الاساطير (( الميثولوجيا )) ، ففي كتابه (( الغصن الذهبي )) الصادر عام (( ١٨٩٠ م )) ، والمختص بسرد اساطير الشعوب تنصل من تهمة اعتبار الأساطير منشأ للدين ، واعتبرها تفسيرات مغلوطة عن حياة الأنسان والكون ، فقال في مقدمة الكتاب : (( أتمنى بعد هذا التنصل الصريح ألا اجازى بدفع غرامة اعتناقي لنظام ميثولوجي أنظر اليه على أنه خاطئ وعبثي ومناف للعقل ))<sup>١</sup> . وهذا برهان تهافت الملاحدة .

تاسعا : إن كارن ارسترونج تقود اليوم مشروعها الحاديا عالميا بالكتابة والمؤتمرات ، يهدف الى جمع كافة البشر في دين اللادين ، فهي تدعي أن جوهر الاديان كلها هو تقديس الإله المطلق غير المتشخص بأي صفة بل هو روح الطبيعة ، وأن كل ما عدا ذلك من توصيفات الله والعقائد والشرائع التي تتمايز بها الاديان ، إنما هي من صناعة البشر ، بسبب اختلاف تعبيراتهم الخيالية عن عاطفة القداسة ، أو ناشئة من سوء فهم اللغة المجازية لأساطير الأولين .

إن السيدة كارن بمشروعها هذا ، تفرغ الاديان التي يتبعها المليارات من البشر من الواقعية الفكرية واللغوية ، وتحيلها الى نحو من الهلوسة الفكرية والهذيان اللغوي ، هذا هو تفسيرها وتفسير جماعة الليبرالية الدينية للوحي والنبوة والكتب المقدسة . الأنبياء - بحسب زعمها - أناس صالحون قد تملكتم عاطفة التقديس لروح الطبيعة ، ولكن خانهم ادراكهم لروح الطبيعة كما خانتم اللغة في التعبير ، وربما الأنبياء تعمدوا التعمية لسبب لا تعرفه هي ، كما خانهم ادراكهم لأساطير الاولين البابلية والاغريقية .

<sup>١</sup> - الغصن الذهبي ، جيمس فريزر ، ص ١٣

والهندية ، المعبرة عن عاطفة التقديس لروح الطبيعة والتي لا نعرف سبب اغراقها بالآلهة الخيالية ، التي تتزاوج وتتوالد وتتصارع ويقتل بعضها بعضا ، مع دعوى أنها تعبير عن عاطفة التقديس تجاه روح الطبيعة ، فألف الانبياء الكتب على هذه الحالة ، وقدموها للمليارات من البشر التي أساءت بدورها فهم المقاصد غير المقصودة واللغة غير الأمينة ، حتى جاءت كارن ارمسترونج وزعماء الالحاد الليبرالي ، النافرون من تعاليم الكنيسة ، فأدركوا ما لم يدركه الانبياء ومليارات المؤمنين بالله ورسله وكتبه !! ونحن نقول : إذا لم يكن كلام كارن واساتذتها واتباعها عبارة عن هلوسة وهذيان فلا توصيف آخر له ، إن فرضيتها باطلة من الاساس كما أوضحنا وقد وضعناها لتبرير هذه الهلوسة والهذيان الالهادي .

## ٦- فرضية الطوطمية والمجتمع

صاحب هذه الفرضية هو إميل دوركايم<sup>(١)</sup> ، الملحد الفرنسي من اصل يهودي (( توفي ١٩١٧ م )) ، وهو معدود عند الغرب رائد علم الاجتماع وعلم الأنسنة وعلم الأديان . وقد بسط الكلام في شرح فرضيته في كتابه (( الأشكال الأولية للحياة الدينية )) في ضوء دراسته لقبائل سكان اواسط استراليا الاصيلين ، الذين تم العثور عليهم عند اكتشاف قارة استراليا ، حيث يزعم دوركايم أن هذه القبائل ما تزال محافظة على خصائص المجتمع البشري الأول ، مما تمكن دراستها من معرفة الشكل الأول للحياة الدينية ومعرفة اسباب الظاهرة الدينية فيقول : (( لا يمكننا أن نتوصل إلى فهم لأحدث الأديان إلا باتباع الطريقة التي تم بها تأليفها تدريجياً في التاريخ ... في كل مرة نتعهد فيها بشرح شيء بشري ، مأخوذ في لحظة معينة من التاريخ - سواء كان ذلك اعتقاداً دينياً أو مبدأ أخلاقياً أو مبدأ قانونياً ، أسلوباً صناعياً أو نظاماً اقتصادياً - من الضروري البدء بالعودة

(١) راجع : قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (( دوركايم ، إميل ))

إلى شكله الأكثر بدائية وبساطة ، لمحاولة معالجة الخصائص التي كانت تميزه في ذلك الوقت من وجوده، ثم توضيح كيف تطور وأصبح أكثر فأكثر تعقيدا، وكيف أصبح ما هو عليه في الوقت الراهن ((<sup>١</sup>).

وخلاصة مزاعم دوركايم هي أنه وجد سكان تلك القبائل يعبدون الطوطم ، والطوطم هو عبارة عن وثن ، غالبا ما يكون على شكل حيوان كالكنغر أو النعام أو الذئب ، وأحيانا يكون شجرة أو جمادا كالشمس أو القمر . وكلمة (( طوطم )) هي مأخوذة من لغة الأبخوا لبعض قبائل الهنود الحمر ، سكان اميركا الأصليين الذين عثر عليهم عند اكتشاف قارة اميركا وتعني المؤسس أو الحامي<sup>(٢)</sup> ، وأول من أدخل اصطلاح الطوطم إلى اللغة الإنجليزية هو الرحالة ج. لونك عام (( ١٧٩١ م )) .

يزعم دوركايم أن لكل عشيرة طوطمها الخاص بها وهي مرتبطة به برابطة القرابة والتبعية الاجتماعية وربما تعتقد أنها منحدره منه ، وانها ترتب على ذلك نظاما اجتماعيا ، كتحريم قتل واصطياد وأكل أفراد ذلك الحيوان الذي تتخذه العشيرة طوطما ، وكذلك تحريم الزواج بين أفراد العشيرة المنتسبة لطوطم معين ، أي أن من يريد الزواج فعليه أن يتزوج من خارج العشيرة . بهذا يدعي دوركايم أنه قد اكتشف الديانة الطوطمية ، أما تفسيره لهذه الديانة فهو يزعم أن سبب اعتبار الطوطم مقدسا يرجع إلى أنه يمثل رمزا للجماعة نفسها ، فهو يجسد القيم المحورية في حياة الجماعة او المجتمع ، وليست مشاعر الإجلال والإكبار التي يحملها افراد الجماعة تجاه الطوطم إلا تعبيراً عن تقديسهم للقيم الاجتماعية الأساسية السائدة بينهم ، فالطوطم يجسد الهوية الاجتماعية للقبيلة ويؤكد وحدتها العضوية ، إن موضوع العبادة هو المجتمع نفسه الذي يسعى إلى أن يؤكد ذاته بذاته ، فلا معبود واقعا سوى المجتمع . بهذا يخلص دوركايم الى تعريف الدين بأنه : (( الدين هو نظام موحد للمعتقدات والممارسات المتعلقة بالأشياء المقدسة أي محظورة وممنوعة ، إنها المعتقدات والممارسات التي توحد

<sup>١</sup> - الأشكال الاولية للحياة الدينية ، ص ٤

<sup>(٢)</sup> راجع : موسوعة الدين والطبيعة ، تحرير براون تابلور ، مادة (( الطوطمية Totemism )) - قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (( الطوطمية ))

في مجتمع أخلاقي واحد يسمى الكنيسة ، كل أولئك الذين يلتزمون بها<sup>١</sup> . ونحن نرد هذه الفرضية فنقول:

أولا : يدلس دوركايم الوقائع لكي يمرر ايدلوجيته بأصالة المجتمع ، فهو نفسه يشير في الفصل الخاص عن فكرة الروح والآلهة الى اعتقاد تلك القبائل بوجود الله المتسامي فوق المجتمع و أصنام الطواطم ، فيقول : (( تعترف الأديان الأسترالية بالفعل بالشخصيات الأسطورية ذات الرتبة العليا: الأرواح ، الأبطال المتحضرين ، وحتى الآلهة الذين يدعون كذلك بشكل صحيح ))<sup>٢</sup> ولكنه يزعم أن هذا الاعتقاد مبالغه في فهم الوقائع أو هو حالات استثنائية أو هو مجرد اساطير وليست دينا .

ثانيا : رأينا سابقا دوركايم كيف يستنكر فرضية الارواح والاحلام ويرى انها لا يجدر أن تصدر من عاقل ، فيقول (( لا يجدر أن يخطر بالبال أن مجموعات من الافكار مثل الدين، والتي أدت دورا مهما للغاية على مر العصور، وعليها اعتمدت الشعوب في كل الأزمنة لأجل الحصول على القوة المطلوبة لبقائها ، لا يعقل أن تكون مجرد نسيج من الأوهام )) والآن هو من ينقل عن القبائل الاسترالية الاصلية أنهم يعبدون الطوطم ، ولكنه يقول لهم انكم واهمون ، فأنتم لا تعبدون الطوطم لذاته وانما بما هو يجسد هويتكم الاجتماعية ، فأنتم حقيقة تعبدون مجتمعكم ، وبما أن دوركايم يدعي أن الديانة الطوطمية هي أصل كل الأديان ، فلازم ذلك أن كل الأديان نشأت عن وهم ! فاستنكار دوركايم هذا لفرضية الارواح والاحلام ينطبق على فرضيته ويكشف لا عقلانية الملاحظة وتهافتهم.

ثالثا : يزعم دوركايم أن الدين هو منتج جمعي ولكن الواقع التاريخي يكذب ذلك ، فأن فردا من المجتمع وهم الانبياء والمرسلون كنبينا محمد صلى الله عليه وآله والنبي عيسى والنبي موسى عليهما الصلاة والسلام هم من جاء بالدين الحق والشرائع .

١ - الاشكال الاولى للحياة الدينية ، ص٤٧

٢ - المصدر السابق ، ص٢٧٣

رابعاً : يزعم دوركايم أن الطبيعة الحضارية للمجتمع هي من يصنع الدين المناسب للمجتمع ، ولكن الواقع يكذب ذلك ، فالدين النصراني مثلاً هو من غير الطبيعة الحضارية للمجتمع الأوربي الغربي وخلق حضارة جديدة ، والدين الاسلامي هو من غير الطبيعة الحضارية للعرب والشرق عموماً وخلق حضارة جديدة .

خامساً : لو كان الدين هو منتوج المجتمع ، و كل مجتمع يصنع دينه المناسب له ، فلماذا نجد في المجتمع الواحد أكثر من دين ؟ ففي المجتمع العربي مثلاً نجد الدين الاسلامي والنصراني واليهودي وغيرها ، وهكذا جميع المجتمعات . أي أنه حسب فرضية دوركايم فإن كيانات اجتماعية واحدة ينبغي أن يفرز ديناً واحداً يجسد الهوية الجمعية لأفراده ، فلماذا نجد في المجتمع العربي العراقي مثلاً الفرد اليهودي والفرد النصراني والفرد المسلم ، هذا تهافت .

سادساً : يا عزيزي إن تقديس واحترام ما يكون رمزا وشعاراً شيء آخر غير التأليه والعبادة له ، فكل مجتمع لديه رموز وشعارات وشعائر وأشياء مقدسة يعاملها بكل اجلال واحترام ولكنه لا يعبدها بالضرورة . وبالفعل فإن أبحاثاً قام بها لانج وفريزر وغيرهما أثبتت أن الطوطمية هي مجرد منظومة اجتماعية قبلية ، وليست دينية كما كان زعم دوركايم ، وأن فكرة الدين نشأت بعيداً تماماً عن هذه التصورات الساذجة، والتحليلات الواهية! يقول الملحد فريزر في مقدمة كتابه : (( لكنني بعيد كل البعد عن اعتبار اجلال الشجرة ذا أهمية مميزة في تطور الدين ، بل هو عامل ثانوي إذا ما قورن بالخوف من البشر الموتى ، الذي اعتبره القوة الأعظم في نشأة الدين البدائي ))<sup>١</sup> يريد فريزر أن يقول إن مجرد احترام او تقديس الموجودات الطبيعية عند البدائيين ليس هو المنشأ الحقيقي للدين ، بل هو يرى أن منشأ الدين هو الخوف من أرواح الموتى الذي تطور الى عبادة ارواح الاسلاف ، ونحن قد رددنا فيما تقدم فرضية الأرواح وفرضية الخوف بكافة صورهما .

<sup>١</sup> - الغصن الذهبي ، ص ١٢

فالطوطم إنما هو شعار قومي ورمز يُعرّف القبائل بانتسابها ويبحث على التعاون والالتزام لا أكثر ، كما نقل فرويد الذي سنعرض فرضيته لاحقاً عن كين قوله : (( نتجت الطواطم عن شارات الرايات التي أراد بها الأفراد والعائلات والقبائل تمييز بعضهم عن بعض ))<sup>١</sup> فتلك القبائل كان لهم إله معبود آخر غير الطوطم كما اشار دوركايم الى ذلك وحاول طمس الحقيقة .

سابعاً : اكتشف الكثير من علماء الغرب خطأ دوركايم في موضوع بحثه ، فهو قد ركز دراسته على قبائل اوسط استراليا ، مدعياً أنها تمثل اقدم طور معروف للحياة البشرية ، ولكن الابحاث الأحدث اثبتت أن قبائل جنوب شرق استراليا هم اقدم من قبائل الوسط ، بل اثبتت الابحاث أن قبائل الاقزام في وسط افريقيا يمثلون اقدم طور في الحياة البشرية ، وأنهم يفوقون في البدائية حتى قبائل جنوب شرق استراليا ، ولم يجد فلهم شمדת وغيره في عقائد تلك الجماعات أي أثر لعبادة الطبيعة أو الأرواح ، أما أميز عقائدهم فهي عبادة سيد العالم الموجود الأسمى<sup>(٢)</sup> .

ثامناً : منذ أن تم اكتشاف السكان الاصليين في اميركا واستراليا وملاحظة الغرب ينهالون عليهم تنظيراً ، بعد أن اثبتوا لهم لقب (( الأقسام البدائية )) . فجعلوهم مادة لدراسة السلالة الاولى من البشر ، ولكن أول الكلام من قال أن هؤلاء يمثلون السلالة الاولى من البشر ؟ إن هؤلاء بشر معاصرون لنا وأعمارهم كأعمارنا ، ولا نعرف بالضبط الظروف التي أوجبت تأخرهم العلمي والاقتصادي والتكنولوجي ، كما لا نعلم على وجه اليقين شيئاً عن ماضي اسلافهم الممتد لآلاف السنين ، فتوصيفهم بالبدائية واعتبارهم يمثلون السلالة الاولى للبشر - ولو على نحو التقريب - ثم تركيب الفرضيات المؤدلجة عليهم ، وتقديمتها للناس كعلوم سيسولوجية وانثربولوجية وثيولوجية ينطوي على خيانة علمية كبيرة ، وجريمة اخلاقية خطيرة .

١ - الطوطم والتابو ، سيجموند فرويد ، ص ١٣٤  
٢ ( ) راجع : نشأة الدين ، علي سامي النشار ، ص ١٩٦

تاسعا : السيد دوركايم هو من زعماء الالحاد الفرنسي في القرن التاسع عشر ، عصر الثورة الصناعية وصعود موجة الالحاد الاوربي ، وهو من جهة يرى تزايد مستويات الانحطاط التي وصل اليها المجتمع الفرنسي ، ويعلم أن لا العلم ولا القانون ولا التطور الاقتصادي ولا التطور التكنولوجي ، ممكن أن يقوم بوظيفة الدين في التربية الروحية للمجتمع وتهذيب أخلاق الناس وضبط سلوكهم ، فتراه يعترف بضرورة الدين لحفظ كيان المجتمع في خاتمة كتابه فيقول : (( هناك شيء خالد في الدين مقدر له أن ينجو من جميع الرموز الخاصة التي طغى فيها الفكر الديني على نفسه. لا يمكن أن يكون هناك مجتمع لا يشعر بالحاجة إلى التمسك وإعادة التأكيد على فترات منتظمة على المشاعر الجماعية والأفكار الجماعية التي تجسد وحدته وشخصيته ))<sup>١</sup> ، ولكنه من جهة أخرى متخاصم مع الاديان الموجودة ويعتبرها اصبحت قديمة أو ميتة .

هذه الهواجس والمشاعر المضطربة ، هي ما حدث به الى ابتداء فرضية مجتمعية الدين ، ولذلك هو في خاتمة كتابه يطلب من مجتمعه المعاصر أن يبتدع دينه الخاص به ، فيقول : (( الآلهة القديمة أصبحت قديمة أو ميتة بالفعل ، والبعض الآخر لم يولد بعد ... إنها الحياة نفسها ، وليس الماضي الميت الذي يمكن أن ينتج عبادة حية. لكن هذه الحالة من الاضطراب والاثارة المشوشة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد. سيأتي يوم تنجح فيه مجتمعاتنا مرة أخرى في معرفة تلك الساعات من الإبداع الخلاق ، والتي تنشأ خلالها أفكار جديدة وتوجد صيغ جديدة تعمل لفترة من الوقت كدليل للإنسانية ))<sup>٢</sup> .

ولكن دوركايم قد مات ومات مجتمعه المعاصر له ، وماتت فرضيته بعد أن استنكرها المجتمع العام والمجتمع الأكاديمي ، وبقي الدين الذي اعترف أنه يشتمل على سمة الخلود .

١ - الأشكال الاولية للحياة الدينية ، ص ٤٢٨

٢ - المصدر السابق ، ص ٤٢٨

## ٧- فرضية الصراع النفسي

صاحب هذه الفرضية هو سيجموند فرويد (( توفي ١٩٣٩ م )) ، الملحد من اصل يهودي نمساوي ، والمعدود عند الغرب مؤسس علم النفس التحليلي<sup>(١)</sup> . طرح فرويد فرضيته هذه في كتابه (( الطوطم والتابو )) ثم لخصها في كتابه (( حياتي والتحليل النفسي )) فقال فيه : (( قبل أن أفهم الصلات العميقة وصفت عصاب الوسوسة بأنه دين خاص مشوه ، والدين بأنه عصاب وسواسي عام ... فبينت في اربع رسائل جمعت في كتاب بعنوان { الطوطم والتابو } أن الفرع من الاتصال بالمحارم ابرز لدى الاجناس البدائية منه لدى المتمدنة ... كانت نقطة بدايتي هي ذلك التقابل البارز بين الأمرين اللذين حرمتهما الطوطمية ( أعني تحريم قتل الطوطم وتحريم الاتصال الجنسي بأية امرأة من عشيرة الطوطم نفسها ) وعنصري عقدة اوديب ( أعني قتل الأب واتخاذ الأم زوجا ) فأغراني ذلك أن اساوي الطوطم الحيوان بالأب ... خطر لي من كل هذه العناصر الفرض التالي أو بالأحرى الرؤية التالية : حيث أن أب القبيلة كان طاغية لا حد لسلطانه فقد استولى لنفسه على جميع النساء وحيث أن أولاده كانوا غرماء خطرا عليه فقد قتلهم أو نفاهم . بيد أن الأولاد تجمعوا ذات يوم وائتمروا على أن يقهروا أباهم ويغتالوه ثم يفترسوه ، أباهم الذي كان لهم عدوا ومثلا أعلى في نفس الوقت . وبعد أن تم لهم ما أرادوا دب الخلاف بينهم فعجزوا عن الاضطلاع بما ورثوا ، ولكنهم استطاعوا تحت تأثير الإخفاق والندم أن يصلحوا ذات بينهم وينتظموا في قبيلة من الأخوة مستعينين بقوانين الطوطمية التي تهدف الى تجنب تكرار مثل هذه الفعلة ، وأجمعوا أمرهم على أن يتخلوا عن امتلاك النساء اللائي من أجلهن اغتالوا أباهم . وكان عليهم بعدئذ أن يلتمسوا نساء غريبات ، وذلك هو الأصل في الزواج الخارجي الذي يتصل اتصالا وثيقا بالطوطمية . والآن سواء تصورنا أن احتمالا هذا شأنه كان واقعة تاريخية أم لم يكن ، فهو قد أدخل

(١) راجع : قاموس اكسفورد الطبي ، مادة (( فرويد ، سيجموند ))  
- قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (( فرويد ، سيجموند ))

الدين ضمن عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواج العاطفي الذي يسيطر على هذه العقدة ((<sup>١</sup> .

وخلاصة تقرير هذه الفرضية أن فرويد لما اطلع على الابحاث الخاصة بالطوقس الطوطمية وجدها تشتمل على أمرين اساسين هما : ١- تحريم قتل افراد الحيوان الطوطم المتخذ رمزا للعشيرة ، والذي يدعي ابناء العشيرة انحذارهم منه ٢- تحريم الزواج بين أفراد العشيرة . وجد فرويد هذين الأمرين يتوافقان مع نظريته الخاصة في علم النفس ، القائمة على اساس ارجاع الامراض النفسية الى صراع النفس مع رغبات جنسية مكبوتة فيما اسماه (( اللاشعور )) ، مما دعاه الى افتراض فرض خيالي وهو أن منشأ الدين الطوطمي الذي هو عنده اصل الأديان ، ربما كان سببه أن السلالة الأولى من البشر كان يحكمها الأب و أنه كان يستحوذ على النساء ، فقام الأبناء بقتله وأكله واستحوذوا على امهاتهم ، ثم شعروا بالندم على هذه الجريمة ، فجعلوا الحيوان الطوطم رمزا لأبيهم يقصدونه ويحرمون قتله ، كما حرموا زواج الأقارب المنتسبين لهذا الأب . على هذا الاساس اعتبر فرويد أن الدين عبارة عن مرض نفسي ، وأن الإلحاد يعتبر حالة نفسية صحية ، وأن كل الأديان تأسست على أساس التكفير عن تلك الجريمة الأولى . ونحن نرد على هذه الفرضية المرضية التي انفرد بها فرويد ولم يتابعه عليها أحد من كبار الملاحدة فنقول :

أولا : إن أصل نظرية فرويد في علم النفس التحليلي تقوم على اساس إرجاع كل سلوك بشري ، بل كل الحضارة الانسانية ، الى تأثير الغريزة الجنسية والصراعات المكبوتة في اللاشعور فيقول : (( في ختام هذه الدراسة المعدة باختصار شديد أود أن اذكر حصيلتها ، وهي أنه في عقدة اوديب تلتقي بدايات الدين والاخلاق والمجتمع والفن ))<sup>٢</sup> . هذه النظرية لا تصدر من انسان عاقل ذي شخصية سوية ، فهي تؤصل للرديلة باسم العلم ويكفي أن نقول أنه قد رفضها واستنكرها كل كبار علماء النفس عند

<sup>١</sup> - حياتي والتحليل النفسي ، سيجموند فرويد ، ص ١٠١-١٠٣

<sup>٢</sup> - الطوطم والتابو ، ص ١٨٣

الغرب ، ومن جميع المدارس النفسية وبعضهم من الملاحظة<sup>(١)</sup> . ابرز من رفضها كارل يونغ (( توفي ١٩٦١ م )) وهو زميل فرويد ، والمعدود عندهم مؤسس علم النفس التحليلي ، ورئيس رابطة علم النفس التحليلي الدولية ، كما رفضها ألفرد أدلر (( توفي ١٩٣٧ م )) وهو زميل فرويد وتلميذه الشهير ، والمعدود عندهم مؤسس علم النفس الفردي .

ثانيا : إن كان كل السلوك البشري عند فرويد هو يرجع الى تأثير الغريزة الجنسية ، والى صراع النفس مع الرغبات الجنسية المكبوتة في الحيز الذي ابتدعه واسماه (( اللاشعور )) ، واعتبره مستودعا للرغبات التي تم قمعها وإلقاؤها بعيدا عن الوعي ، فلماذا لا يكون موقفه من الدين وسلوكه الالاحادي راجعا أيضا الى ذلك الصراع في اللاشعور وهو لا يشعر ؟ خصوصا إن في نشأة فرويد ما يدعم ذلك ، فهو ابن لتاجر يهودي تزوج ثلاث نساء ، كما كان فرويد منبوذا في الوسط الدراسي النصراني بسبب عرقه وديانته اليهودية ، فلم يتمكن برغم ثرائه وجماله وذكائه من ايجاد من يحبه ، وقد اشار بنفسه الى ذلك في سيرة حياته فقال : (( وعند التحاقى بالجامعة عام ١٨٧٣ عانيت من خيبة الأمل الشيء الكثير ، فقد واجهت التزاما غريبا كان علي أن اشعر أنني دون غيري من الناس ، وأني غريب عنهم لأنني كنت يهوديا ))<sup>٢</sup> . إننا لا نعترف بخزعبلاته ولكنها حجة عليه و على من يقول بمقالته .

ثالثا : إن فرضية فرويد في أصل الدين هي مبنية على معطيات الديانة الطوطمية ، ونحن قد اثبتنا بطلان تلك المعطيات عند مناقشة فرضية الطوطمية والمجتمع لدوركايم .

رابعا : يدعي فرويد أن كل الأديان تأسست للتكفير عن تلك الجريمة الاولى التي افترضها (( جريمة أكل الأب والاستحواذ على الأم )) ، وأن كل الاديان لأجل ذلك تكون مرضا نفسيا ، و نحن نقول إذا كان كافة الأديان والمتدينين لا يعرفون تلك القصة أصلا ، ولم يسمعوا بها على

---

(١) راجع : مدارس علم النفس ، حسين الغامدي  
٢ - حياتي والتحليل النفسي ، ص ٢١

فرض حصولها ، فكيف أقاموا دينهم وتدينوا على اساسها !! بل أن تلك القصة هو نفسه يقر أنه اختلقها كاحتمال لتفسير النظام الطومبي كما في النص الذي نقلناه عنه سابقا ، فحتى سكان استراليا الاصليين لا يعرفونها . ثم لا نعلم كيف يكون الدين مرضا نفسيا مع أن كافة الأديان حتى الوضعية تدعو الى تهذيب النفس ومكارم الأخلاق ، بينما الالحاد الذي يدعو الى تدمير النفس باعتبارها نفاية بايوكيميائية ويدعو الى الفجور يكون صحة نفسية !! هذا الكلام لا واقع له بل الواقع يكذبه ، ولما كان فرويد يعلم ذلك فقد اخترع اسطورة صاغها بنفسه ، وفسر على اساسها فرضيته في اصل الدين ليبرر الحاده وأمراضه النفسية .

خامسا : إن فرويد يعترف بجهله بأصول الطومبية فيقول : (( ونحن لا نستطيع أن نقول بثقة كيف كان جانبا الطومبية مرتبطين ببعضهما في الاصل ، بسبب جهلنا بأصول الطومبية ))<sup>١</sup> ويرجع سبب جهله الى اضطراب آراء الباحثين فيقول : (( بالتأكيد سيدهش قرائي عندما يعلمون كم هي مختلفة وجهات النظر التي حاولت الاجابة على هذه المسائل ، وكم تتباعد آراء الباحثين المختصين حولها . بهذا اصبح الى حد ما مشكوكا بكل ما قيل عموما حول الطومبية والتزاوج الخارجي ))<sup>٢</sup> كما هو يعترف أن فرضيته ليست تفسيريا كاملا للدين فيقول : (( ليس للمرء أن يخشى على التحليل النفسي ... من أن ينجر الى اشتقاق شيء معقد مثل الدين من أصل وحيد ، وإذا أراد مضطرا اضطرا را يمليه عليه الواجب أن يكون احاديا ، وتبنى منبعا واحدا فحسب من منابع هذه المؤسسة الاجتماعية ، فإنه لا يزعم أن هذا المنبع حصري ))<sup>٣</sup> وهو يقر في نهاية تلخيص فرضيته أن قصته لتفسير الدين هي مجرد اسطورة افترضها فيقول: ((والآن سواء تصورنا أن احتمالا هذا شأنه كان واقعة تاريخية أم

١ - الطومب والتابو ، ص ١٢٧

٢ - المصدر السابق ، ص ١٣١

٣ - المصدر السابق ، ص ١٢٣

لم يكن فهو قد أدخل الدين ضمن عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواج العاطفي الذي يسيطر على هذه العقدة ))<sup>١</sup>

تكفيها هذه الاعترافات برهانا على سذاجة وتهافت الفرضية .

## ٨- فرضية انحراف الميمات الداروينية

صاحب هذه الفرضية هو زعيم الإلحاد المعاصر ، البيولوجي البريطاني ريتشارد دوكنز ، الذي لم يقتنع بجميع الفرضيات التي وضعها من سبقه حول اصل الدين ، وخاصة الفرضية الماركسية الشيوعية التي تزعم أن الدين هو اختراع من طواغيت السياسة أو الكهنة لأجل استعباد الفقراء وخداع البسطاء ، فقد وجه لهذه الفرضية اشكالا قاتلا حاصله : إن كان الدين بصناعة وتصميم ذكي مقصود من الحكام والقساوسة ، فما الذي جعل الناس أصلا على مر التاريخ تصدق بهؤلاء وتتصاع لهم وتؤمن بالدين ؟ وما الذي جعل الدين يترسخ ويستمر وينتشر بين عموم البشر الى يومنا هذا مع كونه مجرد خدعة ؟ ولأجل هذا ، ولكونه زعيم الملاحظة المستقتل في سبيل الترويج للإلحاد ، وقائد حملة القضاء على الدين بدعم منقطع النظر من مؤسسات الإلحاد العالمية ، ولكونه اشرس المدافعين عن فرضية التطور الداروني ، فقد رأى أن من واجبه أن يدلوه بدلوه ويضع فرضية تفسر اصل الدين مستندة الى فرضية التطور الداروني ، وقد صاغ هذه الفرضية في كتابه (( وهم الإله )) الذي توهم أن خزعبلاته فيه سوف تقضي على الدين ، وإن كانت قد انطلت بالفعل على بعض بسطاء الوعي ، وأعطت للمرضى تبريرا لألحادهم .

يقول : (( أنا انطلق من أن الدين كاللغة تطور بشكل عشوائي من بدايات غير محددة ، وذلك خلق الغنى المحير والخطير أحيانا لتعددتها التي نلاحظها ، في نفس الوقت من الممكن أن شكلا من اشكال الانتخاب

<sup>١</sup> - حياتي والتحليل النفسي ، ص ١٠٣

الطبيعي ، متوافقا مع القواعد الاساسية لعلم النفس البشري ، يؤمّن لنا أديانا تحتوي على قواسم مشتركة ))<sup>١</sup> .

وحاصل هذا الهراء كما شرحة في كتابه في الفصل الخامس ، أن فرضية دارون للتطور البيولوجي تزعم ظهور جميع الانواع الحية من بعضها البعض ، وانحدارها من سلف مشترك ، عند تراكم التغيرات الطفيفة المتعاقبة بشكل تصاعدي تكاملي عبر ملايين السنين ، نتيجة تفاعل الافراد مع العوامل البيئية وتنازع البقاء والطفرات الوراثية ، وتعرف الطفرة على أنها حدوث حالة حذف أو استبدال في جزيء الحمض النووي الموجود في نواة الخلية للكائن الحي ، وهو الذي يحمل كل المعلومات الوراثية المكونة للكائن الحي ، ويحدث هذا الحذف أو الاستبدال نتيجة تأثيرات خارجية عادة مثل الإشعاع أو المواد الكيميائية أو الفيروسات ، وطفرات الجينات الوراثية هي حالة تغير طارئة ونادرة في الجينات الوراثية وهي آلية رئيسية للتطور في الدارونية الحديثة ، على اساس أن اصل التمايز وظهور الصفات الجديدة عند الافراد إنما يحصل بسبب الطفرة الجينية ، ثم نتيجة تراكم الطفرات النافعة المتعاقبة بشكل تصاعدي لأفراد نوع وتوريثها عبر الزمن بمساعدة الاصطفاء الطبيعي ، ينتج في النهاية ظهور نوع جديد متميز عن سلفه . ولكن كما أن هناك طفرات جينية نافعة تستحق البقاء والتوريث بفضل الاصطفاء الطبيعي بالبقاء للأصلح ، وتدفع لظهور نوع جديد أكمل ، فإن هناك بعض الطفرات في الجين الوراثي تكون غير نافعة بل ومضرة احيانا ولكنها مع ذلك تتمكن بالصدفة وبضربة حظ - كما يقول - من البقاء والاستمرار والانتشار ، خلافا لقانون الانتخاب الطبيعي بالبقاء للأصلح ، كالتغيرات الجينية المسببة للأمراض الوراثية ، وهذه الحالة تسمى الانجراف الوراثي ، كما أن بعضها يبقى ويتطور لأنه منسجم مع مجموعة متغيرات جينية نافعة اخرى .

<sup>١</sup> - وهم الإله ، رتشارد دوكنز ، الفصل الخامس ، ص ١٩٢

بهذا التقريب يدخل دوكنز لبيان فرضيته في أصل الدين ، فيقترح وجود (( الميم الثقافي )) نظير (( الجين الوراثي )) ، فكما أن الجين الوراثي هو أصغر وحدة وراثية تحمل جميع المعلومات المتوارثة للتكوين الحيوي ويتم نسخها ونقلها بالتناسل ، فكذلك الميم الثقافي حسب ما يفترض هو أصغر وحدة تحمل المعلومات الثقافية المعرفية ، ويتم نقلها بالتربية والتعليم بين البشر عبر الاجيال ، وكما أن الجينات الوراثية في الخلية تحصل فيها طفرات واخطاء اثناء النسخ والنقل ، فكذلك الميمات الثقافية يحصل فيها طفرات واخطاء اثناء النسخ والنقل ، وكما أن بعض الطفرات الوراثية تكون نافعة ويضمن الانتخاب الطبيعي حفظها ونقلها ، وبعضها غير نافعة بل مضره ولكنها تبقى بالصدفة او لانسجامها مع طفرات نافعة اخرى فيما يسمى بالانحراف الوراثي ، فكذلك في الميمات فإن بعض المعلومات الثقافية نافعة تستحق البقاء والتطور ، وبعضها لا نفع فيه بل ضرر ولكنها تبقى كشكل من اشكال الانحراف الثقافي . وعلى اساس هذه المقايسة بين الجين والميم ، يدعي دوكنز أن اصل الدين هو طفرة ميمية ثقافية خاطئة حصلت في الميمات الثقافية البشرية ، وهي طفرة غير نافعة في حد نفسها بل مضره ، فلم تستحق البقاء والانتشار والتطور بحسب قانون الانتخاب الطبيعي للأصلح ، ولكنه مع ذلك استطاعت بعض الأفكار البقاء بالصدفة وضربة حظ كنحو من الانحراف الثقافي ، كفكرة وجود الله ، وبعضها استطاع البقاء والتطور وفق قانون الانتخاب ، لانسجامه مع المتغيرات الثقافية النافعة ، كفكرة الخلود والحياة بعد الموت ، لأنها تنسجم مع النزوع الطبيعي لحب البقاء<sup>(١)</sup> .

يرد هذا الهراء ما يلي :

أولا : أصل فرضية التطور الداروني التي بنى عليها فرضية الميمات هي باطلة في حد نفسها ، لأنها توكل تصميم الحياة المعجز للعقول عن ادراكه فضلا عن الاتيان بذرة من مثله ، توكله الى الطبيعة العمياء والطفرات الجينية العشواء ، ولأن أدلتها المفبركة لا صلة لها بالعلم وقد ثبت بطلانها

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل الخامس ، ص ١٩٢-٢٠٩

، ولأن الكثير من العلماء وبعضهم من الملاحظة شهدوا بتهاافتها وعجزها .  
وسياتي إن شاء الله البيان المفصل في ذلك .

ثانيا : اصل قياس فرضية وجود الميمات الثقافية على الجينات الوراثية هو قياس باطل ، لأن الجينات الوراثية أمر مادي ، محدد التكوين والوظيفة وبيئة العمل وطريقة النقل بشكل معقول نوعا ما ، أما ما سماه الميمات الثقافية فهي مدركات ذهنية غير مادية وهي غير محددة التكوين والوظيفة والبيئة وطريقة النقل .

ثالثا : راجع النص السابق ولاحظ عبارات (( بشكل عشوائي - بدايات غير محددة - في نفس الوقت من الممكن )) فهي مجرد فرضية فارغة المضمون لم تشمل - ولو تزويرا كالفرضيات السابقة - على راحة الدليل فلا تستحق حتى اسم الفرضية ، بل هي هراء محض .

رابعا : يعترف دوكنز ضمنا بأصالة الدين وعمقه وثباته وعمومه ، وأنه منسجم مع الفطرة البشرية ، وأنه المقتضى الطبيعي لبقاء الأصلح للبشرية ، ولكنه يخادع نفسه ويدعي مكررا وعنادا بأن كل ذلك نتيجة خطأ فاحش في لحظة زمنية عابرة في تخوم البشرية اثناء نقل الخبرات ، كالطفرة الجينية المضرة المسببة للأمراض الوراثية عند فئة من البشر ، مع أنه لم يثبت لمرض وراثي اجتماع صفات العمق التاريخي والثبات والعمومية والانسجام مع الفطرة البشرية ، فليس هذا منه سوى مكر في آيات الله ، أي محاولة الحادية يائسة لصرف دلالة ما عرفه من شواهد الربوبية القطعية كما قال تعالى : ((وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا فَلِ اللَّهِ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ )) (٢١) .

## القيمة المعرفية لفرضيات الملاحظة

أولاً : هذه هي معظم فرضيات الملاحظة في أصل الدين ، وكما رأيتم فهي على كثرتها مجرد فرضيات واهية في نفسها مفتقرة الى البرهان ، وبرغم أن واضعي هذه الفرضيات هم زعماء الملاحظة فهي تهدم بعضها بعضاً ، فتعدد الفرضيات وبطلانها في نفسها ، ونقض كل واحدة منها لغيرها يكشف تهافت الملاحظة واضطرابهم وعدم قيام الموقف الإلحادي على اسس علمية صحيحة .

ثانياً : إن جميع فرضيات الملاحظة - باستثناء الفرضية الاخيرة - قائمة على فرضية (( التطور الاجتماعي )) التي قال بها الملحد البريطاني هربرت سبنسر<sup>(١)</sup> (( توفي ١٩٠٣ م )) والتي ظهرت متزامنة مع فرضية ((التطور البيولوجي )) لدارون في منتصف القرن التاسع عشر . تنظر فرضية التطور الاجتماعي الى الحضارة ككيان واحد قد تطور من الحالة البسيطة الى الحالة المعقدة ، كما تطورت الانواع من كائن بسيط وحيد الخلية الى الاجناس العالية حسب فرضية دارون . على أساس هذه الفرضية التطورية في تفسير المجتمع قامت جميع فرضيات الملاحظة في تفسير الدين . لكن هذه الفرضية في عارضها الكثير من علماء الغرب وبعضهم من الملاحظة ، فقد عارضها الملحد الالمانى شبنجلر (( توفي ١٩٣٦ م )) الذي اطلق فرضية (( الانهيار الحضاري )) التي تذهب الى حتمية موت الحضارة و ولادة حضارة أخرى على انقاضها<sup>(٢)</sup> . كذلك فإن الشيوعية الماركسية الإلحادية ، رغم قيام فلسفتها التاريخية الاجتماعية على فرضية التطور فإنها باعتبارها لمكونات الحضارة (( الدين والاخلاق والثقافة والفكر )) هي عبارة عن بناء فوقى متولد عن البنية التحتية الاقتصادية ، فهي ذهبت الى فرضية حتمية سقوط الحضارة القائمة

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( سبنسر ، هربرت ))

(٢) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( شبنجلر ))

على الرأسمالية البرجوازية وزوالها . هذا التهافت يكشف أن جميع فرضيات الملاحظة قائمة على أساس غير ثابت وعلى شفا جرف هار . أما الفرضية الاخيرة فرضية انحراف الميمات ، فهي قائمة على فرضية التطور الداروني والتي سيأتي تفصيل الكلام في بطلانها وتهافت اتباعها .

ثالثا : إن النظر الى الدين كظاهرة اجتماعية ، وبالتالي دراستها و وضع الفرضيات في اسبابها ، هو منظار خاطئ اصلا ابتدعه الملاحظة للتنظير لإلحادهم ، فأول الكلام من قال أن الدين هو ظاهرة اجتماعية وصناعة بشرية ؟ لماذا لا يكون مقتضى الفطرة ورسالة إلهية ؟ إن زعماء الملاحظة قد ألدوا أولا لأسباب غير علمية ، ثم بعد ذلك زعموا أن الدين هو صناعة بشرية و راحوا يبحثون عن اسبابه ، تماما مثل زعماء مشركي مكة وزعماء اليهود والنصارى ، فهم قد كفروا أولا بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله وسلم تعصبا واستكبارا وبغيا وحسدا وطمعا وهم يعلمون جيدا أنه الحق من ربهم ، ثم راحوا يُنظِّرون لكفرهم فقالوا : إنه اساطير الاولين بل شعر شاعر بل اضغاث احلام بل سحر ساحر بل هذيان مجنون بل افتراه بل هو كاذب !! (( انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَبِيحُونَ سَبِيلًا (٩) ))<sup>١</sup> ، وحاشاك يا حبيب الله بل أنت : (( يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) ))<sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> - سورة الفرقان  
<sup>٢</sup> - سورة الاحزاب

## أصل الفطرة الإلهية

الفَطْر: في الاصل هو الشَّق طولاً والجمع فُطور ، وقد يكون الفَطْر على وجه الصلاح مثل : فطرت الارض اي شققتها للزراعة ، وقد يكون على وجه الفساد والخلل مثل : انفطر الجدار فهو مفطور اي انشق وتصدع ، ومنه قوله تعالى : ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ))<sup>١</sup> اي لن ترى خلا وفسادا في تصميم النظام الكوني ، ويأتي (( الفَطْر )) بمعنى اصل الايجاد والابتداع فيقال : فطر فلان البئر ، أي أوجده ، ومنه قوله تعالى : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ))<sup>٢</sup> اي خالق ومبدع وموجد السماوات والارض ، والفِطْرَة : اصل الايجاد والخلق ، وفَطْر الله للخلق هو إيجاده وإبداعه<sup>(٣)</sup> .

الفطرة الالهية للنوع الانساني : هي خلق الله وتصميمه للإنسان في احسن تقويم يناسب تحقيق الغاية من خلقه ، ويعطيه ميزة الأفضلية في مراتب الوجود ، ويرشحه لخلافة الله في الارض ، ولها جانبان : مادي وروحي ، اما الجانب المادي للفطرة فقد فطر الله التكوين الجسمي للإنسان بتصميم يميزه عن سائر المخلوقات ، يقتدر معه على ما لا يقتدر عليه غيره من الفعل والادراك ، واودعه من الاسرار بحيث يكون مؤهلا لإنتاج انماط جديدة من الافعال في سلسلة تكاملية ، قال تعالى : ((قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) ))<sup>٤</sup> . اما الجانب الروحي للفطرة ، فقد فطر الله التكوين الروحي للإنسان على

١ - سورة الملك

٢ - سورة فاطر

(٣) راجع : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (( فطر )) ، ج ٥ ص ٥٥ - مفردات الفاظ القرآن ، الراغب الاصفهاني ، مادة (( فطر )) ، ج ٢ ص ١٩٨

٤ - سورة الملك

فضائل الاخلاق ومعرفة الحقائق العالية وابداع الافكار والارتقاء في سلم القيم النبيلة والمعارف .

الفطرة البشرية بكلا جانبيها المادي و الروحي ، تشهد بوجود الله الكامل المطلق ، لأن الإنسان بكلا جانبيه المادي والروحي هو محض الحاجة والافتقار النازع نحو الكمال الجامع لكل صفات الجمال والجلال ، وهذا الأمر يدركه كل إنسان يبصر ذاته وما حوله وكفى بالإنسان على نفسه بصيرة ، فهذا الأمر هو برهان ونور للإنسان من ذات الإنسان على وجود الله وربوبيته و وحدانيته وكماله المطلق ، تجده في حالته الصافية عند الأطفال حيث لم تتكدر فطرتهم بعد بشوائب السيئات . فأصل الدين هو هداية الفطرة كما قال الله تعالى : ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ))<sup>١</sup> . يعني أن انسانية الانسان هي تقتضي دين التوحيد الحق لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فلا ينحرف عن دين التوحيد الحق إلا من تلوثت فطرته ، ولا ينكر وجود الله ويجحد رسالاته الا من طمس فطرته الانسانية ، وانحدر عن رتبته الوجودية التي جعله الله فيها كما قال تعالى : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِيُونَ (١٧٩) ))<sup>٢</sup> .

من مضحكات تهافت الملاحظة انهم يمجدون الانسانية ، ويزعمون انه لا مقدس عندهم سوى الانسان ، ويغضبون من وصف القرآن لهم بالبهايم ، في حين انهم بحسب مبادئ الالحاد ليس الانسان عندهم سوى نفاية كونية وخلطة بيولوجية كيميائية متطورة عن سلف حيواني !  
من جهة أخرى فإن الانسان ربما يغفل عن ذاته ، أو يدنس أو تتدنس فطرته فينسى ربه ويضل ، لذلك كان من لطف الله تعالى بعباده وحبه لهم أن يصطفي منهم خيرهم ، ليذكرهم بعهد الفطرة ويهديهم سبيل الرشاد ،

<sup>١</sup> - سورة الروم  
<sup>٢</sup> - سورة الاعراف

وأولئك المصطفون الأخيار هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤))<sup>١</sup> وقال تعالى : (( فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢))<sup>٢</sup> . ولقد أحسن أمير المؤمنين وخليفة الرسول الأمين بالحق ، وترجمان القرآن الأمام علي عليه السلام في إبراز هذا المعاني القرآنية السامية ، ففي أول خطبة من نهج البلاغة بعد أن حمد الله تعالى ، وذكر ابتداء خلق السماوات والارض وخلق النبي آدم عليه السلام قال : (( واصطفى سبحانه من ولده " النبي آدم " أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجعلوا حقه ، واتخذوا الانداد معه . و اجتالتهم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته . فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته . ويذكروهم منسي نعمته . ويحتجوا عليهم بالتبليغ . ويثيروا لهم دفائن العقول . ويروهم آيات المقدره ... ))<sup>٣</sup> .

فأصل الدين هو اقتضاء الفطرة البشرية ، هذه هي العقيدة القرآنية والتي يتفق عليها جميع المؤمنين بوجود إله خالق من كافة الأديان الإلهية والوضعية ، وإن اختلفوا في المسميات وتفرقوا في الصفات وضل كثير منهم في التفريعات ، بل يقرها أيضا بعض الملاحدة وهم الربوبيون واللادينيون . ولولا أن معرفة الله متجذرة في صميم الإنسان ، لما كان معنى لعبادة الاوثان بل لما كان هناك معنى لتمسك اعنى المجرمين وابشع الفجار بدينهم .

هذه العقيدة يثبتها وجدان الإنسان وتراها ساطعة عند الأطفال ، كما يثبتها الكثير من علماء الاجتماع وعلماء الانثربولوجيا وعلماء الميثولوجيا

<sup>١</sup> - سورة الجمعة

<sup>٢</sup> - سورة الغاشية

<sup>٣</sup> - نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ، الخطبة الاولى ، ج ١

وعلماء النفس وعلماء تأريخ الأديان - وبعضهم من الملاحدة - عند الشعوب التي وصفوها بالبدائية واعتبروها تمثل طفولة الجنس البشري .

أول من نبه الى (( التوحيد البدائي )) هو الباحث الاسكتلندي أندرو لانج (( توفي ١٩١٢م )) ، اعتمادا على تقارير أنثروبولوجية أثبتت أن العديد من القبائل البدائية تؤمن بالله العظيم الخالق وغالبا ما يكون مشرعا للنظام الاخلاقي عندهم ، فكان هذا الاكتشاف يمثل صدمة مناقضة لكل الفرضيات الالحادية في أصل الدين في عصره ، وللمخطط التطوري في دراسة الدين الذي يبدأ بالإلحاد . الكاثوليكي والاثنيولوجي فيلهلم شميت (( توفي ١٩٥٤ م )) اعتمد الخبرة الأنثروبولوجية ، والمنهج التاريخي في سلسلة كبيرة من التحقيقات الميدانية ، أجراها على مختلف القبائل البدائية في شتى العالم وجمع تلك التحقيقات مع الشواهد والنتائج في كتابه (( أصل فكرة الله )) الذي ظهر في ١٢ مجلداً من عام ١٩١٢ ، وأكدت تلك التحقيقات على ايمان القبائل البدائية بوجود إله واحد هو الإله السامي وإله السماء . رفائيل بنتازوني عالم الانثربولوجيا الايطالي (( توفي ١٩٥٩ م )) ، أكد وجود الإله السامي عند القبائل البدائية ، وشدد فقط على أن إله السماء له الاولوية عندهم ولكنه ليس واحداً<sup>(١)</sup> .

اعتبر الباحث الانثربولوجي ( فوي ) أن قبائل جنوب شرق استراليا تمثل أقدم طور للحياة البشرية ، وأكد أنه وجد عندهم عقيدة الإله الاسمي يعرفونه كأب ، وأنه خالق الانسان والظواهر الطبيعية الكبرى . وهاجم الباحث انكرمان الفرضيات التطورية في نشوء الدين من الإلحاد ، نافيا نفيها قاطعا فكرة كون عقيدة الإله الأسمى هي نهاية تطور الاديان ، مؤكدا وجود هذه العقيدة عند الشعوب البدائية . وذهب الباحث الرائد في علم الاساطير الالمانى شلنج في كتابه (( فلسفة الميثولوجيا )) الى أن عقيدة التوحيد كانت تسود الإنسانية الاولى ، ولكنها لم تتحقق بشكل كامل فاحترفت نحو التعدد والشرك وهامت في بحار من الاساطير عن الآلهة وتعددهم . وأكد الباحث شرودر الاستاذ بجامعة فيينا على وجود عقيدة الإله

(١) راجع : الموسوعة البريطانية ، مادة (( دراسة الدين ))

الأسمى عند الهنود الآريين ، في بحث هام بعنوان (( العقيدة الآرية عن الخالق الأسمى )) ألقاه في المؤتمر الدولي الثاني لتأريخ الأديان العام سنة ١٩٠٤م . ونشر الدكتور كروبر ابحاثا متعددة عن قبائل هنود كاليفورنيا ، أثبت فيها أن تلك القبائل هي أقدم القبائل في أمريكا الشمالية ، وجزم أن هؤلاء الهنود عرفوا عقيدة الخلق بواسطة الإله السامي . ودافع كذلك عالم النفس الألماني الدكتور اوسترج عن فكرة وجود عقيدة الإله الاسمى عند البدائيين ، وكتب كتابا في سايكولوجية الدين وقال أن الإله الاسمى يتميز عند المتوحشين بسموه الاخلاقي الى جنب قدرته على الخلق . بينما هاجم عالم الاجناس الامريكي سوانتون الفرضيات التطورية في اصل الدين وخلص الى أنه لا فارق بين توحيد البدائيين وتوحيد المعاصرين ، فقد آمن البدائيون تماما بوجود قوة عليا سامية . كما هاجم فوكارت الطوطمية هجوما عنيفا ووصل في بحوثه الى أن عقيدة إله السماء الاعلى تمتد الى اقدم العصور البشرية<sup>(١)</sup> .

هذه كانت مجرد نبذة مختصرة لأراء بعض علماء الغرب في تخصصات علوم الاجتماع والنفس والانسان والاجناس والاسطورة وعلم الأديان المقارن ، وهي العلوم التي استغلها زعماء الألحاد لتبرير الحادهم ، هذه العلوم نفسها تثبت أصالة الدين ورسوخه في تخوم الوجود البشري ، وتثبت كون الايمان بالله الواحد الاحد هو مقتضى الفطرة البشرية . الى هنا سيقول الربوبيون و اللا دينيون : إننا نتفق معكم في هذا المقدار و لكننا نرفض النبوات و الأديان و الرسالات و اليوم الآخر ، كما نرفض تدخل الله في شؤون الكون و البشر . نقول لهم : إننا كما قلنا سابقا فإن الفطرة قد تتلوث ، وأن الانسان ربما غفل فضل مما أدى الى انحراف البشر عن الدين الأصيل ، قال الامام الصادق عليه السلام : (( ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه ))<sup>٢</sup> في إشارة الى دور التربية والبيئة الاجتماعية الفاسدة في انحراف الانسان ، مما اقتضى بعث الله الانبياء والمرسلين لهداية البشر واعادتهم الى الصراط المستقيم ((

(١) راجع : نشأة الدين ، ص١٧٨-٢٣٨

<sup>٢</sup> - من لا يحضره الفقيه ، الشيخ الصدوق ، ج٢ ، كتاب الخمس ، باب الخراج والجزية ، الحديث رقم ٢

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ((<sup>١</sup>)).

ثم يكابر الملاحدة فيطالبون بدليل امبريقي ، أي دليل مادي حسي يمكن التحقق من صدقه بالتجربة المتكررة يثبت وجود الله ، مع أنهم آمنوا بأشياء كثيرة لم يقم الدليل الحسي التجريبي على اثبات وجودها ، مثل مفردة الانفجار الكبير والثقوب السوداء والمادة المظلمة ، من جهة اخرى ما الدليل المادي الحسي التجريبي على انحصار العلم في الدليل المادي الحسي التجريبي ؟ هذا الحصر لا دليل امبريقي عليه ، ثم من قال أن الله هو وجود مادي محدود يمكن رصده بتلسكوب هابل ؟ فلعلهم قاسوا الله الجامع لكل صفات الكمال والمنزه عن كل صفات النقص ، لعلهم قاسوه على النبي عيسى عليه السلام الذي يؤلهه النصارى ، أو قاسوه على آلهة الاديان الوثنية التي تجسم الآلهة ، كما فعل جهلة بني اسرائيل في قوله تعالى : ((وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) ))<sup>٢</sup> . ومتى غاب الله حتى لم تستطع الفطرة النقية والعقل السليم معرفته والايمان به ؟ ولكن الفطرة الملوثة والعقول المريضة ، هو ما يدفع الشخص الى الجحود والجدل والعناد ، كما قال أمير المؤمنين وصي الرسول الأمين علي عليه السلام : (( ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة . ألا تنظرون إلى صغير ما خلق كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر . انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على أرضها ، وصبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعددها في مستقرها . تجمع في حرها لبردها ، وفي ورودها لصدرها ، مكفولة برزقها مرزوقة بوقفها . لا يغفلها المنان ، ولا يجرمها الديان ولو

<sup>١</sup> - سورة البقرة  
<sup>٢</sup> - سورة الاعراف

في الصفا اليابس والحجر الجامس ، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجا ، ولقيت من وصفها تعبا . فتعالى الذي أقامها على قوائمها ، وبنائها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه في خلقها قادر . ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ، ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة ، لدقيق تفصيل كل شيء ، وغامض اختلاف كل حي ، وما الجليل واللطيف والثقل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء ، وكذلك السماء والهواء والرياح والماء . فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرق هذه اللغات والالسن المختلفات . فالويل لمن جحد المقدر وأنكر المدبر . زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع . ولم يلجؤوا إلى حجة فيما ادعوا ، ولا تحقيق لما أوعوا . وهل يكون بناء من غير بان ، أو جناية من غير جان (( فقله عليه السلام )) ( ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة )) تشخيص للسبب المانع عن رؤية الحق ، وهو تلوث الفطرة وضلال العقل بدخول الشبهات مما يقتضي هداية النبوة ، وهو ما اشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى : (( يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ))<sup>٢</sup> . وقوله عليه السلام ((كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه)) هذا ما نسميه ((دليل الاتقان)) أو ((دليل النظام))، الذي اشار اليه القرآن الكريم بقوله تعالى : ((صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) ))<sup>٣</sup> ، وهو والذي يصطلح عليه الآن اسم (( دليل التصميم الذكي )) في كتب علماء الغرب المناهضين للإلحاد ، وهو استدلال عقلي يعتمد على معطيات العلوم وكشوفاته القطعية ، فهل هناك دليل امبريقي اوضح من ذلك ؟ ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة.

١ - نهج البلاغة ، بشرح محمد عبده ، ج ٢ ص ١١٦

٢ - سورة البقرة

٣ - سورة النمل

وقوله عليه السلام ((وهل يكون بناء من غير بان )) هذا اشارة الى ما نسميه (( دليل السببية )) وهو أن الجبر المنطقي للعقل السليم ، يحتم انتهاء سلسلة علل الموجودات كلها الى علة أزلية موجودة بذاتها وموجدة لكل موجود ، وهو ما اشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) ))<sup>١</sup> . وقوله عليه السلام (( ولم يلجؤوا إلى حجة فيما ادعوا ، ولا تحقيق لما أوعوا )) تعبير صادق عن حال الملاحدة المعاصر ، فكم أنت رائع يا أبا الحسن ، سبحان من اصطفاكم بعلمه ، انتم ترجمان وحي الله وخليفة رسول الله بالحق ، وحجة الله على الخلق .

### \* الخلاصة

١- الفطرة تعني اصل الخلقة ، وفطرة الايمان تعني اقتضاء خلقة الانسان للإيمان بالله تعالى ، فكما أن المصباح مصمم تصميمًا يقتضي الكهرباء ليضيء فيهدي في ظلمات الاجسام ، فكذلك خلقة الانسان مصممة تقتضي الايمان فتهدي في ظلمات الارواح ، وكما أن المصباح المتسخ لا يكفي للهداية مما يستدعي وجود المرشد ، فكذلك فطرة الانسان الملوثة لا تكفي للهداية مما يستدعي وجود الانبياء والمرسلين .

٢- عقيدة اقتضاء الفطرة البشرية للإيمان هي عقيدة القرآن الكريم ، ويتفق عليها جميع المؤمنين من كافة الأديان ، بينما تفرق الملاحدة فبعضهم وافق المؤمنين باقتضاء الفطرة للإيمان ، وضل في التفاصيل مثل كارن ارمسترونج ، وبعضهم خالف المؤمنين ووضع الفرضيات ليبرر لإلحاده . هذا الأمر يعكس تشرذم الملاحدة وحيرتهم .

٣- الانسان سليم الفطرة والعقل دليله الهدايات الثلاثة ، هداية الفطرة وهداية العقل وهداية النبوة ، فالفطرة تقتضي الايمان بوجود الكمال المطلق الخالق ، والعقل يعقلن الاقتضاء الفطري كما في دليل الاتقان

<sup>١</sup> - سورة الطور

ودليل السببية ، وهما ليسا برهانا على ما يحتاج الى برهان بل هما منبهان لفطرة الانسان ، والنبوة تؤكد ما هدت اليه الفطرة وادركه العقل ، وكذلك ترشد الى مقاصد الله وسبل تحقيقها ، والملاحدة يفرون من مقاصد الله وسبل تحقيقها لذلك ينكرون النبوة والدين .

٤- إن عقيدة اقتضاء الفطرة البشرية للإيمان يثبتها وعي الانسان لذاته ، وتصرح بها فطرة الأطفال ، ويؤكدها اتفاق المؤمنين رغم اختلافهم في التفاصيل ، كما تؤكد العلم التي سخرها الملاحدة لخدمة إلحادهم ، بينما تجد فرضيات الملاحدة مجرد تخيلات متهافئة ينقض بعضها بعضا . فالدين والتدين ليس وليد الاحلام أو ارواح الموتى ، أو الجهل والخوف ، أو الفقر والثروة ، أو تقديس الطبيعة ، أو الأسطورة ، أو عبادة المجتمع ، أو الصراع الجنسي ، أو انحراف ثقافي ، إنما الدين والتدين هو اقتضاء الفطرة البشرية .

لقد أحسن الشيخ الشهيد مرتضى المطهري بعد عرض ومناقشة فرضيات الملاحدة غير العقلانية حيث قال : (( ما هذا المرض الذي يحدو بالإنسان الى أمثال ما سبق من التحليل والتفسير ؟ إن أمرهم يشبه أن نرى رجلا في قاعة مفتحة الأبواب فنقول : إنه نزل من السقف ! ما الذي يدعوننا لهذا القول بوجود أبواب مفتوحة ؟ لو كانت مغلقة لتساءلنا : من أين أتى ؟ ولكن في حالة الأبواب مفتوحة فإنه يكون مرضا لو قلنا : إنه ثقب السقف وهبط منه ! ))<sup>١</sup> فالإلحاد حالة مرضية فعلا ، والخدعة أن هذه السموم تقدم على انها علوم ، بعد تغليفها بالمصطلحات والالقباب الأكاديمية ، فيطلع عليها بعض البسطاء من هواة التقليد الأعمى ، وممن يعانون مشاكل في حياتهم ، فتؤدي الى تلويث الفطرة السليمة والضلال ، ولكن الله تعالى يهدي برحمته من شاء أن يهتدي الى الحق من عباده ، فالحمد لله على ما هدانا من الحق بإذنه ، وصلى الله وسلم على الهادي الأمام المصطفى محمد وعلى آل بيته هداة الورى من بعده وعلى هادي الأمم الأمام المنتظر عجل الله فرجه وجعلنا من أنصاره .

<sup>١</sup> - الفطرة ، الشيخ مرتضى المطهري ، ص ١٥٢

## الفصل الثالث

### العلم بين الايمان والالحاد

تعرضنا في الفصل السابق الى فرضية الجهل التي يزعم اتباعها بأن العلم قد أحال الدين على التقاعد ، وقد اثبتنا بطلان هذه الفرضية في تفسير الدين ومدى سذاجة هذا الزعم . في هذا الفصل سنبحث في دعوى الصراع بين العلم والدين ، وقضية المبالغة في تقديس العلم ، كما سنبحث فرضية الانفجار الكبير وفرضية التطور الدارونية باعتبارهما الجناحين اللذين يطير بهما الملاحدة الجدد ، بدعوى نقضهما لثوابت الدين ، وبدعوى أن فرضية الانفجار الكبير اثبتت عدم حاجة الكون الى خالق ، وأن فرضية دارون اثبتت عدم حاجة الأجناس الحية الى خالق .

## دعوى الصراع بين العلم والدين

ذكرنا في مبحث العلمانية والثورة الفرنسية في الفصل الأول ، أن تطور العلوم الطبيعية في عصر النهضة الأوربي أدى الى صدام شديد بين الكنيسة وعلماء الطبيعة ، في موارد تعارض فهم علماء الطبيعة وتعاليم الكنيسة ، حيث تسجل محاكمة الكنيسة لغاليليو وسجنه ومصادرة كتبه واذلاله فصلا ساخرا من فصول الاضطهاد العلمي في ذلك العصر . ففي بداية القرن السابع عشر في العام (( ١٦٣٣ م )) داخل الكنيسة في مدينة روما، حضر غاليليو عالم الفلك الايطالي لابسا قميص التائب الأبيض ، راکعا أمام قضاة مكتب التحقيق المفوض من البابا اوربان الثامن رئيس الكنيسة ، ثم أصغى إلى إصدار الحكم عليه : إنك يا غاليليو جعلت نفسك في نظر المكتب المقدس مشتبهاً بهرطقة ، لأنك منحت الدعم والتصديق لمذهب خاطئ ومناقض للكتاب المقدس ، ألا وهو أن الشمس هي مركز الأرض ولا تنتقل من الشرق الى الغرب ، وأن الأرض هي التي تتحرك حول الشمس وانها ليست مركز العالم .

تبع ذلك توقيع غاليليو على اعلان التوبة عن هذه الآراء وطلب المغفرة ، فكان الحكم عليه بالسجن المؤبد ، ولكن قام البابا بتخفيف الحكم نتيجة

توسط بعض الاصدقاء الى الاقامة الجبرية في منزله ، فبقي حبيس المنزل حتى توفي عام (( ١٦٤٢ م )) ، وتم حظر كتابه وكل كتاب يؤيد هذه النظرية كما منع تدريس النظرية في الجامعات.

ولكن برغم أن غاليليو مدين لكوبرنيكوس في هذه النظرية ، وكوبرنيكوس هو كاهن وراهب بولندي وعالم فلك ورياضيات (( توفي ١٥٤٣ م )) ، يعتبر عند الغرب أول من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرماً يدور في فلكها في كتابه "حول دوران الأجرام السماوية" ، مخالفاً بذلك نظرية بطليموس (( القرن الثاني للميلاد )) التي اودعها في كتابه (( المجسطي )) ، والتي تقوم على اعتبار أن الأرض ثابتة وهي مركز العالم وأن الشمس تدور حولها ، فما قام به غاليليو هو البرهنة فقط على صدق نظرية كوبرنيكوس التي طرحها كفرضية في منتصف القرن السادس عشر ، وبرغم أن كبار علماء أوروبا في القرن السابع عشر مثل غاليليو واسحاق نيوتن وباسكال وكيلر كانوا من المؤمنين المسيحيين ، وبرغم أن هؤلاء وآلاف غيرهم تخرجوا من المدارس والجامعات التي تشرف عليها الكنيسة ، وبرغم أن رئيس الكنيسة البابا بندكت الرابع عشر في القرن الثامن عشر قد رفع الحظر عن هذه النظرية وعن كتبها (( عام ١٧٥٧ م )) ، وبرغم أن رئيس الكنيسة الكاثوليكية يوحنا بولس الثاني أعلن في عام (( ١٩٨٣ م )) خطأ قرار الكنيسة ، واعتذر رسمياً عن سوء التفاهم وعن الآلام التي سببها القرار لغاليليو<sup>(١)</sup> ، أقول : رغم كل هذا فقد جعل الملاحدة من قضية غاليليو رمزا للصراع والتقاطع بين العلم والايمان ، بعد أن صيروا العلم رأس الحربة في صراعهم مع الدين ، منذ عصر غاليليو الى يومنا هذا عصر الملاحدة الجدد .

إننا لا ننكر غطرسة الكنيسة واستبدادها في ذلك العصر ، وابتعادها عن روح تعاليم نبينا عيسى عليه الصلاة والسلام ، كما لا ننكر تحريفها لكلام الله وضلالها بجعل الله ثالث ثلاثة ، وتعصبها واستكبارها عن التسليم

(١) راجع : الكنيسة والعلم ، جورج مينوا ، الفصل العاشر ، ص ٤٨٥

بوحداية الله الواحد الأحد الفرد الصمد باتباع الاسلام المحمدي الاصيل ،  
لكننا نرفض اصل دعواكم ايها الملاحدة بتقاطع العلم مع الدين ،  
فكوبرنيكوس وغاليليو وكبلر وبسكال ونيوتن كانوا مؤمنين مسيحيين ، وقد  
كانوا اولى بالإلحاد منكم حسب دعواكم بتعارض العلم مع الايمان والدين ،  
فلماذا آمنوا والحدثم ؟ لماذا لم تؤمنوا مثلهم ؟ يجادل الملاحدة بالقول إن  
هؤلاء العلماء كانوا ملاحدة ولكن يكتمون الحادهم خوف بطش الكنيسة .  
نقول : ولكن ستيفن هوكنج الذي هو عندكم عبقرى الفيزياء الكونية ، وهو  
ملحد وأعرف بغاليليو منكم ، يكذب قولكم فيقول : (( وقد ظل غاليليو  
كاثوليكيا مخلصا ، ولكن ايمانه باستقلال العلم لم يحق ))<sup>١</sup> ، ثم بعد ثبوت  
صحة نظرية غاليليو وإقرار الكنيسة بخطئها ، لماذا لم يزل الملايين من  
الناس يتبعون الدين المسيحي ؟ يجادل الملاحدة بالقول إن هؤلاء الناس  
جهلة غير متورين بالعلم . نقول : ولكن التنوير او التدمير الالحادي  
مستمر منذ ٤٠٠ سنة باسم غاليليو ، وقد اصبحت قضية مركزية الشمس  
ودوران الارض قضية بديهية ، يقرها المليارات من المسلمين والمسيحيين  
من العلماء وعامة الناس ، ومع ذلك لم يجدوا تقاطعا بين العلم بها والايمان  
بالله تعالى ورسله وكتبه ، لماذا ؟ لأن الايمان كما قلنا هو اقتضاء الفطرة  
البشرية ، ولأن الصراع واقعا ليس بين العلم والدين ، بل بين الإلحاد غير  
القائم على اسباب علمية وبين الدين ، وما العلم وما قضية غاليليو سوى  
قناع يتستر به الملاحدة لخداع انفسهم وخداع الناس .

كريسي مورسن هو الرئيس السابق لأكاديمية العلوم الامريكية ورئيس  
المعهد الامريكي ، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي  
بالولايات المتحدة ، وزميل في المتحف الامريكي للتاريخ الطبيعي ،  
وعضو مدى الحياة للمعهد الملكي البريطاني ، يقول في كتابه المترجم  
بعنوان (( العلم يدعو للإيمان )) :

(( ان بعض علماء الفلك يقولون لنا ان مصادفة مرور نجمين متقاربين  
لدرجة تكفى لإحداث مد خفاق هدام هي في نطاق الملايين، وان مصادفة

<sup>١</sup> - تاريخ موجز للزمان ، ستيفن هوكنج ، الخاتمة ، ص ١٥٥

التصادم هي نادرة لدرجة وراء الحساب . ومع ذلك ، تقول إحدى نظريات الفلك ، انه في وقت ما، ولنقل منذ بليونى سنة مضت، قد مر نجم بالفعل قريبا من شمسنا لدرجة كانت كافية لأن تحدث امدادا (جمع مد) مروعة ، ولأن تقذف في الفضاء تلك الكواكب السيارة التي تبدو لنا هائلة، ولكنها ضئيلة الأهمية من الوجة الفلكية. ومن بين تلك الكتل التي اقتلعت، تلك الحزمة من الكون التي نسميها بالكرة الارضية. انها جسم لا أهمية له في نظر الفلك، ومع ذلك يمكن القول بانها أهم جسم نعرفه حتى الان ، ويجب ان نفرض ان الكرة الأرضية مكونة من بعض العناصر التي توجد في الشمس، لا في أي كوكب آخر. وهذه العناصر مقسمة على الكرة الارضية بنسب مئوية معينة قد امكن التحقق منها لدرجة مقبولة فيما يتعلق بالسطح. وقد حولت جملة الكرة الارضية إلى أقسام دائمة، وحدود حجمها وسرعتها في مدارها حول الشمس هي ثابتة للغاية. ودورانها على محورها قد حدد بالضبط ، لدرجة ان اختلاف ثانية واحدة في مدى قرن من الزمان يمكن ان يقلب التقديرات الفلكية. ويصحب الكرة الأرضية كوكب نسميه بالقمر، وحركاته محددة، وسياق تغيراته يتكرر كل ١٨ سنة. ولو ان حجم الكرة الأرضية كان أكبر مما هو، أو أصغر، أو لو ان سرعتها كانت مختلفة عما هي عليه، لكانت ابعد أو أقرب من الشمس مما هي، ولكانت هذه الحالة ذات اثر هائل في الحياة من كل نوع، بما فيها حياة الانسان. وكان هذا الاثر يبلغ من القوة، بحيث ان الكرة الأرضية لو كانت اختلفت من هذه الناحية أو تلك، إلى أية درجة ملحوظة، لما أمكن وجود الحياة فوقها. ومن بين كل الكواكب السيارة، نجد ان الكرة الأرضية فيما نعلم الآن، هي الكوكب الوحيد الذي كانت صلته بالشمس سببا في جعل نوع حياتنا ممكناً . اما عطارد فانه - بناء على القوانين الفلكية - لا يدير إلا وجهة واحدة منه نحو الشمس، ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس (سنة عطارد) . وبناء على ذلك لابد ان جانبا من عطارد هو أتون صحراوي، والجانب الاخر متجمد . وكثافته وجاذبيته هما من القلة بحيث ان كل آثار للهواء فيه لا بد ان تكون قد تسلت. واذا كان قد بقي فيه أي هواء فلا بد ان يكون في شكل رياح هوجاء تجتاح هذا الكوكب من جانب إلى آخر. أما كوكب الزهرة فهو لغز من الأغاز به بخار سميك

يحل محل الهواء، وقد ثبت انه لا يمكن ان يعيش فيه أي كائن حي . و أما المريخ فهو الاستثناء الوحيد، وقد تقوم فيه حياة كحياتنا، سواء في بدايتها أو تكون على شفا الانتهاء. ولكن الحياة في المريخ لابد ان تعتمد على غازات أخرى غير الأوكسجين، وعلى الخصوص الهيدروجين. إذ يبدو ان هذين قد أفلتا منه. ولا يمكن ان توجد مياه في المريخ. ومعدل درجة الحرارة فيه أقل كثيرا من ان تسمح بنمو النبات كما نعرفه. والقمر أيضاً لا يمكن ان يحتوي هواء، وهو الآن غير مسكون اطلاقاً. وهو في أثناء ليله يكون بارداً للغاية، وفي اثناء نهاره الطويل يكون رمادا شديد الحرارة. اما الكواكب السيارة الأخرى فإنها بعيدة عن الشمس إلى حد لا يسمح بوجود الحياة فوقها، وهي لصعاب أخرى لا يمكن تذليلها، لا تستطيع ان تحتمل الحياة في أي شكل من الأشكال. والمتفق عليه الآن عموماً، أن الحياة لم توجد قط، ولا يمكن ان توجد، في أي شكل معروف، على اي كوكب سيار غير الكرة الأرضية. لذلك لدينا في البداية الاولى، كوطن للمخلوقات البشرية، كوكب سيار صغير، قد اصبح بعد سلسلة تغيرات في مدى بليونى سنة أو اكثر، مكاناً صالحاً لوجود الحياة الحيوانية والنباتية التي توجت بالإنسان. وتدور الكرة الارضية حول محورها مرة في كل اربع وعشرين ساعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة، والآن افرض انها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة. ولم لا؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، وفي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار، وفي الليل قد يتجمد كل نبت في الارض. ان الشمس، التي هي مصدر كل حياة، تبلغ درجة حرارة مسطحها ١٢٠٠٠ درجة فهرنهايت، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حد يكفي لان تمدنا هذه (النار الهائلة) بالدفع الكافي لا بأكثر منه. وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب، وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة، بحيث امكن استمرار الحياة كما عرفناها، ولو ان درجة الحرارة على الكرة الارضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة، فان كل نبت يموت، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجمداً. والكرة الارضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلاً في الثانية. ولو ان معدل

دورانها كان مثلاً، ستة اميال أو أربعين ميلا في الثانية، فان بعدنا عن الشمس او قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا.

والنجوم كما نعلم تختلف في الحجم. وأحدها يبلغ من الضخامة حدا لو كان شمسنا لكان محور الكرة الأرضية داخلا في سطحه لمسافة ملايين الاميال. والنجوم كذلك تختلف في طراز اشعاعها. وكثير من اشعتها يميت كل نوع معروف من انواع الحياة. وتتراوح كثافة هذا الاشعاع وحجمه بين ما هو اقل من اشعاع شمسنا وما هو أكثر منه عشرة الاف مرة، ولو ان شمسنا اعطت نصف اشعاعها الحالي فقط، لكننا تجمدنا. ولو انها زادت بمقدار النصف، لأصبحنا رماداً من زمن بعيد، هذا إذا كنا قد ولدنا بوصفنا شرارة بروتوبلازمية PROTOPLASMIC (خلية) للحياة. ومن ذلك نجد ان شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشمس غير الصالحة لهذه الحياة. ثم ان الكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ٢٣ درجة. ولهذا دواع دعت اليه: فلو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان القطبان في حالي غسق دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوبا، مكدسا في طريقه قارات من الجليد، وربما ترك صحراء بين خط الاستواء والثلج. وفي هذه الحالة كانت تنبعث انهار من الجليد، وتتدفق خلال اودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح، لتكون بركا مؤقتة من الملح الأجاج (ملاحظات) . وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين. فيؤدي ذلك إلى فرط حرارة خط الاستواء أو فورانه، أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة، كما ان انخفاض المحيط يعرض مساحات شاسعة جديدة من الأرض، ويقلل من هطول المطر في جميع ارجاء العالم، مما ينجم عن ذلك عواقب مخيفة ..... ولو كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلاً، بدلا من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلا، فان المد كان يبلغ من القوة بحيث ان جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة. وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب، وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم ..... لقد جاء نظامنا الشمسي من

خليط مضطرب للعناصر التي انفصلت عن الشمس عند درجة حرارة قدرها ٤١٢ر٠٠٠ وتبعثرت في فضاء غير محدود، بعنف لا يتصوره العقل. وقد حل النظام محل الفوضى بدقة تجعلنا نستطيع ان نقدر بـ (الثانية) المكان الذي سيحتله أي جزء. وبلغ التوازن من الكمال إلى حد انه لم يعتوره أي تغيير في مدى بليون سنة، وأنه يدل على الدوام إلى الأبد. كل ذلك بحكم قانون. وبهذا القانون نفسه يتكرر هذا النظام الذي نراه في النظام الشمسي، في نواح اخرى. <sup>١</sup> .

ربما تغيرت قليلا بعض المعطيات الرصدية الواردة في هذا الكتاب ، ولكن مصنف الكتاب هو عالم مسيحي متخصص ، صنف الكتاب ليبرهن أن العلم يدعو للإيمان وأن الكون لا يقوم بنفسه ، ردا على زعم أحد مشاهير الملاحدة في وقته أن العلم يدعو الى الإلحاد ، وأن الكون يقوم لوحده ، وهذا برهان على بطلان دعوى الملاحدة بتعارض العلم مع الايمان والدين ، وسقوط لقناع العلم الذي يتسترون به .

بالنسبة لنا حتى ننهي الجدل في هذا الموضوع ، نطلب من الملاحدة ومن المؤمنين أن يضعوا نصب اعينهم هذه القاعدة :

(( استحالة ان يتعارض قطعي العلوم مع قطعي الدين الاسلامي ))

انما الذي ربما يتعارض هو ظني العلوم واشتباهاته وفرضياته مع قطعي الدين ، او ظني التفسير والنسبة للدين مع قطعي العلم ، فلا يوجد تصادم مطلقا بين الدين الاسلامي الواقعي وبين العلم الواقعي ، فالقرآن العظيم ظاهره انيق وباطنه عميق ولا يعلم حق تأويله إلا الله والراسخون في العلم وهم محمد وآل بيت محمد صلوات الله وسلامه عليهم ، والنصوص الروائية بعضها منسوب الى خلفاء الرسول بالحق وحجج الله الراشدة وهم آل بيت محمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وبعضها منسوب الى مذاهب المخالفين للحق ، وما كان منها منسوبا الى حجج الله على خلقه فبعضه قطعي الصدور عنهم وبعضه ظني الصدور ، وما كان منها قطعي

<sup>١</sup> - العلم يدعو للإيمان ، كريسي مورسن ، ص ١٩-٢٥

الصدور فبعضه قطعي الدلالة وبعضه ظني الدلالة . كما أن ما ينسب الى العلوم بعضه يكشف عن واقع حقيقي كامل ، وبعضه مجرد نظريات قاصرة او فرضيات حائرة ، وفي جميع ذلك ينبغي الرجوع الى الخبراء المختصين في علوم الدين وفي العلوم الطبيعية ، فلا يؤخذ الحق إلا من أهله ، وإلا بقي صاحب ثقافة الالتقاط متخبطا في جهله . فلا تعارض واقعا بين واقعي الدين و واقعي العلم ، بل العكس هو الصحيح ، فان كنوز العلم الالهي المطلق توجد مفاتيحها في القرآن والاسلام المحمدي الاصيل و وظيفة البشرية هي ادراك المفاتيح ، ولا جناح على الاسلام المحمدي الاصيل اذا اهملت البشرية المفاتيح الالهية و ولجت العلوم من غير ابوابها الحقيقية. دليلنا على هذه القاعدة هو أن العلم الواقعي والدين الواقعي مصدرهما واحد وهو الله سبحانه وتعالى العليم المطلق ، وقد اثبتنا مسبقا أن وجود الله الكامل المطلق هو مقتضى الفطرة ، وأن مقتضى لطف الله وحكمته هو ارسال الانبياء بالرسالات لهداية البشرية ، فيستحيل تنافي واقعي الرسالات مع واقعي العلم .

ان الغاية الالهية من الخلق هي تكامل البشرية وهذا الأمر يتوقف على طلب العلم في طريق السعي لتحقيق الكمال المنشود للفرد والمجتمع ، لذلك تجد القرآن الكريم يستعرض جميع موضوعات العلوم الطبيعية والروحية ويعطي مفاتيح كنوزها ، ويحث على السعي في ادراكها وتدبرها في الكثير من الموارد ، منها قوله تعالى : ((إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ))<sup>١</sup> ، وتعهد أن يتجلى لكل فرد من عباده في آيات ملكوته الافاقية والانسسية فقال : ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) ))<sup>٢</sup> .

١ - سورة البقرة  
٢ - سورة فصلت

فليس من شأن الله العليم الخبير أن يأمر عباده في كتاب التدوين بالتفكر والبحث في ملكوت السماوات والارض ، ثم يكشف لهم ما يتقاطع معه في كتاب التكوين ، فإن زعمتم ايها الملاحدة أن القرآن صناعة بشرية وأن من صنعه أمر بالتفكر والبحث في الطبيعة ولكن العلم قد فضح كذبه . قلنا : عدتم مرة أخرى بقناع قضية غاليليو الذي اسقطناه قريبا فلا نكرر ، ولكن نقول بأن القرآن الكريم قطع النزاع وتحداكم تحديا عظيما بالإتيان بمثله وترك لكم الاستعانة بمن شئتم فقال : (( قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ))<sup>١</sup> ، وأخبرنا أن هروبكم عن التحدي وعدم الاتيان بمثله تحت اية ذريعة هو برهان على إفلاسكم ، وعلى أنه قد نزل بعلم الله العليم الخبير فقال : (( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَأَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) ))<sup>٢</sup> فصدق الله الذي لا إله إلا هو ونحن له مسلمون .

ان الاسلام جعل طلب العلم فريضة واجبة وجوبا كفاثيا على جميع افراد المجتمع في كل علم يتوقف عليه نظام المجتمع الاسلامي ، دون تمييز بين الذكر والانثى والعربي والاعجمي والغني والفقير ولا غيرها من نواحي التمييز، بما لم يسبقه في ذلك اي دين او تنظيم او قانون ، فحقق نهضة علمية في جميع ميادين العلوم في وقت كان العالم يعيش في ظلمات الجهل والتخلف ، وكل ما وصل اليه العالم اليوم في ميادين العلم والمعرفة انما هو تطوير لما وصلت اليه الحضارة الاسلامية، وقد ذكرنا في مبحث العلمانية في الفصل الاول شهادة المؤرخ ويل ديورانت في موسوعته التاريخية الشهيرة (( قصة الحضارة )) والتي أكد فيها على قيام النهضة الاوربية على مكتسبات الحضارة الاسلامية . وبالطبع فإن بعض الملاحدة جادل في بعض أسماء علماء الاسلام ، وادعى انهم كانوا من الملاحدة ، وبرغم أن هذا الدعوى تكشف عن جهالة تاريخية لا نريد

١ - سورة الاسراء

٢ - سورة هود

الخوض في بيان بطلانها فما طرحوها إلا جدلا ، إلا أننا نقول للمجادل الملحد : ينبغي أن تعلم ان المنجزات العلمية كما هي نتيجة حالة إبداع فردي ، كذلك هي في ذات الوقت نتيجة حالة التراكم المعرفي وظروف المناخ الثقافي والحضاري السائد ، فالمنجزات الحضارية تنسب للحضارة التي انجزتها كما تنسب الى الفرد المنجز ، ونحن نعلم أن منجزات الحضارة الاسلامية قامت على منجزات حضارات اليونان وفارس والهند والصين ، ولا نتبجح على أوروبا حينما نقول بأن نهضتها قامت على مكتسبات الحضارة الاسلامية ، فنحن متواضعون عن علم ، ولا نتبجح مثلكم عن جهالة ، حيث تزعمون بأن الملاحدة - بما هم ملاحدة - هم صناع الحضارات .

### المبالغة في تقديس العلم

التقديس يعني التعظيم والتنزيه عن شوائب النقص والعيوب التي لا تليق بذات الأمر المعظم ، وهو شعور باطني يستدعي خضوع النفس للأمر المقدس سواء عبر عن هذا الخضوع بمظاهر خارجية ام لا ، والشيء قد يكون مقدسا لذاته وقد يكون مقدسا لغيره ، فنحن بالنسبة لنا لا مقدس لذاته سوى الله سبحانه وتعالى ، لأنه العظيم المطلق الجامع لكل صفات الكمال بإطلاقها والمنزه عن كل صفات النقص بإطلاقها ، أما تقديسنا للنبي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فليس لذاته بما هو بشر بقطع النظر عن النبوة ، وإنما لأجل كمال ارتباطه بالله سبحانه وتعالى ، وكمال ارتباطه بالمقدس المطلق استوجب له مرتبة عالية من الكمال الصفاتي والنزاهة عن النقص تستحق التقديس .

حالة التقديس إذن تنطوي على الكمال والمعصومية للأمر المقدس ، والخضوع النفسي له ، فهل العلم يستحق التقديس ؟

ينبغي التفريق أولا بين العلم في حد ذاته ، وبين ممارسة العلم ، وبين شخص الممارس للعلم ، وبين نتائج الممارسة العلمية . العلم اختلفوا في

تعريفه ولكن بتعبير بسيط يفهمه الجميع هو انكشاف الواقع في الذهن ، وممارسة العلم هي نشاط البحث العلمي ، والممارس للعلم هو الشخص الذي يزاول البحث العلمي للحصول على نتائج ، ونتائج الممارسة العلمية هي الأثر المعرفي و العملي المترتب على البحث العلمي . إذا عرفنا ذلك فما هو الأمر الذي يستحق التقديس من هذه الامور الاربعة : العلم ، الممارس للعلم ، الممارسة العلمية ، ونتيجة الممارسة ؟

العلم في حد ذاته بما هو انكشاف الحق لدى ذهن الشخص العالم لا يستحق التقديس في ذاته ، أي أن العلم بمعزل عن شخص العالم هو مجرد انكشاف لواقع ، وهذا الانكشاف للواقع هو أمر وجودي كغيره من الأمور الموجودة ، ليس له عظمة في ذاته يمتاز بها عن غيره من الموجودات تستوجب له قداسة ، فجميع الموجودات مشتركة في حيثية الوجود ولا كمال للوجود في حد ذاته إلا بما هو خير من العدم في حد ذاته ، فنحن حينما لا نعلم بشيء يسمى هذا جهلا فالجهل هو عدم العلم ، وحينما ينكشف الواقع لدى ذهننا يكون هذا الانكشاف وجودا طاردا للعدم .

والعلم من حيث هو صفة لشخص العالم ، هو كمال للعالم لأن العالم المنكشف لذهنه الواقع هو خير من الجاهل به ، ولكن شخص العالم لا يستحق تقديسا بما هو عالم ، لأن التقديس كما قلنا ينطوي على المعصومية والتنزيه ، وهذه لا تكون إلا بالتزام العالم بعلمه عمليا و اخلاصه لعلمه فلا قدسية لعالم لم يلتزم بعلمه ، والملتزمون بأخلاقيات العلم قليل .

والممارسة للعلم والبحث العلمي هو نشاط بشري كجميع الانشطة البشرية الاخرى لا يستوجب تقديسا في ذاته ، والبحث العلمي ليس بالضرورة ينتج علما بالشئ المبحوث عنه ، فالكثير من الباحثين بعد سنوات من البحث يموتون دون الوصول الى نتيجة واقعية ويتركون مهمة اكمال البحث الى غيرهم .

أما نتيجة ممارسة العلم فقد قلنا أنها الاثر المعرفي او العملي المترتب على البحث العلمي ، والاثر العملي هو التطبيق الخارجي لمنجزات البحث كالطائرة وكالدواء المصنوع اعتمادا على منجزات بحث علمي ، ولا كمال

للمنتوج الصناعي في حد ذاته ، فهو موجود من الموجودات إلا بمقدار المنفعة التي يؤديها للبشرية ، فلا كمال للدواء او السيارة او الطائرة في حد ذاتها إلا من حيث المنفعة التي تؤديها ، ولا قدسية لما كان فيه منفعة منها لأن منفعته توجب له كمالا محدودا مشوبا بالنقص والعيوب ، والتقدير هو تعظيم وتنزيهه عن العيوب والنقص ، وقد كان العلماء والناس سابقا يتوهمون في المنتوج الصناعي منفعة تامة وكمالا نهائيا ، ثم بتطور العلوم وبوضع المنتوج الصناعي في معرض الاستعمال ، استبان عيوب ونقص المنتوج الصناعي للعلماء ، وجرى البحث العلمي من جديد في سبيل تطويره الى منتج أكمل ، وهكذا حتى اصبحت قاعدة مسلمة عند الباحثين أنه لا يوجد منتج صناعي كامل كمالا تاما وإن بقيت هذه القاعدة مجهولة عند البعض من عامة الناس ، فظلوا يتوهمون كمالا مطلقا لمنتوج صناعي كالتائرة معتقدين جهلا أنها صنعت أول مرة كما هي الآن ، ولا يعلمون أنها مرت ولا تزال بعشرات المراحل من التطوير وتلافي العيوب . وأما الأثر المعرفي المترتب على منجز البحث العلمي ، فهو أما يكون علما وأما يكون ظنا ، أي أن البحث العلمي قد تكون نتيجته توجب انكشافا تاما لواقع الموضوع المبحوث فيه في ذهن الباحث وهذا يسمى علما ، وأما تكون نتيجته توجب انكشافا ناقصا لواقع الموضوع المبحوث فيه وهذا يسمى ظنا ، والعلم هو كما قلنا لا قدسية له في ذاته بمعزل عن شخص العالم ، وشخص العالم لا قدسية له في ذاته مالم يكن ملتزما بعلمه والعلماء الملتزمون قليل ، والظن هو أخس من العلم فهو انكشاف ناقص مشوب بجهل فلا قدسية له في حد ذاته ولا من حيث شخص الباحث فهو ظان وليس عالما ، وقد كان الباحثون وعامة الناس سابقا يتوهمون علمية جميع منجزات البحوث العلمية وأنها حقائق واقعية قطعية ، الأمر الذي أدى الى وضع لابلاس في بداية القرن التاسع عشر لمبدأ الحتمية العلمية الذي يؤكد على خضوع كل ظاهرة لقانون صارم لا يخضع لتدخلات خارجية ، وأدى ايضا الى تبجح بعض الملاحدة مثل اوغست كونت بأن العلم قد أحال الدين على التقاعد ، ثم بتطور العلوم و وضع النظرية في مجال التطبيق استبان للباحثين قصور النظرية وبطلان وهم واقعياتها ، وهكذا اتضح ظنية أغلب المنجزات البحثية ، حتى صارت قاعدة مسلمة عند الباحثين وهي نسبية

نتائج البحث وعدم اليقين العلمي فصار الباحثون المختصون الى التواضع العلمي ، بينما بقيت هذه القاعدة مجهولة عند البعض من عامة الناس فضلوا يتوهمون علمية النظريات ، مع أنها حتى لو كانت علمية تكشف عن واقع حقيقي ، فإن العلم لا يوجب تقديسا لذاته ولا لشخص الباحث العالم غير الملتزم كما اوضحنا. لا نريد الخوض في فلسفة العلوم لبيان كيف صار الباحثون فلسفيا الى نسبية نتائج البحث العلمي ، فهناك معركة يتعسر فهمها ، ولكننا سنذكر مثالا تطبيقيا صغيرا من تاريخ علم الفيزياء باعتباره اكثر ما يتبجح به العامة من الملاحدة ، فنقول باختصار ودون الدخول في تفاصيل الادلة والمعادلات الفيزيائية :

في القرن السابع عشر اعتقد كرسنتيان هوغنز عالم الفيزياء الهولندي (( توفي ١٦٩٥ م )) أن الضوء هو عبارة عن موجات طاقة وليس جسيمات مادة ، بينما اعتقد معاصره نيوتن أن الضوء هو عبارة عن جسيمات مادية ، وكان لكل منهما ادلته ، وبسبب شهرة نيوتن سادت نظرية جسيمية الضوء حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث اثبتت اختبارات يونغ و فرينل بطلان نظرية نيوتن وعجزها عن تفسير ظواهر تداخل وانحراف الضوء وهي ظواهر موجية ، فنبذت نظرية نيوتن في جسيمية الضوء لصالح نظرية موجية الضوء لهوغنز ، ولكن عجزت النظرية الموجية عن تفسير حركة الضوء لأنه إن كان موجة فلا بد له من وسط ناقل ، لذلك تم افتراض وسط (( الأثير )) الذي وصف بأنه مادة شفافة ورقيقة جدا تملأ الفراغ ، وفي عام (( ١٨٦٤ م )) وضع ماكسويل النظرية الكهرومغناطيسية في تفسير طبيعة الضوء الموجية ، وباءت تجارب ميكلسون ومساعدته مورلي في الكشف عن وجود مادة الاثير بالفشل<sup>(١)</sup> ، كما عجزت قوانين نيوتن ونظرية ماكسويل الكهرومغناطيسية في تفسير خواص الاشعاع الصادر من الجسم الاسود . في مطلع القرن العشرين طرح ماكس بلانك ((نظرية الكم)) التي تزعم أن الضوء ليس مركبا من جسيمات ، ولكنه في ذات الوقت لا ينبعث كموجة أي في وحدة بسيطة

(١) راجع : قصة الفيزياء ، لويد موتز و جيفرسن ويفر ، الفصل التاسع ، ص ١٣٤

متصلة ، وإنما هو مركب من وحدات طاقة (( كم )) أي أنه يسلك سلوك الجسيمات في تكوينه من كمات ، أي حصص منفصلة كل حصة منها هي كم منفصل ، وقد حاز ماكس بلانك على جائزة نوبل لأجل هذه النظرية التي أسست لعصر الفيزياء الحديثة (( ميكانيكا الكم )) حيث وجهت بحوث الفيزياء نحو دراسة طبيعة الذرة واكتشاف بنيتها ، واغلقت الباب على بحوث الفيزياء الكلاسيكية (( ميكانيكا نيوتن )) التي تركز بحوثها على دراسة احوال الاجسام ما فوق الذرة مستندة الى قوانين نيوتن ، كانت نظرية ماكس بلانك هي التي اشعلت فتيل الثورة الكمية حيث انطلقت من ناحية فيزياء الاشعاع الحراري الى العاصمة فيزياء الذرة .

دعم اينشتاين (( توفي ١٩٥٥ م )) نظرية الكم الضوئية على تردد متخذا موقفا توفيقيا ، فذهب الى أن الضوء يسلك احيانا سلوك الجسيمات منبعثا على شكل حبيبات طاقة اسمها (( فوتونات )) ويسلك احيانا سلوك الموجة ، مشيرا الى الطبيعة الازدواجية للضوء والتي سميت ثنائية الموجة - الجسيم (١) ، واستند الى نظرية الكم في تفسير الظاهرة الكهروضوئية وحاز على تفسيره هذا على جائزة نوبل عام (( ١٩٢١ م )) ، واقترح امكان تطبيق نظرية بلانك الكمومية على ذرات المادة نفسها ، فكما أن الاشعاع الضوئي ممكن ان يسلك كجسيم وكموجة فكذلك مكونات الذرة ممكن ان تسلك كجسيم وكموجة ، ولكنه بقي متحيرا في سبب تنوع سلوك الضوء باحثا عن قانون للتنوع كما في العبارة المشهورة التي نسبت اليه (( إن الله لا يلعب بالنرد )) ، مشيرا بها الى مبدأ حتمية وجود علة لكل حدث ، ومعارضاً مبدأ العشوائية واللاحتمية في فيزياء الكم الذي ذهب اليه نيلز بور واكثر الفيزيائيين تعبيراً عن عجزهم العلمي عن معرفة القانون ، مكتفين بمبدأ حساب الاحتمالات الذي أكده هايزنبرغ بما سمي مبدأ عدم اليقين او مبدأ الريبة او مبدأ عدم التأكد . ونحن نقول : إن هذا يعني سقوط التبجح العلمي بالاحتمية القانونية الذي ساد في القرن التاسع عشر ، وعودة الى مذهب الشك اليوناني لبيرون (( ٤٠٠ سنة قبل الميلاد

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل الثالث عشر ، ص ٢١١-٢٢٠

(( واستلهاما لسفسطة هيوم (( القرن الثامن عشر )) الذي انكر مبدأ السببية . ولكن اينشتاين لم يقتنع وظل يصارع ويتلو الحجة بعد الحجة والتجربة بعد التجربة حتى وفاته ، ليبرهن على قصور او بطلان نظرية الكم فيما عرف باسم (( معضلة اينشتاين )) ، رغم انه قد استفاد منها في تفسير الظاهرة الكهروضوئية الذي نال به جائزة نوبل (١) . تم التوجه لدراسة الذرة في بداية القرن العشرين فزعموا تركيبها من جسيمات اولية بعدما كان الاعتقاد سائدا منذ عصر المدرسة الذرية اليونانية لديموقريطس (( ٥٠٠ سنة قبل الميلاد )) حتى اواخر القرن التاسع عشر ، بأن الذرة هي اصغر جسيم تتكون منه المادة ، فاكتشف طومسون الالكترن ثم اكتشف رذرفورد البروتون ثم اكتشف تشادويك النيوترون ، واعتقدوا ان هذه الثلاثة هي جسيمات مادية اولية وانها كل ما تتكون منه الذرة ، ولكن لاحقا كشف جيلمان (( توفي ٢٠١٩ م )) انها ليست اولية بل أن البروتون والنترون يتרכب كل منهما من جسيمات اصغر اسمها الكوارك ، وأخذ على ذلك جائزة نوبل عام (( ١٩٦٩م )) ، وانكشف ايضا انها ليست كل ما تتكون منه الذرة بل هناك جسيمات اخرى مثل النيوتريينو والميون و التاوون واطداد الجسيمات كالبوزترون ضد الالكترن(٢) ، كما اكتشفوا الطبيعة الازدواجية لسلوك مكونات الذرة ، فهي جسيمات من حيث ان لها كتلة ، وتتصرف كموجة من حيث الحيود والتداخل عند العقبات مما زاد في دهشة الباحثين وتزايد الفرضيات ، حتى وضع تلميذ اينشتاين دي برولي (( توفي ١٩٨٧ م )) فرضية الطبيعة الازدواجية لمكونات الذرة والتي عرفت بثنائية (( الجسيم - الموجة )) واخذ عليها جائزة نوبل(٣) على اساس انه اثبت الطبيعة الموجية لجسيمات الذرة ، ونحن نقول : هذه الفرضية يقرها اليوم معظم خبراء الفيزياء وهي تعني أن مكونات الاجسام ليست مادية بحتة بل هي مزيج من المادة والطاقة ، وهذا يعني سقوط نظرية اصالة المادة ، إلا أن الملاحظة ظلوا يجادلون بأن الطاقة هي شكل من اشكال المادة . مات اينشتاين ولم يستطع التوفيق العلمي بين ميكانيكا

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل الخامس عشر ، ص ٢٥٢

(٢) راجع : المصدر السابق ، الفصل التاسع عشر ، ص ٣٢٧-٣٥٣

(٣) راجع : المصدر السابق ، الفصل السابع عشر ، ص ٢٨٣

نيوتن وميكانيكا الكم فمكونات الذرة هي عنده جسيمات مادية ولكنها لا تتصرف بحسب قوانين الاجسام بل (( ان اينشتاين كان يرفض الايمان بحقيقة ميكانيكا الكم ))<sup>١</sup> كما صرح ستيفن هوكنج ، والى حد هذا اليوم تتوالى الفرضيات حول نوع وطبيعة مكونات الذرة ويأخذ عليها اصحابها جائزة نوبل ثم لا تلبث أن تسقطها فرضية جديدة ، ولم يستطع احد الى اليوم رفع التناقض بين ركني الفيزياء الحديثة ، نظرية الكم ونظرية النسبية العامة لأينشتاين التي هي تطوير لفيزياء نيوتن الكلاسيكية . كان المقترح السائد هو اقتسام الطبيعة بأن تحترم كل نظرية حدود عملها ففيزياء الكم تعمل في حدود الاجسام الدقيقة ما دون الذرة ، وفيزياء اينشتاين تعمل في الاجسام الكبيرة ما فوق الذرة ، ولكن هذا الاقتراح المعبر عن العجز العلمي لم ينفذ ، حيث برزت عدة مشاكل كظاهرة شعاع الثقب الاسود ، اسقطت فيزياء اينشتاين ولا تستطيع فيزياء الكم تفسيرها دون الاستعانة بفيزياء اينشتاين<sup>(٢)</sup> ، لم يتمكن أحد من انقاذ هرم الفيزياء من السقوط والتوحيد بين النظريتين فيما عرف بالبحث عن النظرية الموحدة الكاملة (( فيزياء الجسيمات الاولية غارقة في بحر من الشكليات ، ففي كل يوم تظهر في اشهر المجالات الفيزيائية نشرة تلو نشرة تكون كلها مليئة بخليط مبهم من المعادلات الرياضية من دون اي استنتاجات عددية . وما غياب الاعداد في نهاية هذه النشرات إلا ظاهرة واضحة على اعتلال صحة الفيزياء النظرية في هذه الايام لأنها تظهر لنا بأن الفيزيائيين النظريين يدرسون عالما وهميا لا عالما حقيقيا ))<sup>٣</sup> وكما قال خبير الفيزياء لي سمولن معبرا عن احباطه بعد ثلاثين سنة من البحث عن مخرج لأزمة الفيزياء الحديثة : (( تلك على الارجح هي طريقة الطبيعة في عقاب علماء النظريات غير المتواضعين الذين يجروون على تحطيم وحدتها ))<sup>٤</sup> ، وعلى اساس معضلة اينشتاين ومبدأ عدم اليقين تم تغيير وظيفة البحث العلمي ، فبعد أن كانت وظيفته كشف القانون الصارم ، واعطاء تفسير

<sup>١</sup> - تاريخ موجز للزمان ، الفصل العاشر ، ص ١٣٤

<sup>(٢)</sup> راجع : اكبر خمس مشكلات في العلوم ، آرثر ويجنز و شارلز وين ، الفصل الثاني ، ص ٢٥-٥٥

- تاريخ موجز للزمان ، الفصل الخامس ، ص ٤٦-٧٧

<sup>٣</sup> - قصة الفيزياء ، الفصل الاول ، ص ٢٤

<sup>٤</sup> - مشكلة الفيزياء ، لي سمولن ، ج ١ ص ٤٦

للواقع بما هو واقع يعني اعطاء العلم ، صارت وظيفته محاولة فهم الظاهر بحسب اقوى الظنون.

### \* الخلاصة

إن كانت هذه حال الفيزياء التي يعدونها (( تاج العلوم الحقيقية )) التي تقوم - حسب المفروض - على التجربة والصرامة الرياضية ، فما بالك بالعلوم الحقيقية الأخرى كالكيمياء والأحياء والطب والهندسة ؟ بل ما بالك بالعلوم التي يعدونها غير حقيقية لأنها أكثر ما تقوم على الحدس والاستدلال النظري والاستقراء الناقص كعلوم النفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد ؟ إن الحال في تلك العلوم أسوأ بكثير من حال الفيزياء ، علما أن الفيزياء لم تتكثر بحوثها ومنجزاتها ، إلا بسبب دعم المؤسسات الرأسمالية لها للأغراض العسكرية والتجارية الخاصة.

فأين العلم الحقيقي ايها الملاحدة ؟ معظمها فرضيات ظنية ، لست أنا من يقول ذلك ، بل نجم الملاحدة خبير الفيزياء الكونية ستيفن هوكنج (( توفي ٢٠١٨م )) هو من قال ذلك فاستمعوا لما قال : (( أي نظرية فيزيائية هي دائما مؤقتة بمعنى أنها فرض وحسب ، فأنت لا تستطيع قط أن تبرهن عليها . ومهما بلغت كثرة مرات اتفاق نتائج التجارب مع نظرية ما ، فإنك لا تستطيع قط أن تتيقن من أنه في المرة التالية لن تتناقض النتيجة مع النظرية ))<sup>١</sup> . وأين العالم الملتزم بأخلاقيات العلم ايها الملاحدة ؟ اينشتاين الملحد من أصل يهودي ، سخر علمه لخدمة المؤسسات الرأسمالية ، وساهم في انتاج القنبلة النووية ثم راح يبرر ويذر الرماد في العيون بالتحذير من مخاطر انتشار السلاح النووي في آخر ايام حياته، وقد كان مناصرا صريحا للحركة الصهيونية ، وهي حركة يهودية قومية سعت لإقامة دولة ليهود العالم في فلسطين فرضا على سكانها العرب ، وقد استثمر اينشتاين خدماته العلمية للمؤسسات الرأسمالية في دعم الحركة

<sup>١</sup> - تاريخ موجز للزمان ، الفصل الاول ، ص ٢١

الصهيونية ماليا وسياسيا ، الى ان اثمرت جهوده بإقامة الغرب لدولة اسرائيل ، تلك الغدة السرطانية ليس في جسد العالم العربي والاسلامي فقط بل في جسد العالم كله ، ولست أنا من يقول ذلك بل ستيفن هوكنج ، فاستمعوا لما قال : (( ولعل جهود اينشتاين للسلام اثناء حياته لم تنجز إلا قليلا مما سيكتب له البقاء ، ومن المؤكد أنها لم تكسب له إلا القليل من الاصدقاء ، على أن دعمه الصريح للقضية الصهيونية قد أقر به في ١٩٥٢م على النحو اللائق ))<sup>١</sup>. وأين الذكاء والكشوف العلمية التي وعدت بالمستقبل السعيد للبشرية ايها الملاحدة ؟ معظمها ضررها أكثر من نفعها ، ولو على الامد البعيد أو غير المباشر ، ولست أنا من يقول ذلك وانما ستيفن هوكنج يقول : (( ومن المؤكد أنه كان من الحقيقي في الماضي أن ما نسميه الذكاء هو والكشف العلمي قد اضيفا ميزة بالنسبة للبقاء ، على أنه ليس من الواضح إذا كان الحال مازال كذلك فكشوفنا العلمية قد تؤدي الى دمارنا كلنا تماما ))<sup>٢</sup> وما لم يكن مضرا منها فأغلبه مجرد ترف فكري وخيال علمي لا تتوقف عليه المنفعة العملية للبشرية ، ولست انا من يقول ذلك بل ستيفن هوكنج هو من يقول انهم من الناحية العملية مازالوا يعملون بحسب قوانين ميكانيكا نيوتن قبل ٤٠٠ سنة وأن التطور التكنولوجي لم يتوقف على الفيزياء الحديثة : (( على اننا مازلنا نستخدم نظرية نيوتن في كل الاغراض العملية ، لأن الفارق بين تنبؤاتها وتنبؤات النسبية العامة هو فارق صغير جدا في المواقف التي نتناولها عادة ، ونظرية نيوتن ايضا لها ميزتها الكبرى في أن العمل بها ابسط كثيرا من العمل بنظرية اينشتاين ! ))<sup>٣</sup> ولأجل ذلك فإن اينشتاين لم يستحق جائزة نوبل على نظرية النسبية العامة رغم اشتهاره بها ، لأن نوبل اوصى بأمواله للمنجز العلمي الذي تترتب عليه منفعة للبشرية ، وانما استحقاها على تفسيره للظاهرة الكهروضوئية ، رغم انه اعتمد في تفسيره لها على نظرية كم ماكس بلانك التي مات وهو غير مقتنع بها .

١ - المصدر السابق ، الخاتمة ، ص ١٥٣

٢ - المصدر السابق ، الفصل الاول ، ص ٢٣

٣ - المصدر السابق ، الفصل الاول ، ص ٢١

أنا أعلم ان معظم الملاحظة لا يعرفون هذه المعلومات ، ولذلك اخترت لهم شاهدا منهم هو ستيفن هوكنج وإلا فهي ثابتة معروفة في الكثير من المصنفات الغربية في الفيزياء ، حتى يكون ذلك برهانا لتهافت الملاحظة في قضية المبالغة في قداسة العلم ، وبرهانا أن العلم مازال يحبو وكلما قام يكبو . علما اننا نعتز بالعلم الحقيقي النافع وبالعلماء الملتزمين وبالبحوث العلمية الجادة النافعة ، وقد اوضحنا موقف الاسلام في المبحث السابق في دعوى صراع العلم والدين ، ولكن يبقى الاحترام والتقدير والاستفادة شيئا آخر غير القداسة . إن ما جرى في الغرب من فصل العلم عن الدين والاخلاق جعل ضرر العلم أكثر من نفعه ، فصار تدميرا منظما للإنسانية بدل أن يكون في سبيل صيانتها وكمالها الوجودي .

## فرضية الانفجار الكبير

نذكر اولا مقدمة حول فرضية الثقوب السوداء فنقول باختصار : الثقب الاسود هو في الحقيقة عبارة عن نجم له كتلة هائلة ، وقد استنفد معظم وقوده فبرد سطحه مما أدى الى تقلص مادته وانكماشه على نفسه ، وهذا التقلص الشديد يجعل كثافته عظيمة جدا كما يجعل جاذبيته اعظم بحيث لا يستطيع اي شيء يقترب من افق جاذبيته الفرار منه ، حتى الضوء لا يمكنه الفرار منه ولذلك فهو لا يعكس ضوء و لا يبعث ضوء ، ولأجل انه لا يعكس ولا يبعث الضوء فهو لا يمكن رؤيته وانما يبدو وسط الاجرام التي تبعث او تعكس الضوء وكأنه عبارة عن فراغ وثقب اسود ، وهو في الحقيقة ليس بثقب وانما نجم معتم ، والذي اطلق عليه اسم الثقب الاسود مجازا هو الفلكي الامريكي جون هويلر عام (١٩٦٩م) كإعادة تصوير لفرضية قديمة قال بها جون ميتشل عام (١٧٨٣م) وبعده بعدة سنوات قال بها دي لابلاس على نحو مستقل<sup>(١)</sup> . ومادام ما يسمى الثقب الاسود لا يصدر و لا يعكس الضوء ولا يمكن الوصول اليه ، فكيف يمكن التحقق من اثبات وجوده ؟ فليس كل فراغ نراه وسط الاجسام التي تصدر او

(١) راجع : تاريخ موجز للزمان ، الفصل السادس ، ص ٧٨

تعكس الضوء يكون بالضرورة هو النجم المعتم . كان الجواب السائد : لا يمكن التحقق من وجوده مباشرة ، ولكن يمكن استنتاج وجوده بصورة غير مباشرة ، عن طريق ملاحظة وجود شد جاذبية كبير على جسم مرئي من مصدر غير مرئي ، فنستنتج ان ذلك المصدر غير المرئي هو الثقب الاسود ، كما هو المحتمل الآن أن الفراغ في مركز مجرتنا هو ثقب اسود تدور حوله اجرام المجرة ، إلا أنه لم يثبت لحد الآن وجود ثقب اسود مطلقاً<sup>(١)</sup> .

ولكن ستيفن هوكنج له جواب خاص ، خلاصته : إن الثقب الاسود مادام يبتلع كل شيء يقع في حد مجال جاذبيته فإن ذلك سوف يؤدي الى اختلال وفوضى في نظامه الداخلي (( انتروبيا )) وسيفقد من طاقته ليستعيد نظامه حسب قانون الترمو ديناميك الثاني ، ومادام كذلك فلا بد أن تكون هناك حرارة ، وإن كانت هناك حرارة فلا بد أن يكون هناك توهج وبالتالي لا بد انبعث اشعاع كما هو الحال في كل جسم متوهج ، والنتيجة ان الثقوب السوداء ليست سوداء دائماً ، بل ان بعضها له اشعاع له القدرة ان يصل الينا ويمكننا التقاطه ، وعند التقاطه سنكشف وجود الثقب الاسود فعليا ، وقد سمي هذا الاشعاع المفترض (( اشعاع هوكنج )) ، إلا أنه لحد الآن لم يتم التقاط اشعاع هوكنج ، وعليه تظل ظاهرة الثقب الاسود مجرد فرضية علمية . ولكن الذي يهمنا في هذه المقدمة هو أن فكرة اشعاع هوكنج كشفت عن مشكلة تناقض نظرية النسبية العامة لأينشتاين مع قانون الترمو ديناميك الثاني ، فحسب النسبية العامة فإن نجم الثقب الاسود عظيم الجاذبية لا يعرف إلا الجذب فلا يبعث اشعاعا ، وحسب قانون الديناميكا الحرارية الثاني فإنه يجب أن يبعث اشعاعا ، وهذا يعني قصور النسبية العامة وسقوطها في الثقب الاسود . عندها تطلعت فيزياء الكم على اختصاص النسبية العامة وهي اختصاصها فيزياء الجسيمات ما دون الذرة ولا دخل لها بتأثيرات الجاذبية لأن قوة الجاذبية هي اضعف القوى للمادة ، ولا يظهر اثرها إلا بين الاجسام الكبيرة ما فوق الذرة ، تصدت للإجابة فافترضت أن الثقب الأسود ليس أسودا كما هو السائد ، بل ينبغي أن يصدر اشعاعا ، لكن هذا الاشعاع المفترض ينبغي أن يكون صادرا ليس

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل السادس ، ص ٨٨

من ذات النجم المعتم الثقب الاسود بل من طرف افق الحدث ، الذي هو حد مجال الجاذبية الذي لا يمكن تجاوزه . صاحب هذا الافتراض لإشعاع الثقب الأسود هو ستيفن هوكنج ، و قد اطلق على هذا الاشعاع المفترض اسم (( اشعاع هوكنج )) ، فسجلت فيزياء الكم بذلك تأريخ اول انتصار لها في مجال الكونيات ، و لفتت الانظار الى لا بد من التوحيد بين النسبية العامة وفيزياء الكم بنظرية واحدة لتفسير الكون<sup>(١)</sup> .

أما فرضية مفردة الانفجار الكبير التي هي موضوع بحثنا ، فيعود تأريخها الى عام (( ١٩٢٤ م )) عندما برهن عالم الفلك الامريكي ادوين هابل (( توفي ١٩٣٥ م )) على أن مجرتنا ليست الوحيدة كما كان الاعتقاد سائدا منذ عصر غاليليو ، بل هناك الكثير من المجرات ، وقد رصد بنفسه منها تسع مجرات فعلا في ذلك الوقت ، كما برهن في عام (( ١٩٢٩ م )) على التمدد والتوسع الكوني ، حيث رصد أن هذه المجرات ليست ثابتة وانما هي تتحرك مبتعدة عن بعضها البعض ، وأن سرعة ابتعادها تزداد كلما زادت مسافة ابتعادها ووضع معدلا لسرعة التمدد سمي (( ثابت هابل )) ، وقد كان الاعتقاد السائد قبل ذلك هو حالة الثبات الكوني ، ونقصد به عدم تباعد المجرات عن بعضها ، حتى أن اينشتاين عندما صاغ نظريته في النسبية العامة عام (( ١٩١٥ م )) كان يؤمن بثبات الكون ، ورفض أول الأمر ان تكون نظريته في النسبية تدعم فكرة التمدد الكوني لذلك قام بتعديل نظريته وادخل عليها ما سمي (( الثابت الكوني )) ثم أقر بخطئه في ذلك وتراجع ، ولم يتنبأ بالتمدد الكوني قبل اكتشاف هابل سوى الفيزيائي الروسي الكسندر فريدمان عام (( ١٩٢٢ م )) حيث وضع معادلات رياضية للتمدد وفق نظرية النسبية العامة لأينشتاين .

هذا الاكتشاف للمجرات والتمدد الكوني اوحى لعالم الفيزياء والرياضيات والفلك ، القس الكاثوليكي البلجيكي جورج لوميتر عام (( ١٩٢٧ م )) بإطلاق فرضية مفردة الانفجار الكبير ، أي أنه بالتراجع العكسي للتمدد الكوني يلزم أن الكون كان في البداية عبارة عن كتلة واحدة

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل السابع ، ص ٩٣-٩٩

فائقة الكثافة والحرارة (( البذرة الفائقة )) ثم تمددت فجأة لأسباب غير معروفة (١) .

في عام (( ١٩٤٨ م )) طرح جورج غاموف وهو من تلاميذ فريدمان نموذجا معدلا لفرضية مفردة الانفجار الكبير ، حيث افترض أن مادة الكون كلها كانت مضغوطة في كتلة حجمها صفر ، وهي لا متناهية الكثافة ولا متناهية الحرارة ، ثم أخذت بالتمدد السريع بسبب الحرارة اللامتناهية ناثرة جسيماتها الاولية في الفضاء بصورة عشوائية ، ثم بدأت تلك الجسيمات الاولية بالارتطام ببعضها البعض بصورة عشوائية ، مبتدئة بتشكيل ذرات العناصر الخفيفة الهيدروجين ثم الهليوم ثم الليثيوم ثم جزيئات العناصر ثم الاجرام الفلكية ثم المجرات ، وقد تنبأت هذه الفرضية أن حرارة مفردة الانفجار الكبير (( أي المادة الكونية المضغوطة )) كانت لا متناهية ، وهذا يعني أنها لا بد توهجت بشكل لا متناه و لازم ذلك بقاء اشعاعها الى يومنا هذا ، وإن كانت حرارته قد هبطت بشكل كبير ، وبالفعل اكتشف كل من بنزياس و ويلسون عام (( ١٩٦٥ م )) بالصدفة ما سمي (( اشعاع الخلفية الكوني )) وحازا بذلك على جائزة نوبل ، واعتبر اكتشافهما هذا مثبتا قطعيا لفرضية مفردة الانفجار الكبير (٢) .

عارض الكثيرون هذا المفهوم التطوري لوجود الكون الذي تؤيده فرضية مفردة الانفجار الكبير ودعموا نظرية استقرار الحال ، وجادلوا بأن نظرية النسبية العامة لاينشتاين لا تفر ابتداء تشكل الكون الحالي بمفردة الانفجار الكبير ، ومن اولئك الذين عارضوا فرضية الانفجار الكبير بشدة هو عالم الفلك والفيزياء البريطاني فريد هويل (( توفي ٢٠٠١ م )) وهو من الملاحدة ، وقيل أنه أول من أطلق مصطلح (( الانفجار الكبير Big Bang )) خلال مقابلة له في هيئة الإذاعة البريطانية سنة (( ١٩٤٩ م )) بقصد السخرية ، لأن الفرضية بحسب طرح اصحابها لم تقل بحدوث انفجار

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل الثالث ، ص ٤٦

- الموسوعة البريطانية ، مادة (( جورج ليماتر ))

- قصة الفيزياء ، الفصل العشرون ، ص ٣٦٩-٣٧٨

(٢) راجع : تأريخ موجز للزمان ، الفصل الثامن ، ص ١٠٥-١١٠

وانما هي فرض مادة الكون متقلصة لا متناهية الكثافة والحرارة تمددت سريعا . طرح هويل في عام (( ١٩٤٨ م )) فكرة الانتاج المتواصل للمجرات ، وهي تعني أن انزياح المجرات عن بعضها البعض لم يكن بسبب التمدد الكوني الراجع الى فرضية وجود مفردة الانفجار الكبير، وإنما يرجع الى الانشاء المتواصل لمجرات جديدة ، فتقوم بإزاحة المجرة القديمة ، وهذه فكرة جيدة ، ولكن قيل أن اكتشاف اشعاع الخلفية الكوني يعارضها (١) .

ستيفن هوكنج نجم الإلحاد و خبير الفيزياء الكونية (( توفي ٢٠١٨ م )) ، بنى مجده على اساس قيامه في عام (( ١٩٧٠ م )) بتقديم بحث مشترك مع عالم الفيزياء والرياضيات روجر بنروز ، تمكن فيه من البرهنة الرياضية على لزوم ابتداء تشكل الكون الحالي بمفردة الانفجار الكبير ، مدعيا أن فرضية النسبية العامة إن صحت فلا بد من ابتداء الكون بمفردة الانفجار الكبير ، كما استنتج ان نظرية النسبية العامة إن صحت فلا بد من انتهاء الكون أما بمفردات ثقب سوداء تلتهم المجرات أو أن ينتهي الكون بمفردة (( الانسحاق الكبير )) ، أي أن التمدد الكوني سيبلغ مداه بتبدد طاقته فتتباطأ سرعته ومع تباطؤ سرعة التوسع ستتفوق قوة الجذب على قوة الدفع إلى الخارج ، فيؤدي ذلك إلى اندفاع المجرات والمادة و الطاقة نحو مركز مفترض للكون ، فينهار الزمكان و تنحسر الأبعاد و تتجمع مادة الكون في نقطة واحدة لا متناهية في الصغر ، فيعود الكون كما في الحالة الأولى (٢) .

هذه الفرضية خلفت عددا من الأسئلة الكبرى ، منها :

١- ماهي المرحلة التي كانت قبل مرحلة الانفجار الكبير ؟

٢- من أين جاءت مادة مفردة الانفجار الكبير ؟

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل الثالث ، ص ٥٢

- معجم اكسفورد علم الفلك ، مادة (( فريد هويل ))

(٢) راجع : تاريخ موجز للزمن ، الفصل الثالث ، ص ٥٤-٥٥

٣- ما سبب كون مفردة الانفجار الكبير لامتناهية الحرارة في تلك اللحظة ؟

٤- إشعاع الخلفية الكوني القادم من جميع ارجاء الكون والذي اعتبر البرهان القاطع على وقوع حالة الانفجار الكبير ، لماذا كان بدرجة حرارة متقاربة ؟ مع أن فرض التمدد الكوني بالانفجار الكبير يقتضي تناقص درجة حرارة الجسيمات بالتمدد بمرور الوقت .

٥- إن هذه الفرضية تلغي أثر قوة الجاذبية فتناقض النسبية العامة ، فما الذي أدى الى استمرار تمدد الجسيمات بشكل طبيعي بعد انخفاض درجة حرارتها اللامتناهية و حال دون عودتها بالجاذبية الى حالة المفردة الأولى ؟ لأنه نظراً لعظمة كبر الكتلة الأولى المتكونة بالإضافة إلى صغر المسافة بين الجسيمات ، فإن قوى الجاذبية تصبح لا نهائية مما يجعل الكون الناشئ لابد ينكفى على نفسه في لحظة نشأته وينتهي ، فما سبب عدم انكفاء الكون الناشئ على نفسه ثانية وعودته الى التقلص الاول .

٦- إنه لم تتضح بعد الآلية التي حفزت تمدد مفردة الانفجار الكبير ولا يوجد تفسير محدد لكيفية توقفه.

٧- لماذا يكون الكون الآن متناسقا تناسقا عظيما مع كونه ابتداءً بشكل عشوائي ؟

٨- لماذا ابتداءً كوننا بهذا الطريقة دون غيرها ، بل لماذا كان هناك كون أصلاً ؟

٩- في النهاية من مد المادة ونفخ فيها الحياة ومن طوق الطاقة ومن قنن قوانينهما ؟

يقر ستيفن هوكنج بعجزه وعجز جميع قوانين العلم عن اعطاء اجابة علمية صحيحة عن هذه الاسئلة ، فمرة يستعين بالمغالطة فيقول : مهما كان قبل مرحلة مفردة الانفجار الكبير فإنه لا تأثير له على مرحلة ما بعد

الانفجار الكبير ، وبالتالي دعونا نمسح من سجل تاريخ الكون مرحلة ما قبل الانفجار الكبير ونقول : إن الزمن ابتداء بالانفجار الكبير فلا يصح السؤال (( ماذا قبل ... ؟ )) لأن كلمة (( قبل )) تعني الزمان ولا يوجد زمان قبل الانفجار الكبير ! ومرة يجيب باحتمال الصدفة والعشوائية التي تزعم أن الزمكان ازلي غير متناه ولكنه كان في حالة فوضى عارمة لزمن طويل ، ثم صدفة وبصورة عشوائية ترتب بالشكل الذي ابدع تصميمه الحالي العظيم ! ومرة يلقي القصور على قوانين العلم فيقول : إن نظرية النسبية العامة لأينشتاين أقصى ما تتنبأ به هو حتمية وجود مفردة الانفجار الكبير ، وحيث ان مفردة الانفجار الكبير لا متناهية من حيث الكتلة والكثافة والحرارة والجاذبية ، فإن النسبية العامة وجميع قوانين العلم تنهار عندها ، لأن النسبية العامة وقوانين العلم موضوعة لدراسة الاجسام والخواص المحدودة .

ولكن ستيفن هوكنج رائد فرضية مفردة الانفجار الكبير عجز في النهاية عن خداع نفسه والناس ، فلا معنى لأن نغمض اعيننا ونسكر عقولنا ونقول (( إن الزمان ابتداء بالانفجار الكبير فلا يصح أن تسأل عما قبله )) ، كما أن الزمان لو كان غير متناه وأن المادة كانت في حالة اضطراب عشوائية ثم صدفة تنسقت ، فإن هذا الأمر يشبه حشدا من القروذ يضرب على آلة كاتبة ثم صدفة ابدع كتابا رائعا بمنتهى الدقة ، إن احتمال حدوث ذلك يتجاوز عمر الكون بما لا يحتمل ، كما أن حالة العشوائية لو كانت موجودة لتسببت في احداث ثقب سوداء اكثر من المتوقع ، وبما أنه لحد الآن لم يكتشف حقيقة اي ثقب اسود فإن هذا يوهن نظرية العشوائية ويدعم نظرية القصدية والتصميم الذكي ، كما أن أفضل النماذج التي اقترحت لتعديل فرضية مفردة الانفجار الكبير هو نموذج فرضية (( التضخم والانتفاخ الكوني )) ، هذه الفرضية اقترحها عالم الفيزياء آلان جوث عام ( ١٩٨١ م ) لحل مشكلة تناسب حرارة اشعاع الخلفية ، أي لماذا كان بدرجة حرارة متقاربة مع أن فرض التمدد الكوني بالانفجار الكبير يقتضي تناقص درجة حرارة الجسيمات بالتمدد بمرور الوقت ؟ ولتفسير كيفية حصول التحول الفجائي من تمدد مفردة الانفجار الكبير (( المادة

المضغوطة لا نهائية الكثافة )) الى حالة التمدد الطبيعي والتوسع الكوني الملحوظ الآن ، حيث تقترح هذه الفرضية مرحلة زمنية قصيرة جدا بمقدار كسر الثانية تضخمت المفردة فيها تضخماً هائلاً جداً بمقدار يكفي للتغلب على قوة الجاذبية ويسمح للجسيمات بالعمل على نشأة الكون ، هذا النموذج المقترح كما يقول ستيفن هوكنج لا يحل جميع المشاكل ولا يجيب عن السبب في أن الشكل البدائي للكون لماذا لم يكن بحيث ينتج كونا غير الذي نشأه ، أما نظرية النسبية العامة فقد اثبتت قصورها في تفسير امكان انبعاث الاشعاع من الثقب الاسود بينما نجحت نظريات فيزياء الجسيمات (( الكوانتم )) في ذلك ، وبما أن حالة مفردة الانفجار الكبير فيها شبه من حالة اشعاع الثقب الاسود ، فهي عبارة عن حالة انتشار جسيمات المادة دون الذرية وتغلبها على القوى الكهرومغناطيسية والقوى النووية المتحكمة في الجسيمات دون الذرية ، فهذا يعني كما يرى ستيفن هوكنج امكان الاستعانة بفيزياء الكم في فهم الحالة البدائية للكون ولكن بشرط أن يعاد صياغتها بشكل يراعي قوة الجاذبية ، لأن قوة الجاذبية هي المتحكم الاكبر في الجسيمات في الحالة البدائية للكون ، وإن كانت لا يلحظ لها تأثير على الجسيمات في الحالة المتطورة للكون<sup>(١)</sup> .

هذه الاسئلة الكبرى والمشاكل العظمية التي واجهتها فرضية وجود مفردة الانفجار الكبير دعت رائد الفرضية ، ونجم الالحاد المعاصر ستيفن هوكنج ، والذي بنى مجده على اساس حسم البرهان النظري على وجود مفردة الانفجار الكبير ، دعت الى التراجع عن الفرضية ، يقول : (( وهكذا فإن عملنا اصبح في النهاية مقبولا بصورة عامة ، واصبح كل فرد تقريبا في يومنا هذا يفترض أن الكون قد بدأ بمفردة انفجار كبير . ولعل مما يثير السخرية أنني وقد غيرت رأبي ، فإني احاول الآن اقناع الفيزيائيين الآخرين بأنه لم يكن هناك في الحقيقة مفردة عند بدء الكون ، وكما سنرى

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل الثامن ، ص ١٠٩-١١٩

فيما يلي ، فإن المفردة يمكن أن تختفي ما أن تؤخذ تأثيرات الكم في الحساب ))<sup>١</sup> .

إن هذا اعتراف خطير ومهزلة كبيرة ، إن ستيفن هوكنج يعترف أنه قد أوقع عقول الوسط العلمي بعمومه ، وعمامة الناس ، في أعظم اكذوبة كونية ، إنه يسخر ممن لا يزال مصدقا خدعة مفردة الانفجار الكبير ، والاشد سخرية أن مؤسسات الإلحاد العالمي رغم اعلان موت فرضية مفردة الانفجار الكبير ما تزال تروج للإلحاد باسم ستيفن هوكنج والانفجار الكبير ، بدعوى أنه يبطل نظرية القصدية والتصميم العظيم لوجود الكون وينفي احتياج الكون الى خالق حكيم عليم ، وما تزال تروج لمقطع الفيديو الذي يقول فيه : (( لا تقل ماذا كان قبل الانفجار الكبير ، اصل السؤال خطأ ، لأن السؤال بكلمة (( قبل )) يعني السؤال عن الزمان ، والزمان ابتداء بالانفجار الكبير فلا زمان قبل الانفجار الكبير ، ولذا حين يسألني الناس إن كان الكون مخلوقا من قبل إله ، أقول لهم السؤال غير منطقي فمادام الزمن لم يكن موجودا قبل بالانفجار العظيم لذلك لا يوجد وقت لإله ما ليصنع كونا )) فهو في كتابه (( تاريخ موجز للزمان )) ينص على وجود أزمنة وأحداث قبل لحظة انفجار مفردة الانفجار الكبير ، ولكنه يقول أنه عند لحظة مفردة الانفجار الكبير تنهار كل قوانين العلم ، ونكون في جهل مطبق عن معرفة تلك الأزمنة والاحداث ، ولذلك من باب التسامح اللفظي يمكن القول - مجازا - أن الزمن قد ابتداء بالانفجار الكبير ، يقول : (( ويمكن للمرء أن يقول إن الزمان له بداية عند الانفجار الكبير ، بمعنى أن الأزمنة السابقة عليه هي ببساطة مما لا يمكن أن يعرف ))<sup>٢</sup> هذا في الكتاب الذي يعلم اطلاع العلماء عليه ، فيخجل من وصفه بالخيانة العلمية أو الجهل ، ولكنه للإعلام الالهادي الموجه لخداع البسطاء الذين لا يقرؤون الكتب عادة ، يقول بضرس قاطع أنه لا يوجد زمن قبل الانفجار الكبير ، ويستدل بذلك على عدم منطقية السؤال عن وجود خالق عليم حكيم . واليوم بعد أن تراجع عن فرضية وجود مفردة الانفجار لبدء الكون ))

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، الفصل الثالث ، ص ٥٥

<sup>٢</sup> - المصدر السابق ، الفصل الاول ، ص ٢٠

أي تركز كل مادة الكون في نقطة )) ورجح أن المادة الازلية اللا نهائية  
زمانا ومكانا لا تحتاج أن تكون مضغوطة ، ثم تتضخم وتتمدد لبدء انتاج  
الكون بل يكفي تموج منطقة منها ، فإن الاعلام الالاحادي لا يزال متمسكا  
بذلك المقطع ، لماذا ؟ هروبا من السؤال القاتل للإلحاد ، من قنن القوانين  
المادة ؟

أما فيزياء الكم التي تم الاستنجد بها لتفسير الحالة البدائية للكون فهي  
تقترح حسب افتراض ستيفن هوكنج وزميله جيم هارتل أن الزمكان ممكن  
أن يكون متناهيا من حيث الحجم ولكن لا بداية له ولا نهاية في الزمكان  
وإنما هو موجود هكذا وحسب ، وبالتالي لا حاجة لافتراض حد له بمفرده  
الانفجار الكبير ، التي تعجز قوانين العلم عن تفسير سلوكها السيء كما  
يقول واعطاء سبب مقنع لابتداء الكون بهذه الطريقة دون غيرها ، كما  
تقترح أن الكون يجب أن يكون بدأ بدرجة عالية من التناسق والنظام ثم  
يتسارع الى الاضطراب والفساد بمرور الزمن<sup>(١)</sup> .

لكن فيزياء الكم تعجز عن اعطاء اجابات محددة ، لأنها مرهونة بمبدأ  
الريبة وعدم اليقين لهايزنبرج وهذا هو مقتلها ، كما انها تعجز عن التفسير  
دون الاستعانة بقوانين اينشتاين في النسبية العامة ، وكما صرح ستيفن  
هوكنج : (( أنه لسوء الحظ ، من المعروف أن هاتين النظريتين لا تتوافق  
احدهما مع الاخرى ، فلا يمكن أن تكون كلاهما صحيحة ))<sup>٢</sup> . وبالنسبة  
لمشكلة مبدأ عدم اليقين فقد تخلصوا من المؤاخذة ونبذوا حتمية لابلاس ،  
التي طالما تبجحوا بها ، بأن غيروا وظيفة العلم فقالوا إن وظيفة العلم هي  
محاولة اعطاء افضل الاجابات الممكنة (( والواقع اننا اعدنا تحديد مهمة  
العلم لتصبح اكتشاف القوانين التي تمكننا من التنبؤ بالأحداث في الحدود  
التي يفرضها مبدأ عدم اليقين ، على أن السؤال يظل باقيا : كيف او لماذا  
تم اختيار قوانين الكون وحالته الابتدائية ؟ ))<sup>٣</sup> ، أعادوا تحديد مهمة العلم  
كما يقول وحصرها باكتشاف القوانين الاحتمالية التقريبية الظنية ومع

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل الثامن ، ص ١٢١-١٣٣

٢ - المصدر السابق ، الفصل الاول ، ص ٢٢

٣ - المصدر السابق ، الختام ، ص ١٤٩

ذلك يقر بعدم الخلاص من مطاردة سؤال (( من قنن تلك القوانين وصممها بتلك الكيفية ؟ )) .

وأما بالنسبة لمشكلة قصور فيزياء الكم عن العمل في مجال الكونيات ، فقد نادوا بضرورة البحث عن النظرية الكاملة التي توحد بين فيزياء الكم والنسبية العامة ، اي التي تجمع بين الكم والجاذبية ، ومنذ سبعينات القرن العشرين أي ما يقرب من خمسين سنة الى يومنا هذا يتم البحث عن النظرية الكاملة الموحدة ولم يتم العثور عليها ، لا توجد إلا فرضيات بائسة تسقطها اخرى يائسة ، وافضل تلك الفرضيات بحسب زعمهم تلك التي سميت (( نظرية الاوتار الفائقة )) ، وأصل فكرة الوتر تعود الى ((عام ١٩٧٤ م)) حيث نشر جويل شيرك و جون شوارتز بحثا اقترحا فيه أن فكرة الوتر يمكن أن توحد الفيزياء ، ثم مرت هذه الفكرة بعدة مراحل تطوير ، لسنا بحاجة لسردها ، حتى وصلت الى ما سمي (( نظرية الاوتار الفائقة )) ، وهي فرضية تقترح تكون نسيج المادة من خيوط طاقة ذات بعد واحد هو الطول ، ففي نظرية الأوتار الفائقة لا وجود لأية جسيمات أولية (كالإلكترونات والكواركات ) ، بل كل ما هو موجود عبارة عن خيوط طاقة ذات بعد واحد ، بالغة الدقة تسمى أوتار الطاقة ، وهي تهتز بكيفيات متعددة بحيث يوافق كل وضع اهتزاز خواص الجسيم كالشحنة والكتلة ، فما كان سابقا يظن أنه جسيم يتحرك ، يكون في نظرية الاوتار عبارة عن موجة تحمل خواص الجسيم (( عودة معضلة اينشتاين )) تنتقل عبر الوتر كما تنتقل النغمة الخاصة من اهتزاز خاص للوتر في الآلة الموسيقية الوترية ، وما كان يظن أنه انبعاث جسيم او امتصاص جسيم يصور في نظرية الاوتار أنه انقسام أو انضمام اوتار طاقة ، وكما تلغي هذه الفرضية خصوصية الجسيمات ، فإنها تلغي تبعا لذلك خصوصيات القوى الاربعة المعروفة التي تتحكم في المادة ( الجاذبية والكهرومغناطيسية والنووية الشديدة والنووية الضعيفة ) وبذلك يتم التخلص من قانون الجاذبية المرعب لفيزياء الكم . كما تقترح هذه الفرضية تعدد وتسلسل الأبعاد للمادة حتى تستقيم رياضيا ، فالعالم يتكون من ١١ أو ١٠ أبعاد متسلسلة وهي الابعاد الاربعة المحسوسة التي هي

الطول والعرض والارتفاع والزمان ، مع ستة أو سبعة ابعاد خفية مفترضة ملتفة عند المستوى الميكروسكوبي لا يمكن ادراكها . هذه الفرضية - كما يعترف الخبراء - مليئة بالاقتراحات واللانهائيات وهي أشبه بقصص الخيال العلمي كما يقول ستيفن هوكنج نفسه ، ولا تعطي جوابا واقعيا على اقتراحاتها ، مثلا ما الذي استدعى أن تكون الابعاد المحسوسة للمادة اربعة ابعاد فقط لا أقل ولا أكثر؟ كما أنها لم تكتمل صياغتها رياضيا لحد الآن ، رغم عمل مئات العلماء عليها منذ عقود ، وإن اكتملت صياغتها رياضيا فالتحقق من صحة معادلاتها الطويلة والمعقدة يتطلب جهدا كبيرا ووقتا طويلا ، مع وجود احتمال كبير للخطأ عند المراجعة ، وإن ثبتت صحتها رياضيا فلا يمكن استفادة استنتاجات منها بسهولة لشدة تعقيدها ، كما انها مرهونة بقيد مبدأ عدم اليقين الذي لا خلاص منه ، أما مشكلة البرهان عليها بالمشاهدة والتجربة فهذه مشكلة كبرى<sup>(١)</sup> .

ولأجل الكثير من المشاكل التي تواجهها فرضية الاوتار الفائقة ، ولأجل اليأس من ترقيعها ، فقد نبذها اكبر عباقرة الفيزياء والرياضيات في الغرب ، فهذا عالم الفيزياء والرياضيات البريطاني روجر بنروز الذي اكتسب شهرته العالمية بسبب اشتراكه مع ستيفن هوكنج في تقديم البرهان الرياضي الحاسم - بحسب زعمهم آنذاك - على حتمية وجود مفردة انفجار كبير لنشوء الكون ، وبسبب جهوده في مجال فرضية الثقوب السوداء ، عاد منتصرا لحتمية و واقعية آينشتاين ليطعن في الاصول التي قامت عليها فيزياء الكم يعني عاد الى (( معضلة اينشتاين )) ، وهذا عالم الفيزياء الهولندي جيرارد هوفت الحاصل على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٩٩ م بسبب جهوده في فيزياء الكم وفرضية الاوتار ، أعلن بطلان فرضية الاوتار بل خطأ فيزياء الكم ، واوحت افكاره الثورية الى جان مالداسينا بإطلاق فرضية ثورية جديدة عام ١٩٩٧م في وصف الكون ،

(١) راجع : المصدر السابق ، الفصل العاشر ، ص١٣٦-١٤٦

- مشكلة الفيزياء ، المقدمة ، ص٢٣-٢٧

- الموسوعة البريطانية ، مادة (( نظرية الاوتار ))

هي فرضية (( الكون الهولوكراف )) استنادا الى مبدأ الهولوكراف اي الصور المجسمة أو الاجسام الشبحية ، والهولوكراف هو تقنية باستخدام اشعة الليزر تظهر الصور ثنائية الابعاد وكأنها ثلاثية الابعاد في الفراغ ، وفرضية مالداسينا هذه تقترح أنه ربما كان الكون مسطحا ثنائي الابعاد ولكنه يبدو لنا وكأنه ثلاثي الابعاد . في مقابل ذلك هناك قائمة طويلة من عباقره الفيزياء تطعن في فيزياء النسبية العامة لأينشتاين وتدعو الى مراجعة اصولها ، وهناك من طعن في الاثنين أي فيزياء الكم وفيزياء النسبية العامة مثل هولجر نيلسن الذي كان احد مبتكري فرضية الاوتار فتخلى عن جميع قوانين الفيزياء ، وتمسك بفكرة الديناميكا العشوائية ، حيث أعتقد أن الافتراض الافضل الذي يمكن تقديمه حول قوانين الفيزياء في النسبية والكم هو اعتبارها عشوائية . ولأجل كل هذا التهافت وهذه الفوضى التي تشهدها الفيزياء منذ عقود أطلق لي سمولن في كتابه (( مشكلة الفيزياء )) صرخة استغاثة لإنقاذ الفيزياء من كل هذا التهريج باسم العلم ، ودعا الى ضرورة العودة لمراجعة اساسيات مبادئ الفيزياء<sup>(١)</sup> .

### من الانفجار الكبير الى لا شيء

لورانس كراوس خبير الفيزياء الكونية الامريكي ومدير (( مشروع الاصول )) الباحث عن اصل الكون والحياة ، هو من ابرز زعماء ونجوم الالحاد المعاصر ، حيث يتخذ هو وريتشارد دوكنز الالحاد رسالة يبشرون بها على مستوى العالم .

تصدى لورانس كراوس في كتابه (( كون من لا شيء : لماذا هناك شيء ما بدلا عن لا شيء )) للإجابة عن السؤال القاتل للالحاد : من مدد المادة ومن نفخ فيها الحياة ومن طوق الطاقة ومن قنن القوانين ؟؟؟؟ فكانت اجابته هي : أن الكون مخلوق من لا شيء ! وقد اعتمد في جوابه على فرضية ((التضخم الانتفاخي)) التي وضعها آلان جوث لترقيع مشاكل فرضية مفردة الانفجار الكبير ، والمعدلة بفرضية التضخم الفوضوي أو

(١) راجع : مشكلة الفيزياء ، الجزء الرابع ، الفصل الثامن عشر ، ص ٥٢١-٥٢٨

الانتفاخ الشواشي التي وضعها اندري لند ، وعلى فرضية وجود الطاقة والمادة المظلمة أي مجهولة الهوية وغير المدركة ، التي اوحى بوجودها عالمة الفلك فيرا روبن في سبعينات القرن العشرين ، عندما رصدت أن النجوم الأبعد في مجرتنا عن مركز المجرة تتحرك بسرعة أكبر مما تقتضي كتلة المجرة ، مما يفترض وجود كتلة أكبر غير مرئية تهيمن على المجرة ، وعلى فرضية الحقل الكمومي المضطرب التي اقترحت لحل معضلة أينشتاين (( ازدواجية الموجة - الجسيم )) لتفسير التأثيرات الخفية وتوحيد قوى المادة الاربعة (( الجاذبية والكهرومغناطيسية والنوية الشديدة والنوية الضعيفة )) فزعمت أن فضاء الذرة ليس فارغا تماما كما كان يعتقد ، بل هو عبارة عن حقل ومجال مخزن بالطاقة ، وهو حقل ومجال متقلب مضطرب متذبذب ، وبسبب تقلبه واضطرابه وتذبذبه تنبثق كمات من الطاقة ، تكتسب خواص الجسيم لفترة قصيرة جدا فتنتقل تأثيرات القوى الاربعة وتختفي بسرعة فائقة بحيث لا يمكن رصدها .

فلم يأت لورانس كراوس بشيء سوى الخزي للملاحظة كما اعترف الكثير منهم بذلك ، حيث أكثر في كتابه من التهريج الاحادي والمكر والكذب والتلاعب بالألفاظ ، وخلاصة جوابه كما لخصه في الفصل التاسع من كتابه : أن حقل الطاقة الكوني المتذبذب باستمرار قد تموج في لحظة ما بشدة عظيمة في بقعة منه شديدة الصغر ، فتضخمت تلك البقعة في كسر من الثانية بشكل هائل ، ثم انتهى التضخم الفجائي القصير ، فأنتج جسيمات المادة المعروفة لنا المشحونة بطاقة كلية ، والتي يلزم أن يكون مقدارها صفرا ، لمنع الانجذاب والانكماش والامتصاص والعودة الى حالة ما قبل التضخم ، كما انتج هذا التضخم الكمي ايضا اعداد الجسيمات المخالفة لها في الشحنة والتي اشتبكت معها في اصطدامات مروعة حتى أفنى بعضهن بعضا مطلقا اشعاع الخلفية الذي تم رصده ، ولكن من باب الصدفة وحسن الحظ !! كان عدد الجسيمات المعروفة لنا أكثر بقليل من الجسيمات المضادة فلم يكن هناك تناظر وتمائل تام بين المادة والمادة المضادة ، فبقيت الجسيمات المعروفة لنا بعد صراع الجسيمات ، وبالتحديد يجب أن يكون المتبقي هو بنسبة واحد من مليار ، ليلائم قياس

اشعاع الخلفية المرصود ، وهذه الجسيمات القليلة جدا المتبقية هي التي تفاعلت و عملت على تكوين وتشكيل كوننا المرئي ، وما زالت هذه الطاقة والمادة المعتمدة غير المدركة التي تموج جزء منها فأنشأ الكون ، ما زالت تهيمن على كوننا المحسوس وتدفع المجرات الى التسارع في التمدد والانزياح عن بعضها بعضا في كون متسطح متمددا الى الأبد ، فهي تشكل نسبة ٩٩٪ من المادة والطاقة الكلية في كوننا<sup>(١)</sup> .

نقول : ولكن بحر أو حقل الطاقة هذا هو وجود وهو شيء ، بل شيء عظيم فكيف تقول (( من لا شيء )) ؟ يجب بمكر أنه كان يقصد الفراغ والعدم الكمومي أي ((عدم المادة المرصودة المدركة )) ولا يقصد العدم المطلق الصفري ولكن الناس هي من أساءت الفهم ! أما ما هي حقيقة الطاقة والمادة الخفية أو كما يسميها طاقة الفراغ ؟ يجب : بأنه لم تتم معرفة هويتها لحد الآن لأنها غير مدركة (( اكتشفنا أن ٩٩ من المائة من الكون غير مرئي بالنسبة لنا فعليا ويتكون من مادة معتمدة هي على الأرجح شكل جديد من الجسيمات الأولية ، بل وحتى الطاقة المعتمدة الذي لا يزال أصلها لغزا كاملا في الوقت الحالي ))<sup>٢</sup> ! أما كيف أن الطاقة تستحيل الى مادة فلا تقل كيف ، لأنه في فيزياء الكم التي ما زالت حائرة في معضلة أينشتاين (( ازدواجية الموجة - الجسيم )) يكون كل احتمال هو معقول ، فمن الممكن ان تتحول الطاقة الى مادة وفق قوانين فيزياء الكم الاحتمالية من جسيمات افتراضية كامنة فيها دون معرفة الكيفية ، ولأن الجدل ما زال دائرا حول معرفة هوية الطاقة المحسوسة في المستوى ما دون الذرة فما بالك بالطاقة الكونية غير المدركة ، يقول : (( إن أحد جوانب المشكلة هي أنه اتضح لنا أن الطاقة التي نعرفها في مجالات أخرى في الفيزياء ليست مفهوما واضح التعريف على وجه الخصوص على سلم المقاييس الضخمة في الكون المنحني ... و بالإضافة الى ذلك إذا كنا بصدد تعريف الطاقة الكلية التي يحتويها الكون ، فلا بد أن نأخذ في اعتبارنا كيف

(١) راجع : كون من لا شيء ، لورانس كراوس ، الفصل التاسع ، ص ١٨٣-١٩٥

<sup>٢</sup> - المصدر السابق ، الفصل الثامن ، ص ١٨٠

نضيف الطاقة التي يمكن أن تكون لا متناهية مكانيا في الكون ))<sup>١</sup> هنا ينسد باب العلم وهنا مقتل الغرور البشري وهنا مقتل الاحاد . ولكن مع ذلك من أخبركم بأن طاقة الفراغ قد انتجت جسيمات مضادة أصلا مع الجسيمات المعروفة لنا فأوقعت مجزرة الصراع الكمومي من أجل البقاء ؟ يقول : (( ينقصنا حاليا وصف نهائي لكيفية حدوث هذه العملية في الكون المبكر ، لأننا لم نضع بعد وصفا كاملا وامبريقيا للطبيعة التفصيلية للعالم المايكروفيزيقي ))<sup>٢</sup> . وإذا كنت لا تدرك حقيقة الطاقة المعتمدة ، ولا تدرك كيفية استحالة الطاقة الى مادة ، ولا دليل امبريقي عندك على انتاج جسيمات مضادة ، فكيف حكمت أن كوننا هو نتاج تموج كمومي في طاقة الفراغ بهذا السيناريو؟ يقول أنه لا يجزم ولكن يرجح لأن (( أن هناك رأيا تتزايد قوته بين علماء الكون مجددا مؤداه : لو أنه يمشي مثل البطة ويبدو مثل البطة ويبطبط مثل البطة ، فهو على الأرجح بطة))<sup>٣</sup> أنعم وأكرم بالبطة الكونية لعلماء الكون ، وربما انت تفتري عليهم بالتعميم ! ولكن قولك (( هو على الأرجح بطة )) لا يعفيك أنت وأصحاب البطة من الملاحقة القانونية فأنت (( ترجح )) كما تقول أن الكون ممكن أن يقوم بذاته بلا حاجة الى خالق عليم حكيم له هدف وغاية من الخلق ، فمن طوق الطاقة أي من أتت كل طاقة الوجود الموجود ؟ فبالنتيجة انت مجبر منطقيا - إن كنت سليم العقل - ان سلسلة علل الوجود لا بد ان تنتهي الى علة واحدة مطلقة أزلية غير مسبوقة بعدم ، لأن تسلسل العلل الى ما لانهاية ممتنع عقلا ، يجيب : (( إنه لو تبني الشخص منظور أن الله علة العلل وبالتالي أبدي ، حتى لو لم يكن هذا حال كوننا ، فسوف تنتهي فعليا لسلسلة الرد بالمحال لسؤال (( لماذا )) .... حيث أن الضرورة المنطقية الواضحة للعلة الاولى هي مسألة حقيقية لأي كون له بداية ، لذلك فإنه على اساس المنطق وحده لا يستطيع الشخص أن يستثني رؤية لاهوتية للطبيعة ..... إن الاجابة البسيطة وهي بالطبع : إن الفضاء الفارغ (( طاقة الوجود )) أو اللا شيء الجوهرية الذي يمكن أن يكون انبثق منه الفضاء الفارغ ،

١ - المصدر السابق ، الفصل العاشر ، ص ٢١٢

٢ - المصدر السابق ، الفصل العاشر ، ص ٢٠٣

٣ - المصدر السابق ، الفصل السادس ، ص ١٣٥

موجود مسبقا وأبدي ))<sup>١</sup> جيد جدا انك تقر بالضرورة المنطقية ولم تطلب عليها دليلا امبريقيا ، وهذا انتصار للمنطق التجريدي على المنطق الامبريقي (( التجربة والمشاهدة )) ، ولكنك مع ذلك ترجح احتمال ان تكون هذه العلة الازلية هي الطاقة مجهولة الهوية والخواص ، أي ترجح أزلية الطاقة ، وهذا لا يعفك من المسئلة المنطقية ما دمت تكلمت بالمنطق ، وهنا تأتي الضربة القاضية القاتلة للإلحاد ، من قنن قوانين الطاقة ؟ أي أن القوانين هي ليست شيئا معلقا في الفراغ الكمومي المفترض ، بل هي نظام كينونة الشيء الموجود التي تعمل في الوجود ، فما الذي صمم النظام الوجودي العظيم للطاقة الازلية بحيث حتمت انتاج الكون ، في لحظة خاصة ، بكيفية خاصة ، بشكل خاص ، بهذا التصميم العظيم ، بحيث لو كان هناك أدنى تغيير في الحد الحرج لقوانين الطاقة لما وجد كوننا ولما استطاع انتاجنا ولما دام ولا دمنا ، هذا التصميم الذي ينبغي أن يكون علماء الفيزياء هم اعلم الناس بعظمة تصميمه ، من قنن قوانين الطاقة الازلية التي حتمت وجوده ؟ وكما عبر عن ذلك ستيفن هوكنج نفسه فقال : (( وحتى لو لم يكن من المحتمل إلا نظرية موحدة واحدة ، فإنها مجرد مجموعة من القواعد والمعادلات ، ما الذي ينفث النيران داخل المعادلات ويجعل لها كونا تصفه ، إن التناول العلمي المعتاد عن طريق بناء نموذج رياضي ، لا يستطيع الاجابة عن الاسئلة عن السبب في أنه ينبغي أن يوجد كون يصفه النموذج ، ما الذي يجعل الكون يكابد مشقة وجوده ؟ ))<sup>٢</sup> يجب لورانس كراوس بأنه ربما لا توجد لكوننا حالة متفردة وعظمة خاصة ، فربما كان كوننا واحدا من عدد غير متناه من الاكوان التي انبثقت من الطاقة الازلية والتموج الكمومي ، بصورة عشوائية اعتباطية وبدون أن يكون للطاقة الازلية أي نظام قانوني أصلا حتم وجود كوننا بهذا التصميم ، وإنما بالصدفة العشوائية من مليارات الاكوان ، ربما ظهر كوننا بهذا التصميم الذي تمكن معه من الدوام ومن انتاجنا ، لأنه (( لو أن قوانين الطبيعة في حد ذاتها عشوائية واعتباطية ،

١ - المصدر السابق ، الفصل الحادي عشر ، ص ٢٢٠

٢ - تاريخ موجز للزمن ، ختام الكتاب ، ص ١٥٠

فلا مكان اذن لعلة إلزامية لكوننا .... لا ضرورة لوجود آلية وكيونة لترسيخ قوانين الطبيعة بالكيفية التي نعرفه بها ((<sup>١</sup> سبحان الله ! انتكس على عقله وعلمه وكل فرضياته التي زعمها امبريقية ، ولم يأت بشيء جديد فقد انتكس قبله استاذة ستيفن هوكنج الذي بعد أن اعترف بعظمة التصميم الكوني بشرح مستفيض معتذرا بعجزه عن بيانها ، وأنها تحتم بالجبر المنطقي وجود الخالق العليم الحكيم ، فإنه سقط بالضربة القاضية على الإلحاد (( من قنن القوانين ؟ )) فلاذ بالعشوائية وحشد القروود فقال : (( يبدو أن كوننا وقوانينه كلاهما مصممان على يد خياط ماهر لدعم وجودنا ، إن كان يجب وجودنا ، مما يترك مجالا ضئيلا لتعديلها . ليس من السهل شرح ذلك ، وهو ما يطرح السؤال الطبيعي عن لماذا يكون الكون بهذه الطريقة ؟ ..... الاكتشاف الحديث نسبيا للضبط الدقيق الفائق للعديد من قوانين الطبيعة ، قد يؤدي لأن يعود بعضنا على الأقل للفكرة القديمة بأن هذا التصميم العظيم هو من عمل بعض المصممين العظام .... ليست تلك إجابة العلم الحديث .... إن الضبط الدقيق في قوانين الطبيعة يمكن تفسيره بوجود الاكوان المتعددة ))<sup>٢</sup> فعاد في كتابه (( التصميم العظيم )) الى التمسك بحشد القروود الذي سخر منه في كتابه (( تأريخ موجز للزمن )) حيث قال هناك : (( ولو كان الكون حقا لا متناهي في المكان ، أو لو كان ثمة أكوان كثيرة بما لا نهاية له ، فسيكون هناك فيما يحتمل بعض مناطق كبيرة في مكان ما قد بدأت بأسلوب مستو متسق . والأمر يشبه نوعا حشد القروود المشهور الذي يدق على آلات كاتبة ، فسيكون معظم ما يكتبونه هراء ، ولكنهم في احوال نادرة جدا وبالصدفة المحضة سيطبعون إحدى سونات شكسبير ))<sup>٣</sup> .

وكان الملحد كالمجرم لا يتمكن من الفرار من المساءلة القانونية إلا بادعاء الجنون ، وأي جنون اعظم من جحود عالم فيزياء الكون للتصميم العظيم للنظام الكوني ، أو ايكال مهمة خلق هذا الكون لحشد القروود !!! إن

<sup>١</sup> - كون من لا شيء ، الفصل الحادي عشر ، ص ٢٢٣

<sup>٢</sup> - التصميم العظيم ، ستيفن هوكنج ، الفصل السابع ، ص ١٩٥ - ١٩٨

<sup>٣</sup> - تأريخ موجز للزمن ، ستيفن هوكنج ، الفصل الثامن ، ص ١١١

احتمالية ظهور كون عظيم التصميم بالصدفة من مليارات الاكوان الفوضوية ، هو احتمال بنسبة واحد الى مئات التريليونات فهل هذا قول عاقل رشيد ؟ يقول (( يمكن تفسيره بوجود الاكوان المتعددة )) التي لا دليل امبريقي عليها ! هل هذا هو العلم الذي تتبجحون به ؟ هل هذه هي النظرية التي تخدعون بها الناس وتروجون بها للإلحاد ؟ يجيب لورانس كراوس : (( في الحقيقة قد لا توجد أي نظرية اساسية على الاطلاق ، على الرغم من أنني اصبحت فيزيائياً لأنني تمنيت وجود مثل هذه النظرية ، ولأنني أملت في أن اساعد يوماً ما في المساهمة في اكتشافها ، ربما كان أملاً في غير موضعه ، كما بكيت عليه تماماً ))<sup>١</sup> . ابكٍ ولا عزاء للملاحدة في كون ربما كان بطة ، خلقها ربما حشد من القروود ، في ربما زمان غير متناه . ولكن ما دمت قد اصبت باليأس والاحباط و أقررت بالفشل الذريع في بحثك الفيزيائي عن أصل الكون ، فلماذا رجحت فرضية (( البطة وحشد القروود )) على عقيدة الله الخالق العظيم العليم القدير الحكيم الذي ارسل الانبياء بالحق هدى ورحمة للعالمين ؟ وانت قلت انه على اساس المنطق وحده لا يستطيع الشخص أن يستثني رؤية لاهوتية للطبيعة ، يجيب : (( فإن العلم لا يتوافق مع كل المذاهب الصارمة لكل أديان العالم الرئيسية بما يشمل المسيحية واليهودية والاسلام ... لقد كتب هذه المذاهب اشخاص لم يعرفوا كيف يسير العالم ))<sup>٢</sup> ولكن هل عرفتم انتم كيف يسير العالم ؟ انت تقر بفشلكم الذريع وجهلكم وخيبة آمالكم ، بل انتم بفرضية البطة وحشد القروود التي اسقطت وجود ثوابت قانونية لمعرفة كيف يسير العالم تعترفون بأنكم قد نسفتم وظيفة علم الفيزياء الكونية في وصف الكون ، ونسفتم جهود كل علماء الفيزياء ، وهذا ما لا نقبله نحن الذين تتهموننا بأننا ضد العلم ، فحيث لا قوانين فلا وصف فلا علم ، فاحتجاجكم بالعلم للإلحاد مرفوض ، ولا يحق لكم أبدا أن تتهموا الأنبياء بأنهم كتبوا كتبهم ولم يكونوا يعرفون كيف يسير العالم ، أنت مجرد تريد الخلاص من عقيدة وجود خالق عليم حكيم له هدف وغاية من خلقنا ، قال لورانس كراوس :

١ - كون من لا شيء ، الفصل الحادي عشر ، ص ٢٢٤

٢ - المصدر السابق ، ملحق حوار مع المؤلف ، ص ٢٤٦

(( لا تزال هناك بالتأكيد الغاز عن الكون لا نفهمها ، ولكني سوف أفترض أن قراء هذا الكتاب غير متمسكين بصورة (( إله الفراغات )) إذ يستحضر الله حينما يشوب ملاحظتنا العلمية الالغاز والغموض ))<sup>١</sup> لا عزيزي ، نحن لا نبحث عن ثغرات بل انتم فرضيتكم كلها فراغ مستند الى فراغ في فراغ ، فأصل افتراض وجود المادة المظلمة كان رقعة لسد فراغ ، وأصل افتراض التضخم الكبير كان رقعة لسد فراغ ، وأصل افتراض الحقل الكمومي والجسيمات التقديرية الافتراضية كان رقعة لسد فراغ ، وأصل افتراض اللاتناظر في الجسيمات الاولى كان رقعة لسد فراغ ، وأصل افتراض قيمة الصفر للطاقة الكلية كان رقعة لسد فراغ ، وأصل افتراض أكوان متعددة كان رقعة لسد فراغكم الاحادي فرارا من الجبر المنطقي بحتمية وجود خالق عليم حكيم ، حيث يستحيل أن تقيموا عليها دليلا امبريقيا (( التجربة والملاحظة )) لأنكم اينما توجهتم بالتجربة والرصد فلن تتجاوزوا كوننا ، والفرضية عندكم شرط قبولها أن تكون مما يمكن اثباتها والتحقق من صدقها بالدليل الامبريقي ، فهذه اذن مجرد خيال وتوهم لا يرقى حتى الى مستوى الفرضية ، فلا يوجد دليل امبريقي على كل فرضية استندت اليها فرضيتك ، و لا يوجد دليل امبريقي على استنتاجاتك ، وفوق هذا هي معارضة بفرضيات تمسك بها خبراء فيزياء ملاحدة غيرك ، ستيفن هوكنج تخلى عن فرضية وجود مفردة انفجار كبير وهو يرجح الشكل المنحني للكون وانت ترجح تسطحه ، فريد هويل رفض فكرة الانفجار والتمدد ورجح فكرة الثبات الكوني وافترض الانشاء المتواصل للمجرات ، فريق قال ببطلان النسبية العامة ، فريق قال ببطلان فيزياء الكم ، وفريق يحاول التوفيق منذ خمسين سنة فكانت ثمرة بحثه فرضية الاوتار الفائقة ، التي وصفتها انت بأنها خيالية مغلقة بجعجة إعلامية فقلت : (( لا زلنا لا نعرف إذا كان هذا الصرح النظري الرائع له علاقة حقا بالعالم الواقعي ... فإنني أعتقد أن من المهم ببساطة اختراق الدعاية المفرطة الشعبية لتقييم ملاءمتها مع الواقع ))<sup>٢</sup> فأنت سيد

١ - المصدر السابق ، الفصل التاسع ، ص ١٨٨

٢ - المصدر السابق ، الفصل الثامن ، ص ١٧٢

الفراغات المحشوة بالبط والقردة هروبا من الإيمان بالله العليم الحكيم المتجلي في كل الوجود ، لماذا ترجح الوهم على اعتقاد منطقي ؟ يقول : (( قد اجد غاية هزيلة حين أعيش في عالم تحكمه شخصية مقدسة مثل صدام حسين ... هذه الشخصية التي لا تسن القوانين فحسب بل تعاقب اولئك الذين يعصونها بلعنة ابدية ، أجد أن العيش في كون دون غاية أمرا مدهشا لأنه يضيف مزيدا من القيمة الغالية على مصادفة وجودنا ))<sup>١</sup> إذن فالمسألة أما خلل تصوري ، فليست هذه هي الصورة التي يقدمها القرآن الكريم عن الله ، أو أن المسألة خلل نفسي وحب للانطلاق في الفجور ، كما قال تعالى : ((بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦))<sup>٢</sup> .

### \* الخلاصة

يرى القارئ الكريم ، ذو العقل السليم ، شدة تهافت ملاحظة الفيزياء وتخطبهم ، وقرارهم بالفشل وفراغهم ، ومدى الخيبة واليأس من ايجاد قيمة لحياتهم ، ومدى استعدادهم للتخلي عن عقولهم وعلمهم الذي يتبححون به في سبيل تبرير وترويج الحادهم ، يدعون التمسك بالدليل الامبريقي (( التجربة والملاحظة )) ولا يقبلون سواه دليلا ، يريدون أن يكتشفوا الذات الالهية المطلقة بتلسكوب هابل أو مصادم الهدرونات وإلا فلا يؤمنون به ، فكانت نتيجة دليلهم الامبريقي هي التخلي عن الدليل الامبريقي والتمسك بالبطة وحشد القروء ! فهم كما قال الله تعالى : ((سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِيبِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧))<sup>٣</sup> .

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، ملحق حوار مع المؤلف ، ص ٢٤٣

<sup>٢</sup> - سورة القيامة

<sup>٣</sup> - سورة الاعراف

الانسان سليم الفطرة والعقل دليله الهدايات الثلاثة ، هداية الفطرة وهداية العقل وهداية النبوة ، التي اوضحناها في بحث الفطرة في الفصل الثاني ، ونعم عندنا دليل امبريقي وهو : إن التجربة والملاحظة لكشوفات علم الفيزياء ، و رؤيتنا لتهافت ملاحدة الفيزياء ، يثبت بالقطع أن هذا الكون لا يقوم بذاته أبدا ، بل هو قائم بخالق عظيم عليم قدير حكيم لم يخلق الكون عبثا ولم يتركه هملا ، ذلك الدليل الامبريقي الذي اتبعه القس الكاثوليكي جورج لوميتير صاحب فرضية الانفجار الكبير ، وهو دليل نيوتن صاحب قوانين الحركة والجاذبية ، وهو دليل غاليليو صاحب البرهان على دوران الارض حول الشمس ، هو دليل كل علماء الفيزياء المؤمنين الذين يتبجح الملاحدة بجهودهم ، ثم يصادرونها لخدمة الحادهم ، كما يشهد لورانس كراوس نفسه فيقول : (( ذاك الذي استقاه نيوتن نفسه ، واعتنقه في وقت مبكر غاليليو وكوكبة من العلماء الاخرين عبر السنين ، وهو أن ذلك النظام خلقه ذكاء الهي مسؤول ، ليس فقط عن الكون بل عن وجودنا ))<sup>١</sup> ولكن الملاحدة لا شيء عندهم سوى الجعجة الاعلامية الفارغة ، فهم لا شيء من لا شيء في لا شيء والى لا شيء (( وَبِاللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ))<sup>٢</sup> .

ومن هذا يتضح حجم لا شيء لورانس كراوس وأنه خواء مغلف بجعجة إعلامية ، وأنه ضربة قاضية للفراغ الالحادي ، وليس كما جعجع صاحبه وناشر كتابه ريتشارد دوكنز فقال في تعليقه الختامية على الكتاب : (( نستطيع أن نقرأ لورانس كراوس في ما يبدو لي ضربة قاضية ... لو أن كتاب اصل الانواع كان ضربة علم الاحياء القاضية لما وراء الطبيعة ،

١ - الكون من لا شيء ، الفصل التاسع ، ص ١٨٤

٢ - سورة آل عمران

فربما يجب أن نرى كون من لا شيء معادلا له في علم الكون ((<sup>١</sup> وسيتضح قريبا حجم الفراغ الاحادي لريتشارد دوكنز في علم الاحياء .

لكن للإنصاف ودفعاً للإجحاف ، فإن مجمل هذه الفرضيات الفيزيائية قد يشتمل على لمسة خفيفة للحقيقة ، والتي أشار القرآن الكريم اليها بإشارات جد عميقة ، بما يسبق اطروحات العلم بقرون ، فأشار الى بحر طاقة الكون ، فقال : ((وَكَانَ عَرَشُهُ عَلَى الْمَاءِ ))<sup>٢</sup> ، وأشار الى بدء خلق مادة الكون فقال : ((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ))<sup>٣</sup> وأشار الى حالة السديم الكوني فقال : ((ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ))<sup>٤</sup> وأشار الى التمدد الكوني بل واستمراره فقال : ((وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ))<sup>٥</sup> وأشار الى التسطح الكوني ، أي تراصف المجرات بشكل يتلو بعضها بعضا وليست منضمة الى بعضها بشكل المنحني المغلق ، وأن التوسع الكوني سينتهي في وقت معلوم فقال : ((يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ))<sup>٦</sup> (١٠٤) ، الى غير ذلك الكثير من الاشارات مما سنحاول الاستفاضة بشرحه في كتاب مستقل إن شاء الله .

أما خلق السماوات والارض في ستة ايام في القرآن ، فليس المقصود قطعا هو يوم ٢٤ ساعة فان هذا الزمن مخلوق تبعا لخلق الشمس والارض ، فلا يكون ظرفا لخلق السماوات والارض ، وانما هو يوم باصطلاح اخر (( يوم الهي )) بلحاظ و جود معين يعلمه الله ، كاصطلاح (( السنة الضوئية )) عند خبراء الفلك مثلا ، فالقران ينص على يوم عند ربك بتوقيت معين بألف سنة مما تعدون (( اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

١ - كون من لا شيء ، خاتمة الكتاب ، ص ٢٤٠

٢ - سورة هود ، من الآية ٧

٣ - سورة الانبياء

٤ - سورة فصلت ، من الآية ١١

٥ - سورة الذاريات

٦ - سورة الانبياء

شَفِيعَ أَفْلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ))<sup>١</sup> ، ويوم عند ربك بتوقيت اخر بخمسين ألف سنة : ((تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) ))<sup>٢</sup> ، أما كمية الاصفار في البحوث الفلكية بخصوص تقدير عمر الكون فهي تزداد وتنقص كل فترة حسب تغير الفرضيات والآلات وحسب ثابت هابل (( غير الثابت )) لقياس معدل التمدد الكوني ، فأول تقدير عمر للكون عندما رصد هابل التمدد الكوني كان ١,٥ مليار سنة ، ثم صار ١٥ مليار ثم ١٠ مليار ثم استقر عند ١٣,٧٢ مليار سنة ، واليوم قالت ويندي فريدمان عالمة الفلك في جامعة شيكاغو في بيان صحافي لوكالة ناسا ((من الطبيعي أن تُطرح أسئلة عن سبب الاختلاف في قيم ثابت هابل ، وإن كان ذلك ناتجاً عن عدم فهم العلماء لمفهوم قياس النجوم أو بسبب عدم اكتمال فهمنا للكون، ومن المحتمل أننا بحاجة إلى تحسين فهمنا لكلا الأمرين ، ثابت هابل هو معيار كوني يحدد حجم الكون وعمره المطلق، وهو أكثر طريقة مباشرة نمتلكها لقياس سرعة تمدد الكون، ولم نستطع حتى الآن أن نفسر سبب الاختلاف في قيمه ، لكن الأدلة الجديدة تشير إلى إمكانية وجود خلل في فهمنا للكون )) . فريدمان هي المسؤولة عن أحدث قياس لثابت هابل ، والذي أجرته باستخدام نوع مختلف من القيم الكونية المستخلصة من تجارب سابقة ، تظهر دراسة ويندي فريدمان معدل تمدد للكون أقل مما توصلت إليه دراسة حديثة أخرى ، وأعلى مما توصلت إليه دراسة أخرى سابقة ، هدفت فريدمان في البداية إلى إيجاد الرابط بين الدراستين، لكنها توصلت إلى قيمة ثالثة لثابت هابل . وأما بالنسبة لكروية الارض وتسطحها فإن القرآن في قوله تعالى : ((أَفْلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) ))<sup>٣</sup> لم يقل أن الارض مسطحة على المقياس الكبير أي بالنظرة

<sup>١</sup> - سورة السجدة

<sup>٢</sup> - سورة المعارج

<sup>٣</sup> - سورة الغاشية

الشمولية للأفلاك ، وإنما كان بصدد إلفات نظر البشر الى النعم الالهية العظيمة التي تتقوم بها معيشتهم في الارض بالمقياس الصغير المنظور للبشر الاعتيادي ، ومنها جعل ظهر الارض مسطحا منبسطا بشكل عام وليس وعرا متعرجا ، وأنه لولا لذلك لم تستقم حياة البشر في الارض ، وبالفعل فقد اثبت العلم حقيقة أن نسبة الانبساط لظهر الارض اكثر من ٧٥٪ وهذا من الاعجاز العلمي للقرآن ، فالقرآن وإن كان تبياناً لكل شيء لكنه ليس كتاباً مدرسياً تخصصياً في علم الفيزياء يبينه كل من شاء ، انما هو كتاب هداية لصالح الفرد والمجتمع ، فيذكر الحقائق العلمية في سياق الهداية والارشاد ، فلا تعارض بين تسطح الارض بلحاظ المقياس الصغير وبين كرويتها بلحاظ المقياس الكبير . واللطيف أن الملاحظة يجعجعون بأن الارض كروية بلحاظ المقياس الكبير ، مع أن وصفها بالكروية هو ليس دقيقاً من الناحية العلمية ، بل إن شكل كوكب الأرض بالمقياس الكبير قريب من الشكل الكروي المفلطح ، فهي جسم كروي مفلطح عند القطبين ، ومنبعج عند خط الاستواء ، وينتج عن هذا الانبعاج دوران كوكب الأرض حول محورها ، ومفلطح عند القطبين يعني شبه متسطح منبسط ، فمعنى الاعجاز العلمي للقرآن هو عدم تعارضه مع أي حقيقة علمية قطعية ، وأن الكشوفات والخبرات البشرية العلمية مهما تطورت فإنها ستجد القرآن سباقاً لإثبات نتائجها القطعية .

## فرضية التطور الدارونية

التطور الداروني أو الداروينية : هي خصوص الفرضية التي تزعم ظهور الانواع الحية من بعضها البعض ، وانحدارها من سلف مشترك أو أسلاف عند تراكم التغيرات الطفيفة المتعاقبة بشكل تصاعدي تكاملي عبر ملايين السنين ، نتيجة تفاعل الافراد مع العوامل البيئية وتنازع البقاء والطفرات الوراثية . تزعم المؤسسات الاعلامية المروجة للإلحاد المعاصر باسم العلم أن نظرية التطور الدارونية هذه قد اثبتت النشوء التدريجي لجميع الكائنات الحية من مواد كيميائية اولية بسيطة قد اجتمعت صدفة واتفقا فكونت الخلية الحية الاولى ، وأنه بحسب مبادئ التفاعل مع المحيط و التكيف وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح والطفرات والانحرافات الجينية ، توالت جميع الانواع الحية وعددها بالآلاف من بعضها البعض عبر ملايين السنين ، وتطورت عن بعضها البعض حتى ارتقت سلسلة تطور الأنواع الى النوع الانساني ، وأن هذا الاكتشاف والتفسير للنشوء يبطل وجود الاله الخالق ، كما يبطل مقولة الخلق الدفعي المباشر للإنسان التي يقول بها القرآن وجميع الاديان التوحيدية . ابرز الملاحدة المروجين لهذه المزاعم هو ريتشارد دوكنز الذي تبجح قائلاً في تعليقه الختامية على كتاب (( كون من لا شيء )) لزميله لورانس كراوس : (( نستطيع أن نقرأ لورانس كراوس في ما يبدو لي ضربة قاضية ... لو أن كتاب اصل الانواع كان ضربة علم الاحياء القاضية لما وراء الطبيعة ، فربما يجب أن نرى كون من لا شيء معادلاً له في علم الكون ))<sup>١</sup> ، ولكن كل هذه المزاعم عبارة عن بالونات اعلامية فارغة يكذبها التاريخ والعلم والملاحدة انفسهم كما سيتضح قريباً .

<sup>١</sup> - كون من لا شيء ، خاتمة الكتاب ، ص ٢٤٠

## آليات التطور الداروني

نعرف الآليات الرئيسية للتطور الداروني بحسب تعريف اصحابها<sup>(١)</sup> :

١- الانتخاب الطبيعي : نظرا لتكاثر الكائنات الحية واختلافها في الصفات فانه من الطبيعي حدوث صراع على الغذاء والتزاوج والمكان والبقاء على قيد الحياة ، ومن الطبيعي أن بعض الافراد سيتمكنون من البقاء والتكاثر بينما يموت البعض الآخر ، وقد اطلق دارون على هذا اسم ((الاصطفاء الطبيعي)) وعرفه بانه هو العملية التي تمكن الافراد التي تمتلك صفات ملائمة للبيئة من البقاء على قيد الحياة والتكاثر ، وهي الآلية الرئيسية التي يحدث بها التطور في الدارونية الكلاسيكية ، على اساس قيام الظروف الطبيعية بالحفاظ على الافراد الذين امتلكوا سمات وقدرات تكيفية أفضل للنجاة والتكاثر ، واهمال و اباداة غيرهم .

٢- التكيف : هو العملية التطورية التي تتحسن بها سمات وقدرة الكائن الحي على العيش في موطنه نتيجة التفاعل مع الظروف البيئية ، والتي تمهد للنقلة النوعية ، على اساس تراكم التغيرات التصاعدية الطفيفة المتعاقبة للأفراد بالتدرج عبر مرور الزمن مما ينتج في النهاية نوعا جديدا متمايزا عن سلفه .

٣- الطفرات الجينية : تعرف الطفرة على أنها حدوث حالة حذف أو استبدال في جزيء الحمض النووي الموجود في نواة الخلية للكائن الحي ، والذي يحمل كل المعلومات الوراثية المكونة للكائن الحي ، ويحدث هذا الحذف أو الاستبدال نتيجة تأثيرات خارجية عادة مثل الإشعاع أو المواد الكيميائية أو الفيروسات . والطفرات الوراثية هي الآلية الرئيسية للتطور في الدارونية الحديثة ، على اساس أن اصل التمايز وظهور السمات الجديدة عند الافراد إنما يحصل بسبب الطفرة ، و نتيجة تراكم الطفرات النافعة المتعاقبة بشكل تصاعدي لأفراد نوع عبر الزمن بمساعدة

---

(١) راجع : علم الاحياء ، بيتر ريفن وجماعة ، الفصل الاول ، ص٨-١٢

الاصطفاء الطبيعي ينتج في النهاية ظهور نوع جديد متميز عن سلفه .  
والطفرات تنقسم الى صغيرة وكبيرة ، فالصغيرة هي تغير في تسلسل  
قواعد الحمض النووي ويؤثر فقط على نوكليويتيد واحد أو عدة  
نوكليويتيدات في الجين . والطفرة الكبيرة هي تغير يحدث في أقسام من  
الكروموسوم، وهي تغير من بنيات الكروموسومات أو ترتيبها .

### مناقشة آليات التطور

مناقشة آلية الانتخاب الطبيعي : ان ما اصطلح عليه دارون بالانتخاب  
الطبيعي وتنازع البقاء واختيار الطبيعة للأصلح ، هو غريزة حب الذات و  
حب الكمال ، وهذه سنة الهية و قانون الهي فطري جعله الله في جميع  
مخلوقاته الحية ، وليست تحكما من الطبيعة الهوجاء التي لا تملك وعيا  
ولا ارادة ولا اختياريا حتى تعين الاصلح فتأخذه وتشخص الفاسد فتقتله  
كما يدعي دارون ، فنحن نقر بوجود غريزة حب الذات و حب التكامل و  
السعي من اجل البقاء ، ونقر بالاختبار والبلاء والموت والفناء ، و لكن لا  
نقر بأن ذلك جاء بصورة عشوائية من الطبيعة وبتحكم منها ، لماذا ؟ لأنه  
ليس من شأن الطبيعة العشوائية في حد ذاتها ان تخلق حياة وتكاملا و  
نظاما و وعيا و ارادة ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، و انما ذلك من الله العليم  
الحكيم خالق الطبيعة بما فيها ، قال الله تعالى : ((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ  
وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ  
إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ))<sup>١</sup> ، و قال تعالى : ((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ  
إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) ))<sup>٢</sup>

وهنا باعتباري من المعجبين والمتابعين لقنوات الافلام الوثائقية عن  
الطبيعة ، اريد أن ألفت النظر الى ملاحظة جديرة بالاهتمام ، وهي أن  
الكثير من الناس متأثر بما يراه من الأفلام الوثائقية عن حياة الحيوان ،

١ - سورة الانعام

٢ - سورة هود

التي تكثر عادة من نقل جانب الافتراض وصعوبة الظروف في حياة الحيوان ، فهي توحى للمشاهد أن حياة الحيوانات ليست إلا افتراض القوي للضعيف ، وصراع الذكور على الإناث وصراع البؤساء مع ظروف الطبيعة المعادية القاسية ، وهذا الإيحاء يحتمل أنه ليس مقصودا من المنتجين للفلم وإنما الذي دعاهم الى التركيز على ذلك هو دافع الربح المادي فقط ، باعتبار أن أفلام الصراع تكون أكثر تشويقا وحركة ، وبالتالي تكون أكثر مبيعا للقنوات الفضائية التي صار لا هم لأكثرها إلا الربح المادي ، و لكن يحتمل أيضا أن يكون هذا الإيحاء مقصودا وأن هذه الافلام مؤدجة للترويج لأكثر فرضيتين انحطاطا ، وهما فرضية دارون بالاصطفاء الطبيعي وفرضية فرويد بأصالة الجنس التي تكلمنا عنها في الفصل الثاني . بالنسبة لي أميل للاحتمال الثاني أكثر حينما التقط حدوث عمليات القطع والتركيب لمقاطع الفلم ، ليبدو منسجما مع كلام المعلق على الفلم ، الذي يجعل الفلم والذي ينبغي أن يكون وثائقيا بحثا يجعله فلما تطبيقيا لانحطاط الدارونية والفرويدية ، حيث كل كلام المعلق مضمونه : (انظروا الى وحشية الحيوانات فأنها لا تعرف الهدوء والرحمة أبدا ولا تعرف إلا القتل ) مع أنه لم يصور إلا مشهدا من سعي الحيوان لتناول وجبته الغذائية المعتادة ! ، ( انظروا الى صراع هذه الذكور حتى الموت من أجل هذه الانثى ) ، مع أنه لم يظهر الا حيوانا يتعارك مع آخر بدون أن نعرف سبب الشجار واقعا !! ، (( انظروا الى هذا الحيوان يقتل أباه من أجل الحصول على امه )) ، مع أننا لا نعلم واقعا إن كان هذا أباه وإن كانت هذه امه فعلا !! ، ( انظروا هذا الحيوان كيف استطاع عبر الزمن أن يطور نمطه البنيوي ) ، مع أننا لم نكن حاضرين في الزمن الاول حتى نصدق في الزمن التالي!! ، ( انظروا الى عوامل الطبيعة الجبارة التي لا تعرف الرحمة ابدا كيف تنتقم من الضعفاء ) ، مع اننا لم نر إلا مشهدا لعاصفة او فصل جفاف !! . وبقطع النظر عن مقاصد المنتجين للفلم فهذا الإيحاء هو توهم خادع ، فليست الطبيعة هكذا طبيعتها وليست حياة الحيوان هي هذه الصورة. ربما لا يلتفت الكثيرون الى بطلان هذا الإيحاء عند المشاهدة ولكن فليفكروا الآن قليلا ، هل يستطيع الاسد أن يأكل لوحده جاموسا كاملا ؟ طبعا لا ، لأن حجم ما يمكن أكله من الجاموس هو

اضعاف معدة الاسد ، هل الاسد بعد الشبع وامتلأ بطنه بأكل جاموس يستطيع اضافة جاموس آخر الى بطنه أو حتى اضافة أرنب ؟ طبعا لا ، بل يكون في حالة خمول واسترخاء تام ولا يقوى على الجري . ماذا يفعل الاسد باقي يومه ؟ هل يتعارك مع الجيران مثلا ؟ طبعا لا ، بل يقضي شؤونه العائلية مع افراد اسرته فالأسود حيوانات اجتماعية . إن جميع الحيوانات لا تأكل إلا عندما تجوع تماما ، وهي لا تأكل إلا بمقدار سد جوعها ، وهي تبقى بدون طعام لأيام كثيرة ، والحيوانات الآكلة للحم فطرها الله كذلك وقدر لها رزقها فهي تطلب رزقها المقدر ، ربما الانسان فقط هو الذي يأكل دائما ، حتى على شبع ، خلاف مقتضى تكوينه الفطري وحكمة الحكماء ، ولا نريد الخوض في اسباب ذلك فدعونا نعود للدارونية .

ان هرم الدارونية في الاصل قد بني على هذه الآلية آلية اصطفاء الطبيعة ، على اساس ابقاء الظروف الطبيعية على الافراد الذين امتلكوا سمات وقدرات تكيفية أفضل للنجاة والتكاثر واهمالها وابدائها لغيرهم ، وقد اعترف معظم الدارونيين بقصور وفشل هذه الآلية في تفسير التطور النوعي ، فهي :

أولا: تعجز عن بيان سبب ظهور السمات والصفات الجديدة .

ثانيا: تعجز عن بيان كيفية توريث السمة الجديدة .

ثالثا : هي لا تضمن اداء هذه التغيرات الى ظهور نوع جديد .

فدور الانتقاء الطبيعي هنا لا يعدو أن يكون مجرد المحافظة على الفرد ذي السمات التكيفية الأفضل ، وترك الفرد الذي لا يملكها ليموت ، مع أن جوهر فرضية دارون يعطي للطبيعة دور الخلاق ، وحتى هذا الدور البسيط بالمحافظة على الأصلح لم تقم به طبيعة دارون بشكل صحيح ، فلم تستطع الدارونية الاجابة وفق قانون الانتقاء الطبيعي للأصلح أن تجيب على هذا السؤال :

لماذا سمح قانون انتخاب الأصل بانقراض كل انواع الديناصورات مع كونها كانت في غاية الاكتمال ؟ أجب وفق الدارونية لماذا قامت الطبيعة بإبادة الديناصورات ؟

هذا سبب العدول من آلية الاصطفاء الطبيعي بالتكيف وتنازع البقاء الى آلية الاصطفاء الجيني بالطفرات ، واسناد الدور الرئيس الخلاق الى الطفرات الجينية و ليس الاصطفاء الطبيعي . يشير الى ذلك اشهر علماء الاحياء التطورية في القرن العشرين ستيفن جاي جولد و هو من الملاحظة ، فيقول عند شرحه لمقولات دارون في بيان الانتخاب الطبيعي : (( إن هذه المقولات الثلاث تضمن أن الانتقاء الطبيعي سيؤدي عمله } يقصد المحافظة والابادة { لكنها بحد ذاتها لا تضمن الدور الاساسي الذي اسنده دارون اليها . يكمن جوهر نظرية دارون في قناعته بأن الانتقاء الطبيعي هو القوة الخلاقة للتطور ، وليس الجلاذ الذي يقضي على ما هو ضعيف فحسب ... فإن فهمنا لعلم الوراثة يميل الى وجهة نظر دارون في أن الطفرات الصغيرة هي لب التغير التطوري ))<sup>١</sup> وقوله بأنه (( يميل الى وجهة نظر دارون أن الطفرات ... )) هو ترقيع من عنده ، لأنه المحامي الشرس عن الدارونية ، ويحاول عبثا هنا انتشال الدارونية الاصلية من السقوط ، فإن قوانين الوراثة واسرار الخلية والحمض النووي وحقيقة الطفرة الوراثية كانت مجهولة بالنسبة لدارون وعصره .

مناقشة آلية التكيف : ان التكيف هو حالة تفاعل الكائن الحي مع متغيرات ظروف البيئة المحيطة به ، وهي حالة غريزية فطرية من اجل البقاء على الحياة ، مثل اسمرار لون البشرة عند التعرض لأشعة الشمس ومثل انكماش البشرة عند التعرض للبرد ، وهذا النحو من التفاعل مع ظروف البيئة لا ينكره عاقل فهو هبة من الله ، ولكن ما تدعيه الدارونية من ان تفاعل المادة مع الضوء هو الذي اقتضى ظهور العين عبر الزمن ، او ان تفاعل بعض الأسماك مع اليابسة هو الذي اقتضى ظهور اليدين عبر الزمن و بالتالي ادى الى ظهور نوع جديد من نوع سابق ، فهذا مما لا

<sup>١</sup> - منذ زمن دارون ، ستيفن جاي جولد ، التمهيد ، ص ١٨-١٩

يقتضيه التكيف في حد نفسه ، بشهادة الدارونية الحديثة التي عادت بالطفرات كآلية لظهور الصفات الجديدة والتغيرات البنيوية ، ولم يقد عليه أي دليل علمي وإنما هو مجرد تكهنات كانت من دارون واوهام يبرر بها الحاده ، حيث عاد من رحلاته الكشفية فرحا باكتشافه طيور غالاباغوس التي سميت (( عصافير دارون )) ، قد وجدها في جزيرة غالاباغوس (( ١٠٠٠ كم )) تقريبا عن سواحل اميركا الجنوبية ، وكانت مع مشابهتها لطيور اميركا الجنوبية تختلف من حيث اشكال مناقيرها تبعا لنمط سلوكها الغذائي ، فزعم أنه قد عثر على ما يثبت وهمه في السلف المشترك والتكيف ، وكما قال تعالى : (( إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ (٥٢) ))<sup>١</sup> .

مناقشة آلية الطفرات : واجهت الدارونية الكلاسيكية بالاصطفاء والتكيف عجزا عن بيان سبب ظهور واختلاف سمات الافراد ، وعجزا عن بيان كيفية توريث السمة الجديدة ، وعجزا عن بيان كيفية ان تكون الطبيعة خلقة ، اضافة الى ذلك واجهت إشكالا قاتلا هو عدم تناسب الفترة الزمنية التي يقتضيها تطور المادة الاولى من الخلية الحية البسيطة الاولى الى النوع الاكمل متعدد الخلايا معقد التركيب مع العمر الافتراضي لظهور الحياة على الارض ، حيث قدروا تأريخ نشوء الحياة على الارض بحوالي ٣ مليار سنة ونصف تقريبا بحسب ما يدعون ، واعترفوا انه خلال ٢ مليار سنة ونصف لم يوجد من اشكال الحياة في الارض سوى الاحياء البكتيرية بسيطة التركيب ، ثم في ظرف ٥٠٠ مليون سنة الاخيرة تقريبا اي في غضون نصف مليار سنة تقريبا ، ظهرت جميع الانواع الحية المعقدة والفصائل الموجودة لحد الآن و المنقرضة والتي تبلغ عشرات الآلاف ، لأجل كل ذلك التجأت الدارونية الى فكرة الطفرات الوراثية العشوائية (( صيغة حشد القروء التي طبعت مسرحية شكسبير بالصدفة ))

لترقيع هذه الفجوات بعد اكتشاف الجينات وتركيب الخلية ، وجعلت الطفرات هي الآلية الرئيسية الخلاقة للتطور وسميت (( الدارونية الحديثة (( بالاصطفاء الجيني ، بدل (( الدارونية الكلاسيكية )) بالاصطفاء الطبيعي ، و بحسب لغة السياسة فإن التغيير الثوري في الدارونية الاصلية كان يبدأ من الخارج بمؤامرة قوى الطبيعة على الكائن الحي ، أما التغيير الثوري في الدارونية المحدثه فيبدأ من الداخل بصراع الجينات داخل الكائن الحي ، ولن تستطيع الدارونية النجاة بثورتها الجديدة لأسباب منها :

١- ان التطور الداروني قائم على التغيير التدريجي البطيء وهو ينافي التطفر والتغير الفجائي ، وسيأتي نص دارون على ذلك .

٢- ان طبيعة الطفرات ان تكون استثناء من حالة سائدة ، فلا تصح ان تكون قانونا تبنى عليه نظرية علمية تفسر الحياة بعمومها .

٣- ان الطفرات في الاعم الاغلب تكون مميتة أو مضررة أو منقصة للكائن الحي الذي تحدث فيه الطفرة ، أو غير نافعة أي لا تنتج صفة كمالية جديدة ، فلا يصح ان تبنى فكرة ظهور كافة الانواع ذات التصميم البديع العظيم على الطفرة في ظرف نصف مليار سنة ، بدعوى أن هذه الحالة النادرة من وجود الطفرة النافعة قد حافظت عليها الطبيعة ثم تم توريثها لعدة اجيال ، وبتكرار الطفرات النادرة النافعة والمحافظة عليها وتوريثها نتج بعد مرور الزمن ظهور نوع متميز عن سلفه . هذا هراء وليس علما فإن الطبيعة في حد ذاتها لا تضمن الحفاظ على الطفرة النافعة النادرة في فرد ، فما الذي يمنع الذئب من أكل الارنب ذي الارجل الستة بالطفرة ، مع افتراض أنه اسرع من الارنب ذي الارجل الاربعة ؟ ولا تضمن الطبيعة في حد ذاتها توريث تلك الطفرة النادرة النافعة في الاجيال المتعاقبة ، فضلا عن الحفاظ والتوريث لعدة طفرات نافعة نادرة في عدة اجيال من النوع ، لا يوجد ضمان ، لسبب بسيط ، هو أنها طفرة ! .

٤- لم يثبت أصلا بدليل علمي ظهور نوع مكتمل بالطفرات المتلاحقة ، انما هو مجرد ترقيع لسد الفجوات في السجل الاحفوري ، ومجرد استنقاذ لفرضية التطور .

٥- دارون نفسه ، في معرض رده على القول بالخلق الاستقلالي الدفعي ،  
يصرح برفض مبدأ الطفرة كآلية للنشوء ، فيقول : (( والواقع أن نشوء  
أعضاء مستحدثة في الطبيعة، تظهر للباحث مفرغة في قالب معين ؛ لتقوم  
بوظيفة محدودة، أمر نادر الحدوث، إن لم يكن مستحيلاً متابعة للحكمة  
القديمة التي كان يأتّم بها الباحثون في العصور الأولى في ترقّي الفكرة  
العلمية ؛ إذ كانوا يقولون: « لا طفرة في الطبيعة » وهي حكمة صحيحة،  
وإن كان فيها شيء من المبالغة ... وإنا لنجد فيما كتب كثير من أعلام  
الباحثين في الطبيعة ما يؤيد تلك الحكمة ... ومن هنا نعتقد أن الطبيعة ليس  
في استطاعتها أن تؤثر في الأحياء من طريق الوثبات الفجائية الكبيرة، بل  
إنها تتقدم إلى الأمام بخطوات قصيرة وثيدة ، ولكنها مخففة. ))<sup>١</sup>.

### أدلة وشواهد التطور

نعرض أهم أدلة التطور الداروني بحسب عرض اصحابها<sup>(٢)</sup> :

١- السجل الاحفوري : حيث اظهر البحث في تاريخ الكائنات المتحجرة  
التي عثر عليها وجود حالة ترتب زمني في ظهور الكائنات الحية من  
البسيطة الى المعقدة ، فالكائنات البسيطة وجدت بقاياها في الطبقات السفلى  
من الارض بينما الكائنات المعقدة وجدت بقاياها في طبقات اعلى ، مما  
يفيد الوجود التطوري التدريجي للأنواع عبر ملايين السنين من بعضها  
البعض .

٢- الاعضاء الضامرة : وتسمى ايضا الاعضاء الأثرية ، حيث توجد في  
الكائنات الحية بعض الاعضاء المهملة و التي لا تؤدي وظيفة معينة ، مما  
يفيد أن هذه الأعضاء هي من بقايا السلف النوعي السابق ، كعظم  
العصص في الانسان و الزائدة الدودية وحلمات اثناء الرجل .

<sup>١</sup> - اصل الانواع ، دارون ، ترجمة اسماعيل مظهر ، الفصل السادس ، ص ٣٤٧

<sup>(٢)</sup> راجع : علم الاحياء ، الفصل الاول ، ص ٨-١٢

٣- التشابه البنوي : حيث توجد اعضاء تمتلك البنية نفسها في انواع مختلفة ولكن مع اختلاف الوظيفة ، كما في الاطراف الامامية للدولفين والخفاش والحصان والقط والانسان ، فإنها متشابهة في التركيب مع اختلاف في الوظيفة بحسب طريقة الحياة الخاصة بكل واحد .

٤- البيولوجيا الجزيئية والتشابه الجيني : حيث كشفت دراسة الخارطة الجينية للأنواع عن وجود سلف جيني مشترك بين الانواع الحية ، بكشفها تشابه الجينات بين الانواع بشكل كبير وبصورة تطورية . يقول بعض علماء التطور الداروني : (( يتفق علماء الاحياء على أن المخلوقات الحية اليوم تحدرت جميعها من مخلوق خلوي بسيط ظهر قبل ٣,٥ بليون سنة ، بعض صفات ذلك المخلوق الأول حفوظ عليها ، فخرن المعلومات الوراثية في DNA مثلا هو مشترك للمخلوقات الحية جميعها ))<sup>١</sup> وهذه دعوى كبيرة باطلة ، وابشع أنواع الكذب الذي يمارسه الدارونيون في تزوير العلم ومصادرة آراء علماء الاحياء ، كما سيتضح قريبا .

### مناقشة أدلة التطور

مناقشة دليل السجل الاحفوري : طالما تشدق دارون وانصار نظرية دارون بأن السجل الاحفوري يدعم نظرية التطور الداروني ، والحق ان السجل الاحفوري قد وجه ضربة قاضية للنظرية ، فقد نسف انفجار الكامبري سفينة بيجل لدارون واغرقها في بحر الاوهام والخرافات الابدي ، حيث عثر في طبقات الصخور الرسوبية التي يعود عمرها الى قرابة ٥٠٠ مليون سنة بحسب تقديراتهم ، على المئات من فصائل الكائنات الحية وعشرات الانواع الرئيسية المتحجرة متعددة الخلايا و معقدة التركيب والتي تشكل نصف عدد الانواع الحية الحالية في مملكة الحيوان ، ظهرت كلها في فترة زمنية قصيرة قدرت بحوالي (( ١٠ مليون سنة فقط )) وهي فترة تعد كلمح البصر بالنسبة لعمر نشوء الحياة في الارض والتي قدرها بحوالي ٣ مليار سنة ونصف ، و قد اصطلحوا على هذا التدفق الاحيائي

<sup>١</sup> - علم الاحياء ، الفصل الاول ، ص٤١

الكثيف اسم (( الانفجار الكامبري )) نسبة الى منطقة (( كامبريا )) وهي الاسم اللاتيني لبلدة (( ويلز )) احدى البلاد التي تتشكل منها المملكة المتحدة البريطانية ، والتي عثر في صخورها على هذه المتحجرات وسميت هذه المرحلة البيولوجية باسم (( العصر الكامبري )) .

ان الانفجار الكامبري اشتمل على عدة حقائق تدحض فكرة التطور بألية الانتخاب الطبيعي منها :

١- عدم وجود سجل احفوري يثبت تطور كائنات الكمبري من انواع سابقة حيث ان المرحلة السابقة لم يثبت فيها سوى وجود كائنات وحيدة الخلية بسيطة التركيب كالبكتريا الزرقاء ، مما يبطل دعوى تطور الانواع عن اسلاف مشتركة بالانتخاب الطبيعي ، وقد اعترف دارون نفسه بهذه المعضلة فقال : ((هنالك صعوبة تتصل بما ذكرنا، بل هي أعنت وأعتى ، أشير بذلك إلى الطريقة التي تظهر بها الأنواع التابعة للأقسام الرئيسية من مملكة الحيوان فجأة في أسفل الصخور الأحفورية .... يترتب على ذلك أن نظرتي إذا كانت صحيحة، فمما لا يحتمل المناقشة أنه قبل ترسب أسفل الطبقة الكمبرية ، قد مرت أحقاب مديدة، تبلغ من التطاول مبلغ الفترة من العصر الكمبري إلى الآن ، وربما كانت أكثر تطاولاً، وأنه في مدى تلك العصور المديدة ، قد عجت الدنيا بالمخلوقات الحيّة ... أمّا التساؤل: لماذا لا تجد بقايا احفورية وفيرة في تلك الأحقاب المبكرة السابقة على المجموعة الكمبرية ، فليس في مستطاعي أن أجيب عليه إجابة مرضية ... ينبغي أن نترك هذه المسألة غير مفسّرة في الوقت الحاضر، وقد يمكن بحق أن يُستدل بها على ما يخالف الآراء المقول بها هنا ))<sup>١</sup> ولم يثبت تفسير لحد الآن بعد اكثر من ١٥٠ سنة من كلام دارون ، نعم زعموا اكتشاف متحجرات تعود لفترة ٦٠٠ مليون سنة في منطقة اديكارا في استراليا ، أي قبيل العصر الكامبري بحوالي ١٠٠ مليون سنة ، وسميت (( حديقة الأديكارا )) زعموا انها لبعض الحيوانات الرخوية ، ولكنهم

<sup>١</sup> - اصل الانواع ، دارون ، ترجمة اسماعيل مظهر ، الفصل العاشر ، ص ٥٣٤-٥٣٦

اعترفوا انها نوع خاص ، ولا يمكن ان يكون سلفا مشتركا لأنواع الكامبري في بريطانيا.

٢- قصر الفترة الزمنية التي ظهرت فيها جميع انواع الكامبري وهو ١٠ مليون سنة ، مما يبطل مبدأ التدرج الزمني الذي يقتضيه التطور بالانتخاب الطبيعي .

٣- وجود التعقيد البالغ والتصميم الذكي في تركيب كائنات الكامبري ، مما يبطل دعوى ظهورها بالطفرات العشوائية ، والفقرات الكبيرة السريعة ، كمحاولة بائسة من الدارونية المستحدثة للترقيع .

٤- الطامة الكبرى هي عدم اشتمال السجل الاحفوري لأنواع الكامبري على الانواع المتوسطة الانتقالية ، مما يثبت بشكل قاطع عدم تطور بعضها من بعض ، وسيأتي تسليط الضوء على فقرة فراغ السجل الاحفوري من الانواع الانتقالية عموما .

٥- اشتمال كائنات الكامبري على نصف الانواع الرئيسية لمملكة الحيوانات وثباتها قبل نصف مليار سنة في ظرف ١٠ مليون سنة ، مما يبطل دعوى حتمية استمرار التطور والتغير مع الزمن .

### تهافت الدارونية بين الطفرة والتريج

لأجل ترقيع الفجوات في السجل الاحفوري عموما ، وتهربا من الاعتراف بدحض الانفجار الكامبري للدارونية خصوصا ، فإن الملحد المدافع الشرس عن الدارونية عالم الاحياء التطوري الاشهر ستيفن جاي جولد ابتكر في عام ١٩٧٢م فرضية (( التوازن المتقطع )) أو التوازن النقطي ، حيث زعم أن التحولات النوعية الكبرى إنما تحدث بصورة سريعة ثم تعقبها حالة طويلة من الركود<sup>(١)</sup> ، يعني هو و من تابعه من الدارونيين يؤيدون أن التطورات النوعية الكبرى إنما تحصل بطفرات

(١) راجع : الموسوعة البريطانية ، مادة (( ستيفن جاي جولد ))

قوية كبرى ، معارضا بذلك مبدأ (( التطور التدريجي البطيء المستمر للسلاطات )) الذي هو روح التطور الداروني التي يستعاض بها للخلاص من السؤال البسيط القاتل :

لماذا لا نرى اليوم نوعا جديدا تطور بالانتقاء الطبيعي ، أرني نوعا حيا جديدا تحول عن نوع حي سابق ؟ يجيبون : إن التطور النوعي إنما يحتاج الى ملايين السنين !

فعلى تكية كان ياما كان في قديم الزمان ، طالما اتكأ دارون لترقيع فرضيته ، يقول في ترقيع احدى فجواته : (( أن الضروب الجديدة بطيئة التغير؛ ذلك لأن سنة التحول لا تظهر نتائجها إلا في خلال درجات من التحول بطيئة جهد البطء ))<sup>١</sup> ، ونقلنا عنه سابقا رفضه التام للنشوء بالطفرات حيث قال : (( والواقع أن نشوء أعضاء مستحدثة في الطبيعة، تظهر للباحث مفرغة في قالب معين ؛ لتقوم بوظيفة محدودة، أمر نادر الحدوث، إن لم يكن مستحيلاً متابعاً للحكمة القديمة التي كان يأتّم بها الباحثون في العصور الأولى في ترقّي الفكرة العلمية ؛ إذ كانوا يقولون: « لا طفرة في الطبيعة » وهي حكمة صحيحة، وإن كان فيها شيء من المبالغة ... وإنا لنجد فيما كتب كثير من أعلام الباحثين في الطبيعة ما يؤيد تلك الحكمة ... ومن هنا نعتقد أن الطبيعة ليس في استطاعتها أن تؤثر في الأحياء من طريق الوثبات الفجائية الكبيرة، بل إنها تتقدم إلى الأمام بخطوات قصيرة وثيدة، ولكنها مخففة. ))<sup>٢</sup> . لذلك ليست فرضية التوازن النقطي المنقطع إلا ترقيعا مفضوحا للسجل الاحفوري ، واقراراً بأنه لا يدعم اوهام دارون ، وهذه شهادة عظيمة خطيرة من ستيفن جاي لأنه أشهر خبراء علم الاحاث والاحافير بلا منازع ، وهو محامي الدارونية الملحد الشرس ، ولذلك لقيت فرضيته معارضة من فريق الدارونيين المخلصين لروح دارون ، لأنهم فهموا أنها طرد لروح دارون الشريرة

١ - اصل الانواع ، ترجمة اسماعيل مظهر ، الفصل السادس ، ص ٣١٤

٢ - المصدر السابق ، الفصل السادس ، ص ٣٤٧

المتشبهة بالدنيا و اعلان لموت الدارونية ، وهي كذلك بالفعل ، وعلى هذا الاساس افترق الدارونيون الى فرقتين :

فرقة الطفرات ، كآلية أساسية مع الاعتراف بالدور الثانوي للتغيرات التدريجية بالانتقاء الطبيعي ، فهذه الفرقة ترى أن الطفرات هي لب الدارونية ، وقد نقلنا سابقا نص ستيفن جاي جولد على ذلك في قوله : ((فإن فهمنا لعلم الوراثة يميل الى وجهة نظر دارون في أن الطفرات الصغيرة هي لب التغير التطوري))<sup>١</sup> .

وفرقة التدرج البطيء بالانتقاء الطبيعي ، كآلية رئيسية وأنه صميم لب التطور ، مع الاعتراف بالدور الثانوي للطفرات الجينية الصغيرة المتلاحقة ، فهذه الفرقة ترى أن لب التطور الداروني هو الاصفاء التدريجي البطيء ، كما ينص على ذلك المحامي الشرس الاخر عن الدارونية الملحد ريتشارد دوكنز ، فإنه لا ينكر الدور الضروري للطفرات في اصل ايجاد الصفات الجديدة (( لأن الطفر هو في النهاية ، الطريقة الوحيدة التي يدخل بها تباين جديد للنوع ))<sup>٢</sup> كما يقول ، ولكن الدور المحوري عنده هو للاصطفاء الطبيعي (( وهذا الانتخاب الطبيعي التراكمي التدريجي لهو التفسير النهائي لوجودنا ، وإذا كان هناك نسخ من نظرية التطور تنكر التدريجية البطيئة ، وتنكر الدور المحوري للانتخاب الطبيعي ، فإنها قد تكون مما يصدق في حالات معينة ، ولكنها لا يمكن أن تكون الحقيقة كلها ، لأنها تنكر صميم لب التطور ، ذلك اللب الذي يعطيها القوة لإذابة تلك الاحتمالات التي تبلغ نسبة قلتها ارقاما فلكية ، والذي يعطيها القوة لتفسير الاعاجيب التي تبدو ظاهريا كالمعجزة ))<sup>٣</sup> وختم كتابه بهذه العبارة تعصبا لروح دارون فقط ، فهو مجال بحثه كما هو معروف هو الجينات الوراثية ، وهو ليس باحثا متخصصا في التأريخ الطبيعي والاحافير والمتحجرات كستيفن جولد ، وسبب تعصبه - كما يعترف - هو أن القول بالطفرات كآلية رئيسة هو نقض لصميم لب الدارونية ، لأن

<sup>١</sup> - منذ زمن دارون ، ستيفن جاي جولد ، التمهيد ، ص ١٨-١٩

<sup>٢</sup> - صانع الساعات الاعمى ، ريتشارد دوكنز ، الفصل الخامس ، ص ١٧٨

<sup>٣</sup> - المصدر السابق ، الفصل الحادي عشر ، ص ٤١٩

التغير التدريجي بالاصطفاء الطبيعي عبر ملايين السنين هو روح الدارونية ، فهو الذريعة الوحيدة التي يستند دارون واتباعه اليها لتبرير دعوى ظهور هذا النوع من ذلك ، فإن مسألة ظهور نوع من آخر تلقائياً هي بنسبة واحد الى ترليون مثلاً ، وهي التي سماها ارقاما فلكية ، وهذه لا يتوهمها عاقل أبداً ، وهروبا من هذا الفرض الجنوني اتكأ دارون واتباعه على عكازة التغير البطيء التدريجي عبر ملايين السنين ، إلا أن علماء الاحافير المختصين بالاحافير من اتباع دارون مثل ستيفن جولد ، استيقنوا بعد مرور قرابة ١٧٠ سنة من كلام دارون ، أن هذه العكازة مكسورة بل مهشمة ، لذلك لاذوا بالطفرات النوعية كآلية رئيسية لإحياء الدارونية ، فلم يزيدوها إلا تهافتا واجهاضا ، وقد سميت الصراعات بين فرق الدارونية باسم (( حروب الدارونية )) .

يجادل الملاحدة بالقول : إن التطور الداروني حقيقة ، والدارونيون متفقون على ذلك ، وإنما هذا مجرد اختلاف بسيط ثانوي في الاليات . قلنا : كيف يكون التطور الداروني حقيقة واقعية بدون ثبوت الآلية ، هو بدون ثبوت الآلية المفسرة لكيفية التطور المزعم يبقى مجرد فرضية ، واتفاقهم على وهم التطور تعصبا والحادا ، لا يجعل من الوهم حقيقة واقعية .

### السجل الاحفوري والحلقات المفقودة

ضربة قاتلة يوجهها السجل الاحفوري لفرضية التطور بالانتخاب الطبيعي ، حاصلها ان الآلاف من الانواع الحية الحالية والمنقرضة متميزة عن بعضها البعض ، وفرضية تطور بعضها من بعض بانحدارها من سلف مشترك التي هي أصل مفهوم التطور الداروني ، تقتضي وجود الآلاف من الانواع الانتقالية البينية المتوسطة ، التي تثبت الانتساب وظهور هذا النوع الاحداث من ذلك الاقدم ، كما قال دارون نفسه في كتابه (( أصل الانواع )) في الفصل العاشر الخاص بسد فجوات فرضيته : ((أما نظرية الانتخاب الطبيعي ، فتقتضي بأن كل الأنواع الحيّة ، لا بُدَّ من

أن يكون قد مضى عليها زمان كانت فيه متصلة بالأصول الأولى التي نشأ عنها كل جنس بذاته ، بصور من التحول لا تزيد على تلك التي نراها بين الضروب البرية والضروب المؤلفة، التابعة لنوع بعينه من الزمن الحاضر، وأن هذه الأصول الأولى - وقد انقرضت في هذا العصر- كانت في دور من أدوار نشوئها، متصلة بصورة أبعد منها قدمًا، وهكذا تعود دواليك، كلما رجعت إلى الأزمان السالفة، وأمعنت في البحث إلى أصل أول، عنه نشأت كل قبيلة من القبائل. ومن هنا يتضح لنا أن عدد الحلقات الوسطى كان عظيمًا، وأنه من المحقق إذا صحت نظيرتي هذه، أنها قد عمرت الأرض في خلال زمن ما من الأزمان<sup>١</sup> وبدون اثبات ذلك أي الآلاف من الانواع الانتقالية البيئية المتوسطة لا تثبت الفرضية .

الكارثة ان السجل الاحفوري لم يثبت لحد الان بشكل حاسم وجود هذه الانواع الوسيطة لا متحجرة ولا حية ، و قد اعترف دارون نفسه بالعجز عن الاجابة الحاسمة على هذا الاعتراض الخطير في وقته مبررا ذلك بقصور علم الاحاثه الخاص بالبحث عن المتحجرات في عصره ، فقال في كتابه ((اصل الانواع )) : (( ولكن يجب ان يكون عدد الضروب المتوسطة التي قد سبق ان تواجدت ، عددا هائلا بالفعل بنفس المعدل واسع النطاق بالضبط الذي تجري عليه هذه العملية الخاصة بالإبادة ، فلماذا اذن لا يكون كل تركيب جيولوجي وكل طبقة فيه مليئة بمثل هذه الحلقات المتوسطة ؟ ان علم طبقات الارض بالتأكيد لا يفصح عن اي شيء على شاكلة تلك السلسلة العضوية دقيقة التدرج ، و ربما كان هذا هو اكثر اعتراض واضح وخطير من الممكن ان يوضع في مجال المجادلة ضد النظرية ، وانا اعتقد ان التفسير لذلك يقع في النقص البالغ في السجل الجيولوجي ))<sup>٢</sup> . فهو يعترف أن هذا هو أخطر اعتراض يهدم فرضيته ، واليوم بعد مرور قرابة ١٧٠ عاما على كلامه هذا ، ومع تطور علم الإحاثه و شدة حماس البحث بشكل جنوني ، واستنفاد مليارات الدولارات في التنقيب والتحليل ، مازالت الحلقات المتوسطة مفقودة بشكل كامل ،

١- اصل الانواع ، دارون ، ترجمة اسماعيل مظهر ، الفصل العاشر ، ص ٥٠٦  
٢- أصل الانواع ، دارون ، ترجمة مجدي محمود المليجي ، الباب العاشر ، ص ٤٩٤

اللهم بعض الأحافير التي تم تليفها ودعوى انها انواع وسطية ، كما يعترف بذلك على خجل بعض علماء الاحياء التطورية مثل بيتر ريفن وجماعته ، الذين اشتركوا بتصنيف كتاب دراسي تخصصي في علم الاحياء : (( وعلى الرغم من أن وجود مخلوقات وسطية حقا من الصعب تحديده ، فإن علماء المستحاثات وجدوا ما يبدو انه اشكال انتقالية ))<sup>١</sup> ولو قبلناها وسلمناها فهي لا تشكل حتى واحد بالمائة مما يجب تواجد من الانواع الانتقالية ، لا سيما أنه كان يجب وجدانها بصورة سهلة كسهولة ايجاد بقايا أفراد الانواع الثابتة ، فلماذا يتم وجدان بقايا من أفراد الانواع الثابتة كالبكتريا والاسماك والديناصورات المتحجرة المفترض انها اقدم بالوجود من الانسان بمئات الملايين من السنين ، ولم يتم حتى الآن ايجاد فرد واحد من النوع الانتقالي والسلف النوعي المفترض للإنسان !! اللهم إلا بتلفيق بقايا (( آردي )) و (( لوسي )) وتقديمهما على انهما السلف المشترك للإنسان والقرد . أخذ دارون بعد كلامه الذي نقلناه يرفع الفجوات في سجله الاحفوري بدعوى أن الانواع المتوسطة ربما هاجرت عن موقع تطورها ، وربما انجرفت بقاياها عن موضع تطورها ، وربما هي قد انقرضت قبل تكون الصخور الرسوبية التي ينبغي أن تحتفظ بها ، وكل ذلك لا يغني عن حقيقة عدم ثبوت ما يثبت التطور الداروني .

مناقشة دليل الاعضاء الضامرة : ان التمسك بوجود ما اسموه الاعضاء الضامرة كعظم العصص في الانسان كشاهد على التطور أنه من بقايا الذيل ، انما يرجع الى الجهل والقصور العلمي في معرفة اسرار الخلقة الالهية ، و مازال العلم يكتشف بالتدرج بعض اسرار عظمة الخلقة و ما خفي قد كان اعظم ، فمن قال أن ما اسميته الاعضاء الضامرة والاثرية هي ضامرة واثرية فعلا ؟ لا يصح منطقيا أن ما تجهله تجيره لمصلحة فرضيتك بانها على أصالة التطور الداروني ، فهذه مغالطة لأن المفروض أن الدليل هو الذي يثبت الفرضية وليس الفرضية هي التي تثبت الدليل ، بعبارة اخرى من قال أن عظم العصص مثلا عند الانسان هو عضو

<sup>١</sup> - علم الاحياء ، الفصل الاول ، ص ١٠

ضامر ومهمل واثر لذيل ؟ يقول : لأنني لا أرى له نفعاً ! ومن تكون أنت حتى ترى النفع أو عدمه في خلقة فطرية حية معقدة كتعقيد الكون العظيم ؟ أنت لا تميز الحكمة في أبسط اجزاء المصنوعات البشرية فضلا عن المعقدة إلا بالرجوع للمختص ، يقول : انا رجعت للمختص وهو علم الاحياء ! وهل قال عالم الاحياء انه مهمل لا نفع فيه أم قال انا لا أدري وعلم الاحياء يعجز عن الاجابة ؟ انما أنت رجعت للملحد التطوري الداروني فأجابك انه مهمل واثر من ذيل ، وجوابه هذا مصادرة على المطلوب وباطل منطقيا لأنه يبني على اصالة التطور الداروني .

السؤال يترد بالعكس على دارون واتباعه ، ما الذي جعل تلك الاجزاء التي تبدو مهمة ولا فائدة منها ، ما الذي جعلها تستمر بالبقاء لملايين السنين ؟ اليس مقتضى الانتقاء الطبيعي هو بقاء الاصلح ؟ إن وجودها على فرض عدم نفعها هو ينقض قاعدة الانتقاء الطبيعي للأصلح .

مناقشة دليل التشابه النبوي : ان مسألة تشابه البنية في الانواع الحية كانت هي الاصل في انبثاق فرضية التطور في الخيال البشري ، وهي في ذات الوقت اكثر الشواهد سذاجة و دلالة على طفولة العقل البشري ، وهي بالذات المرتكز الحقيقي لأوهام دارون ، وهي لا تدل على التطور النوعي الداروني ، فان مجرد تشابه الخلقة بين نوعين لا يدل على كون احدهما متطورا ومتولدا عن الاخر بالضرورة ، بل بالعكس يدل على وحدة الخالق لهما ، فانت لو رأيت سيارتين متشابهتين بشكل كبير فهذا دليل على وحدة الصانع لهما وليس دليلا على كون احدهما قد تطورت عن الاخرى ، إنما الدليل على القرابة وانتساب هذا النوع الاحداث لذاك النوع الاقدم وكونه جده النوعي ، هو وجود النوع الوسيط وهو مفقود كما ذكرنا ، فلم يبق إلا التشابه وهو لا يفيد النسبة .

يقول دارون في كتابه : (( إنَّ سكان الأرض على تعاقب الأدوار الزمانية في جميع تاريخها قد هزمت أسلافها في التسابق على البقاء، وإنها لذلك كانت أرقى منزلة في سُلّم الطبيعة، كما أصبح تركيبها - العضوي بوجه عام - أكثر تخصصًا. وقد يكون هذا سببًا فيما يعتقد به علماء

الأحافير من أن النظام العضوي برُمته قد أمعن في الارتقاء والتطور، والحيوانات المنقرضة وكذلك الحيوانات القديمة ، تُشابه - إلى درجة ما - أجنة الحيوانات الأكثر حداثة والتابعة لمراتب واحدة ، وإنَّ هذه الحقيقة الباهرة يمكن أن تفسر ببساطة وفقاً لمذهبي . كذلك نرى أن تعاقب الطرز التركيبية الواحدة في باحات بذاتها في أثناء العصور الجيولوجية المتأخرة ، تفقد كثيراً مما يكتنفها من غموض، إذ يمكن تعليلها استناداً إلى سُنَّة الوراثة . فإذا كان السجل الجيولوجي على ما يُرى فيه من نقص وبعُد عن الكمال، بالإضافة إلى يقيننا بأن لا دليل على أن هذا السجل سوف يصبح أكمل مما هو، فإن المعترضات الجوهرية التي قامت على سُنَّة الانتخاب الطبيعي تنهافت كثيراً أو هي تختفي جملة ))<sup>١</sup> فلاحظوا أنه مع اعترافه بأن السجل الاحفوري بفراغه من الانواع المتوسطة التي تثبت النسب بين النوع الاحداث والنوع الاقدم هو لا يدعم فرضيته ، ومع يقينه أنه لا دليل على سد هذا الفراغ مستقبلاً ، مع ذلك فهو يزعم أن رؤيتنا لنتازع البقاء بين الكائنات الحية ، ورؤيتنا للتشابه بين الحيوانات القديمة واجنة الحيوانات الحديثة ، و رؤيتنا لترتب المتحجرات تصاعدياً ، يزعم كفاية ذلك للبرهان على دعواه بتحول الانواع وتوالدها من بعضها . إنه يخادع نفسه بذلك ويحاول خداع غيره ، وقد اوضحنا عدم كفاية ذلك ، واعترف اتباعه وغيرهم بعدم كفاية ذلك .

مناقشة دليل التشابه الجيني : كانت البيولوجيا الجزيئية وهي فرع علم الاحياء الذي يدرس تركيب نواة الخلية الحية ، هي اخر صرخة لأنصار فرضية التطور لتعزيز شواهد الفرضية واحيائها ، وذلك بعد مرحلة سميت (( كسوف الدارونية )) سادت معظم النصف الاول من القرن العشرين نتيجة ظهور قوانين مندل للوراثة ومهزلة السجل الاحفوري ، مما وجه ضربات مميتة للدارونية الاصلية بالاصطفاء الطبيعي التي سميت (( الدارونية الكلاسيكية )) نتيجة لذلك ، حيث استبدل اتباع الدارونية التراث الداروني القديم الذي يشمل الانتخاب الطبيعي والتكيف

<sup>١</sup> - اصل الانواع ، ترجمة اسماعيل مظهر ، الفصل الحادي عشر ، ص ٥٧٢

البيئي والسجل الاحفوري والصراع من اجل البقاء والتشابه البنيوي ، استبدلوها بالاصطفاء الجيني والطفرة الجينية والانحراف الجيني والسجل الجيني والتشابه الجيني ، ولكن بتقدم البحث في مجال البيولوجيا الجزيئية انكشف انها اخر مسمار يدق في نعش الدارونية ، وقد تكلمنا سابقا عن آلية الطفرة وعجزها التام عن احياء الدارونية ، وبعجزها تموت الدارونية لأنها ستبقى بدون آلية لتفسير التطور الموهوم ، أما من حيث دعوى التشابه الجيني حيث يزعمون انكشاف تشابه في الجينات بين الانسان والقرود بنسبة ٩٥٪ ، وكذلك زعموا التشابه الجيني بين كافة الانواع بصورة ترتيب تصاعدي ، فهذا لا يقدم ولا يؤخر ، بعد سقوط آلية التطور ، لتفسير وهم التطور ، وهو مع ذلك دعوى باطلة التعميم من مؤسسات الاحاد لخداع العامة ، حيث لم يتم مطلقا كشف الخارطة الجينية لآلاف الانواع ، و رغم ذلك فهو لا يختلف عن دليل التشابه البنيوي ، مجرد دعوى تشابه ، فإن تمت فلا يثبت ان ذاك هو سلف هذا ، بل يدل على وحدة الخالق المصمم الاعظم ، وليس طفرة السلف المشترك الاعجم ، من جهة اخرى فإن هذا الاستدلال منقوض بالفعل ، حيث كشف البحث في الجينات عن حقائق كثيرة تنقض شجرة التطور الجيني المزعومة ، منها ان السيتوكروم سي في السلحفاة أقرب إلى الطيور مما هو عليه للثعبان وهي من فصيلة الزواحف نفسها ، ووجد أن الثعبان أقرب إلى الإنسان ب١٤ اختلافا مما هو عليه للسلحفاة ب٢٢ اختلافا قريته في شجرة التطور ، وهذه حقائق تنقض الاستدلال بدرجات القرابة الجزيئية .

يتشكّل جسم الإنسان بشكل أساسي من مجموعة من الخلايا المترابطة والمرتبطة مع بعضها البعض ، وتعرف الخلية بكونها الوحدة الأساسية لأجسام الكائنات الحية على اختلاف أنواعها وأشكالها، ويصل عدد الخلايا في جسم الإنسان البالغ إلى أكثر من ١٠ ترليون خلية ، ولا يمكن للعين المجردة رؤية أي من هذه الخلايا وتفصيلها . ثم الخلية الواحدة في جسم الانسان تحتوي على أجسام أصغر منها تسمى عضيات ، كما تحتوي على النواة التي هي مركز التحكم في الخلية والتي تحمل في داخلها الشيفرة الوراثية في الحمض النووي منقوص الأكسجين DNA ، حيث تحتوي نواة

الخلية في الكروموسومات على سلاطة ال DNA الذي يتكون من ٣ مليار زوجاً قاعدياً وتسمى نوكلويدات ، مصفوفة بطريقة مشفرة بالغة التعقيد ، في حين أن الجينات وهي المسؤولة عن تركيب الجسم وأعضائه والنمو والبلوغ وتكوين البروتينات المختلفة والإنزيمات ذات الوظائف المتعددة فيبلغ عددها ٢٢,٥٠٠ جين وقيل أكثر من ٣٠,٠٠٠ جين ، والجينات (( المورثات )) موزعة على ٤٦ من الكروموسومات (( الصبغيات )) في نواة الخلية ، ومجموعها يشكل شريط ال دي أن أي . إذا حدث أدنى خلل أو طفرة في تركيب أحد الجينات فإنه من الممكن أن تكون له عواقب وخيمة على سلامة وصحة الفرد ، فالجينات هي كتاب الحياة والنوكلويدات بمثابة أحرف الكتاب ، وكل هذا في نواة خلية واحدة ، هل هذا كل شيء ؟ لا طبعا ، هذا فقط نبذة مختصرة ، ومجرد ذرة من مجرة .

يقولون أنه في مشروع الجينوم البشري استطاع العلماء معرفة ترتيب النوكلويدات جميعا للإنسان ، وقد استغرق هذا العمل المهول نحو ٢٠ سنة ، بين الأعوام ١٩٨٤ إلى ٢٠٠٣ . اشترك في هذا المشروع نحو ٢٠٠٠ من أرقى العقول من ٢٤ معهدا متخصصا في الولايات المتحدة بالاشتراك مع بعض الدول الأخرى . في عام ٢٠٠٠م قدم المشرف على المشروع ، وهو الدكتور فرانسيس كولينز ، قدم المسودة الأولى لكتاب الجينوم البشري إلى الرئيس الأمريكي بيل كلينتون في البيت الأبيض ، يعد ذلك واحدا من الإنجازات العظيمة التي توصل إليها الإنسان . وبعد ذلك بثلاث سنوات في عام ٢٠٠٣ تم الكتاب بالكامل ، كما يقولون .

فرانسيس كولنز عالم البيولوجيا الجزيئية الأشهر ، وقائد المشروع الدولي للجينوم البشري المتولي لدراسة خارطة الجينات البشرية ، يعبر بتصوير مجازي بسيط ومختصر عن عظيم تركيب الجينات البشرية التي تحوي جميع المعلومات الوراثية اللازمة لتكوين الإنسان ، فيشبهها كأنها كتاب لا يرى بالعين المجردة مشتمل على نص مؤلف من ٣ مليار حرف ، بحيث لو أنك تمكنت من قراءته بمعدل حرف واحد في الثانية فإنك ستحتاج الى ٣١ سنة من القراءة المستمرة ليلا ونهارا دون انقطاع ، ولو افترضنا طباعة هذا النص في كتاب بالحجم والخط العادي فإنه سوف ينتج

كتبا توازي ارتفاع ١٧٠م فيقول : (( يحتوي الجينوم البشري على الحمض النووي لكل الاصناف البشرية وشفرة الوراثة للحياة ، يبلغ طول النص الجديد المكتشف ٣ بلايين من الاحرف ، وقد كتب بطريقة غريبة ومشفرة على شكل نسق رباعي . تعقيد المعلومات التي تحتوي عليها كل خلية في جسم الانسان تجعل من قراءة هذا النص بمعدل حرف لكل ثانية تستغرق ٣١ سنة ، حتى لو استمرت القراءة ليلا ونهارا . طباعة احرف هذا النص بالبنط العادي بالحجم المتعارف من الاوراق سوف ينتج عنه برج بارتفاع النصب التذكاري في واشنطن ))<sup>١</sup> وهذا الكلام وإن كان رمزيا لا يفقه رموزه الا المختصون ، وإن كان تقريبا لتبسيط التصور الذي لا يدركه إلا العالمون ، ولكن مع ذلك إنما هو بحسب الادراك الحالي المحدود للعلماء المختصين ، وأما واقع كلمة التصميم الالهي فهو كما قال تعالى : ((وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ))<sup>٢</sup> وكما قال تعالى : ((قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ))<sup>٣</sup> .

فهل يعقل شخص سليم الفطرة والعقل أن الانسان من صنع الطبيعة العشواء والطفرة العمياء وتنازع البقاء ؟ لن يعقل أي عاقل هذا الهراء ، ولذلك قلنا أن البيولوجيا الجزئية ، هي آخر مسمار يدق في نعش الدارونية ، إنما هو كما قال تعالى : ((صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) ))<sup>٤</sup> .

١ - لغة الإله ، فرانسيس كولنز ، المقدمة ، ص ٩

٢ - سورة لقمان

٣ - سورة الكهف

٤ - سورة النمل

## سر الروح وأصل الحياة

بخصوص أصل الحياة وتكوين الخلية الاولى ، نشير هنا الى مفارقة لطيفة ، بل خدعة سخيفة ، يمارسها ملاحدة التطور الداروني الجدد ، وهي أن فرضية دارون للتطور بالانتخاب الطبيعي والتي عرضها دارون في كتابه (( أصل الأنواع )) هي لم تتطرق أصلا الى مسألة أصل نشوء الحياة الاولى في الارض ، وانما كانت فقط تصف كيفية انبثاق الانواع الحية المكتملة من بعضها البعض ، بل أن دارون نفسه قد صرح أن التفكير في مسألة اصل نشوء الحياة مجرد هراء ، لست أنا من يقول ذلك بل نجم الإلحاد الفيزيائي لورانس كراوس يقتبس من رسالة شخصية لدارون هذا النص : (( إن التفكير في أصل الحياة حاليا محض هراء ، وربما هذا ما اعتقد به كذلك عند التفكير في أصل المادة))<sup>١</sup> فمناقشة مسألة اصل نشوء الخلية الحية الاولى هي من هراء الملاحدة الجدد ، كمسألة مناقشة أصل الكون ، وقد عجزوا بشكل مطلق عن تفسير وجودها وعلته بين احتمال كونها قادمة من الفضاء الخارجي ، كما ذهب الى ذلك جماعة منهم الملحد الفلكي فريد هويل ، واحتمال تكونها من مواد الارض كما ذهب اخرون مثل ريتشارد دوكنز . وعلى فرض تكونها من مواد الارض فقد عجزوا عن تفسير كيفية تكونها تلقائيا ، وهم عن تكوين مثلها أعجز ، وإن كونوا مثلها كيميائيا كما يزعمون فهم عن نفخ الروح فيها اشد عجزا ، وإن تمكنوا من نفخ الروح فيها فهم الى حفظها وجعلها تتضاعف ذاتيا بنفسها لا سبيل لهم ، وإن تم كل ذلك فهو مثبت أن الكائنات الحية معقدة التركيب بديعة التصميم لم تخلقها طبيعة هوجاء ولا طفرة عمياء ولا حشد القرود . هم لم يدركوا بعد اسرار المادة الميتة وما زالوا يتخبطون بين فيزياء النسبية وفيزياء الكم وهم عن ادراك حقيقة الروح واسرار الحياة

<sup>١</sup> - كون من لا شيء ، لورنس كراوس ، الفصل الخامس ، ص ١١١

أشد جهلا وأضل سبيلا ، وكما قال تعالى : ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ  
الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ))<sup>١</sup> .

لورانس كراوس ينقل كلام دارون في أن التفكير في اصل الحياة واصل  
الكون كان محض هراء في زمن دارون ، ليتبجح بكونه الآن يدير ((  
مشروع الاصول )) الذي يتولى البحث عن أصل الحياة والكون ، برفقة  
عقول جبارة في مختبرات جبارة بدعم من ميزانية جبارة ، ولكن ما هي  
النتائج ؟ يقول لورانس : (( إننا لم نفهم بعد تماما كيف نشأت الحياة على  
كوكب الارض ، وعلى أي حال فإننا لا نملك آليات كيميائية فقط يمكن فهم  
هذا بها ، ولكننا كذلك ، نستهدف يوما بعد يوم طرقا محددة ، ربما سمحت  
بظهور الجزيئات البيولوجية بما فيها الحمض النووي ظهورا طبيعيا ...  
ومثلما أزاح دارون رغما عنه الحاجة الى تدخل إلهي ... يضفي فهمنا  
الحالي للكون وماضيه ومستقبله المصادقية على فرضية أن (شيئا ما )  
يمكن أن ينبثق من ( لا شيء ) دون الحاجة الى أي تدخل إلهي . وسبب  
صعوبات الملاحظات العلمية والنظرية المتصلة بها ، المرتبطة باستنباط  
حلول لتفصيلاتها وتطويرها ، أتوقع أن لا نحقق أكثر من المصادقية في  
هذا الصدد ))<sup>٢</sup> يعني النتيجة بعد قرابة ٢٠٠ سنة من عصر دارون هي  
(( لم نفهم بعد – آليات كيميائية – ربما سمحت – فرضية - يمكن أن  
ينبثق – اتوقع – لا نحقق )) . أما رتشارد دوكنز ففي نهاية فصل كامل  
من التهريج يشرح فيه ما يسميه نظرية الحساء العضوي الاولي ونظرية  
المعدنيات غير العضوية ، مع اقراره بفشلهما ، ويحاول فيه خداع القارئ  
بإقناعه أن احتمال نشوء حياة بصورة تلقائية في الارض بنسبة واحد من  
كذا مليار هو امر طبيعي معقول ولا يسمى (( صدفة )) !! بعد كل هذا  
التهريج والخداع كانت النتيجة هي : (( اننا مازلنا لا نعرف بالضبط كيف  
بدأ الانتخاب الطبيعي على الارض ))<sup>٣</sup> ويقول أن أفضل ما تم التوصل اليه  
منذ عشرين سنة هو نظرية (المعدنيات غير العضوية) التي تفترض نشوء

<sup>١</sup> - سورة الاسراء

<sup>٢</sup> - كون من لا شيء ، الفصل التاسع ، ص ١٨٩-١٩٠

<sup>٣</sup> - صانع الساعات الاعمى ، الفصل السادس ، ص ٢٢٩

الحياة الاولى من معدن غير عضوي من مستنقع بلورات سيليكون تجمعت تلقائيا وضاعت نفسها خلال مليار سنة حتى وصلت الى المرحلة العضوية بعدة طفرات ، واخطاء نسخ ، فأنتجت بضربة حظ مادة DNA الوراثية التي تطورت عنها جميع الكائنات الحية . ومستنقع بلورات السليكون هذا هو تعبير آخر عن (( طين لازب )) الذي نص عليه القرآن كأصل مادة الخلق فقال تعالى ((إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) ))<sup>١</sup> . علما أن كل هذا الضجيج والعجيج لعلماء المادة إنما هو في الجانب المادي لوجود الكائنات الحية فقط ، وهم عن سر الحياة الذي يفرق بين الطين والانسان خارجون تخصصا . زعم الاعلام الالهادي مؤخرا أن فريقا من العلماء استطاع انتاج خلية حية ، وطار سفهاء الملاحظة بذلك فرحا ، فلما اطلعنا على التقرير المصور وجدناه حالة تهجين صناعي لبكتريا حية . فإن كان التفكير بأصل الحياة والكون في عصر دارون محض هراء ، فهو الآن محض تهريج باسم العلم وافتراء ، تدعمه ماديا واعلاميا مؤسسات الالحاد .

### الدارونية وحشد البط والقروء

المقصود من مفهوم (( حشد البط )) هو احتكام الملاحظة الى الاستدلال غير العلمي ، أي الاتيان بمقدمات لا تؤدي الى النتيجة ، ثم البناء على هذه النتيجة . وقد استعرنا هذا المفهوم من كلام نجم الالحاد الفيزيائي لورانس كراوس في كتابه (( كون من لا شيء )) عند اعترافه بأن أدلته لا تدعم النتيجة التي يبني عليها فرضياته الباطلة ، حيث قال : (( أن هناك رأيا تتزايد قوته بين علماء الكون مجددا مؤداه : لو أنه يمشي مثل البطة ويبدو مثل البطة ويبطط مثل البطة ، فهو على الأرجح بطة))<sup>٢</sup> فهو ترجيح على أساس الاحتمال ، ثم بناء نظريات اساسية على هذا الاحتمال الضعيف

<sup>١</sup> - سورة الصافات

<sup>٢</sup> - كون من لا شيء ، الفصل السادس ، ص ١٣٥

والتعامل معها على انها حقائق واقعية والتضجيج بها إعلاميا . والمقصود من مفهوم (( حشد القروء )) هو احتكام الملاحظة الى الصدفة والعشوائية وضربة الحظ كلما ضاق عليهم الخناق وعجزوا عن تزوير دليل بصورة علم ، واستعارة هذا المفهوم هي من المثل المشهورة للسخرية من الملاحظة ، حيث يرجعون اصل الكون والحياة بما فيهما من عظيم التصميم الذي يقرون به الى الصدفة والعشوائية ، فيقال لهم أن نسبة الكون والحياة الى الصدفة ، كنسبة قيام حشد من القروء بالضرب العشوائي على الآلة الكاتبة فيخرج كتاب في منتهى الجمال والكمال .

يزعم الملاحظة أن ربنا هو (( إله الفجوات والفراغات )) أي أننا نلجأ الى الله لسد الفجوة في كل شيء نجهل سببه الطبيعي ، ونحن نقول لهم : إننا لا نلجأ الى الله لسد فراغات ، لأننا لا ندعي مثلكم علما مستقلا عن الله تعالى ، وإنما نحن نؤمن بأصالة وجود الله تعالى وأنه حي حكيم قدير عليم مطلقا ، وأنه هو مسبب الاسباب ومقنن القوانين ، وبالتالي فنحن نوكل ما نجهله الى علمه المطلق ، أما أنتم فتؤمنون بأصالة المادة الميتة العمياء الهوجاء العشواء ، وتقررون كل مرة بجهلكم وقصور فهمكم وفجوات فرضياتكم المخالفة للفطرة وللمنطق السليم وللحس العام ، ثم توكلون ذلك في كل مرة الى حشد البط والقروء لترقيع الفجوات .

دارون مقرا بجهله المفرط في تفسير ما ينافي فرضيته ، كبقاء ما يراه تافه المنفعة كذيل الزرافة ، وكتكوين ما يراه معقد التصميم كالعين ، يقول : (( بما أن الانتقاء الطبيعي يعمل عن طريق الحياة والموت – عن طريق البقاء للأصلح وعن طريق الإبادة للأفراد الأقل في الصلاحية التامة – فقد شعرت في بعض الاحيان بصعوبة كبيرة في تفهم النشأة أو التكوين الخاص بالأجزاء قليلة الأهمية ، وكانت هذه الصعوبة التي واجهتها بنفس القدر من الضخامة تقريبا – ولو أنها من نوع مختلف تماما – مثل الموجودة في حالة أكثر الاعضاء الجسدية اكتمالا وتعقيدا . وفي المقام الاول ، فنحن في حالة جهل زائدة عن اللزوم فيما يتعلق بالنظام الكلي

الخاص بأي كائن واحد من الكائنات العضوية ))<sup>١</sup> ثم يذهب للإسراع بتحشيد البط والقرود لتبرير جهله وترقيع فجواته ، فهو إمام الملاحظة في الترقيع وسيد البط والقرود ، والى هذا اليوم لم يزد الملاحظة في العلم إلا بطا وقردة ، جدلا بالباطل واستكبارا على الحق ، قال تعالى : ((وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) ))<sup>٢</sup> .

ريتشارد دوكنز نجم الملاحظة المعاصر واشرس المجادلين بالباطل ، مع إقراره بعظمة تصميم الكائنات الحية ، ومع ذهوله الشديد مما استيقن به من روعة الابداع ، فتراه يشرح في فصل كامل عبقرية تصميم آلية الإدراك بالصدى لدى الخفاش فيقول : (( إن السمع بالصدى عند الخفافيش هو فحسب مثل واحد من آلاف الامثلة التي استطيع أن اختارها لإثبات نقطة التصميم الجيد . فالحيوانات لها المظهر بأنها قد صممها فيزيائي او مهندس محنك نظريا وبارع عمليا ))<sup>٣</sup> وبعد استفاضة في فصل كامل بشرح عظمة تصميم تركيب الجين البشري ، مع ذلك فهو يكافح بأن كل ذلك من صنع الطبيعة العمياء ، ذلك مثلهم في القرآن (( أَمْ حُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِفُونَ (٣٥) أَمْ حَلَفُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مُتَقَلَّبُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) ))<sup>٤</sup> .

ردا على حجة تصميم الساعة التي تقول : أنك لو وجدت ساعة بكمال الروعة وعظمة التصميم فإنك تلقائيا ستحكم بأن لها صانعا عليما خبيرا بصيرا حكيما وقد صنعها لغاية وهدف ، فكذلك الكائنات الحية وكل عضو

١ - اصل الانواع ، ترجمة مجدي محمود المليجي ، الباب السادس ، ص ٣١٦

٢ - سورة الكهف

٣ - صانع الساعات الاعمى ، ريتشارد دوكنز ، الفصل الثاني ، ص ٦٥

٤ - سورة الطور

فيها ، وهي اكمل واعظم من الساعة الصناعية ، تشهد أن لها خالقا حيا واعيا عليما خبيرا حكيما له قصد وغاية وهدف من خلقها ، ردا على هذه الحجة البالغة يقر ريتشارد دوكنز بعظمة التصميم الحيوي ووجود الصانع البارع للكائنات الحية ، ولكنه يقول أنه صانع أعمى لا وعي له ولا هدف ، هو مجرد صانع بارع يصنع وكفى ، وهذا الصانع هو الطبيعة كما يقول : (( بين الساعة والكائن الحي هو تمثيل زائف ، فصانع الساعات الحقيقي له تبصر للأمام ، فهو يصمم تروسه وزنبركاته ، ويخطط ما بينها من ترابطات وقد وضع نصب عينيه هدفا مستقبليا ، أما ما يصنع الساعات في الطبيعة ، وهو الانتخاب الطبيعي ، تلك العملية الاتوماتيكية العمياء غير الواعية التي اكتشفها داروين والتي نعرف الآن انها تفسير بيولوجيا الحياة ، فليس له عقل فيه هدف . إنه بلا عقل وبلا عين لعقل ، وهو لا يخطط للمستقبل ، وليس له رؤية ولا بصيرة للأمام ، ولا بصر على الاطلاق ، وإذا كان من الممكن ان يقال عنه أنه يلعب دور صانع الساعات في الطبيعة فهو صانع ساعات أعمى ))<sup>١</sup> .

وهنا نسأل دوكنز واتباعه الملاحدة : أنت تقول ان التمثيل بقياس الساعة الصناعية على الكائن الحي تمثيل زائف وقياس باطل ، لماذا ؟ يقول لأن صناعة الساعات الحقيقية تحتاج الى صانع خبير عليم له وعي وارادة وهدف ، أما صناعة الحياة فلا تحتاج الى ذلك . قلنا : ولماذا صانع الحياة لا يكون خبيرا عليما واعيا حكيما ؟ يقول لأن صانع الحياة هي الطبيعة وهي ليست ذات علم و وعي وحكمة وهدف ، هي كصانع الساعات الاعمى وليس كصانع الساعات الواعي الخبير البصير . قلنا : لكن انت تقر بعظمة وروعة تصميم الحياة وانها أعظم واروع من تصميم الساعات ، فكيف يكون صانعها اعمى لا وعي له و لا بصيرة ؟ يقول نعم هذا ممكن بل هو الواقع الذي اكتشفه دارون فصانع الحياة هي الطبيعة والطبيعة لا وعي لها ولا هدف . قلنا : إن قياسك صانع الحياة على صانع الساعات الاعمى هو القياس الزائف ، لأن صانع الساعات الأعمى لن ينتج ساعات

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، الفصل الاول ، ص ٢٦

عظيمة بدقة لا متناهية بعدد البشر لأنه اعمى ، وانت قد أقررت بعظمة تصميم كل الكائنات الحية بكل عضو فيها ، فهكذا صانع ساعات اعمى بلا هدف ويتمكن من انتاج ساعات عظيمة بدقة لا متناهية بعدد غير محدود لا وجود له إلا في أو هامك ، فلن يقوم أي شخص بدون غاية وهدف بصناعة أي شيء إلا إن كان مغيب العقل أو عابثا ، فالقياس الصحيح لطبيعتك التي بلا وعي ولا هدف و لا علم ولا خبرة هو تشبيهها بصانع الساعات المجنون الذي لا وعي له ، يلعب عبثا فيعيث فسادا وينتج خرابا ، وهذا خلاف اقرارك بمنتهى عظمة وروعة كل الكائنات الحية بكل عضو فيها . يقول : نحن لم نقل أن الطبيعة تعمل بصورة عشوائية فنتنتج النظام الاكمل بالصدفة فهذا تصور خاطئ عن الدارونية ، انها تعمل وفق قانون هو قانون الانتخاب الطبيعي وهذا القانون هو الذي انتج كل هذا النظام الرائع المدهش ، ليس بالصدفة والفتحة وإنما بالتدرج بالتفاعل مع عوامل البيئة وتنازع البقاء عبر مئات الملايين من السنين ، إنما نحن نقول أن الطبيعة عندما تعمل وفق هذا القانون فإنها ليس لها غاية وخطئة نهائية للحياة (( يكاد يكون الامر كما لو كان المخ البشري قد صمم على وجه خاص ليسيء فهم الدارونية ... أن امخاخنا قد بنيت للتعامل مع احداث ذات مقاييس زمنية تختلف جذريا عن تلك التي تميز التغير التطوري ، فنحن قد جهزنا لإدراك عمليات تكتمل في ثواني او دقائق او سنوات ، أما الدارونية فهي نظرية عمليات تراكمية بطيئة جدا ، حتى انها تكتمل على مدى يتراوح بين الآلاف الى الملايين من العقود ... والهروب من سجن مقاييس الزمن المألوفة يتطلب جهدا من التخيل ))<sup>١</sup> . قلنا : نعم تقصدون (( قانون الفوضى الخلاقة )) حيث جعلتم للفوضى قانونا ثم جعلتموها خلاقة ، وتريدون تمرير هذا التهافت المنطقي على عقول الناس ، إنه قانون الطفرات والفجوات وتنازع البقاء ، وصراع الجبايرة الذي يسمح بانقراض الاقوى وابقاء الضعفاء ، واخطاء الانتخاب ، واخطاء النسخ ، واختيار العقيم وابداء السليم ، وكل هذا تعصبونه برأس الزمن عبر مئات الملايين من السنين ، هروبا من الاقرار بمرادفة الدارونية للصدفة والعبث ، وهو

١ - المصدر السابق ، التمهيد ، ص ١٦

ما يناقض كمال نظام الحياة الذي لا يمكنكم انكاره ، لقد توهمنا وتخيلنا مليارات السنين ولكن الخيال لا يسعف الاعتقاد بالدارونية كعلم حقيقي وإنما يسعفها كعلم خيال علمي ، إنما تبنى العلوم الحقيقية على الأدلة الحقيقية القطعية ، وعلم الاحافير والتأريخ الطبيعي قد هشم عكازة الزمن التي تتكأ عليها الدارونية ولاذ بالطفرات ، وحشا بالبط كل الفجوات ، كما أن المنطق الاحتمالي اثبت احتياج نشوء آلاف الانواع بالتدرج الداروني الى ما يزيد على العمر المفترض للأرض ملايين المرات ، فنحن لم نسيء فهم الدارونية ولكن الدارونية هي مفهوم سيء ، أنت تستقتل في اثبات أن المادة الميتة قد تخبطت في العوامل البيئية المتخبطة وتقلبت في ملايين الاجيال عبر ٣ مليار سنة حتى انتجت العين التي نرى بها اليوم ، والتي اذهلتك اسرارها كما اذهلت الدارونيين المختصين فلاذوا بالطفرات ، ومنهم ريتشارد جولد شميدت عالم الوراثة الاميركي التطوري ، المؤمن بالطفرات كآلية اساسية وليس الاصطفاء التدريجي الذي تعتبره انت لب الدارونية . يقول دوكنز: هذا هو قانون الطبيعة بالتغيير التدريجي عبر ملايين السنين (( وهكذا فإن مشكلة ريتشارد جولد شميدت - وهي واحدة من مجموعة مشاكل جعلته يلجأ في معظم حياته المهنية الى الايمان المتطرف بأن التطور يتم في وثبات عظيمة بدلا من الخطوات الصغيرة - يثبت في النهاية أنها لا مشكلة على الاطلاق ))<sup>١</sup> ولا ننكر الدور الفعال للطفرات الجينية واخطاء نسخ الحمض النووي في أصل ظهور السمات الجديدة (( لأن الطفر هو في النهاية ، الطريقة الوحيدة التي يدخل بها تباين جديد للنوع ))<sup>٢</sup> فهي بتوجيه من الاصطفاء الطبيعي تؤدي الى تطور الانواع (( فيجب أن يكون ثمة اخطاء عارضة في نسخ الذات ... ويبدو أن من المحتمل أن الناسخات الاولى على الارض كانت تخطأ الى حد أكبر كثيرا ... ومن المحتمل على الاقل في احد الاشكال البدائية يكون هذا نتيجة محتومة للحقائق الاساسية لنسخ الذات نفسه ))<sup>٣</sup> . قلنا : يعني كصانع الساعات المجنون يخبط خبط عشواء ، وتريدون أن تجعلوا الجنون خلاقا

١ - المصدر السابق ، الفصل الرابع ، ص ١٢٢

٢ - المصدر السابق ، الفصل الخامس ، ص ١٧٨

٣ - المصدر السابق ، الفصل الخامس ، ص ١٨٢

والعشوائية قانونا ، ثم تقولون انظروا الى هذا المجنون كيف خلق كونا بمنتهى العظمة والبراعة ليس بالصدفة وإنما بقانون العمل العشوائي لملايين السنين (( حشد القروء )) ، ثم تسد فجوات تفسير اصل ظهور الصفات الجديدة ، وفجوة الزمن اللازم للتطور التي لا تتناسب مع عمر الأرض ، تسدها بافتراض وجود اخطاء نسخ وطفرات (( حشد البط )) . يقول دوكنز: نعم الطبيعة كالحاسوب لا وعي له ولا هدف ولكنه يعمل وفق قانون وربما يخطأ احيانا وبعض هذه الاخطاء تكون نافعة عظيمة الفائدة . قلنا : حسبكم هذا المثال ، فالحاسوب نعلم انه مصنوع بقانون بواسطة صانع عليم حكيم ، فمن طبع الطبيعة ومن قنن قوانينها ومن نفخ الروح فيها ؟ فالقانون التكويني يعني نظام كينونة الشيء ، فمن اوجد الطبيعة بهذا النظام ولماذا لم تكن غير ذلك ؟ بل لماذا وجدت اصلا ؟ وما هو أصل الحياة ؟ كيف تفسر نشوء الحياة بالانتخاب الطبيعي ؟ يجيب دوكنز: بالنسبة لأصل وجود الطبيعة وقوانينها فأنا عالم احياء وهذا السؤال موكول الى الفيزياء الكونية ، وأما بالنسبة لأصل نشوء الحياة في الارض بالانتخاب الطبيعي ف(( اننا مازلنا لا نعرف بالضبط كيف بدأ الانتخاب الطبيعي على الارض ... واذا كان هناك حاليا غياب لتوصيف لأصل الحياة متفق عليه بصورة محددة فإنه ينبغي بالتأكيد ألا يؤخذ هذا كحجر عثرة بالنسبة لكل النظرة الدارونية للعالم ))<sup>١</sup> . قلنا : صاحبك لورنس كراوس في كتابه (( كون من لا شيء )) بالنسبة لأصل الطبيعة وقوانينها قال لا أعلم ولم أفهم ، ولكنه افترض انها وجدت من لا شيء بصورة عشوائية ككون من عدة اكوان وتقنن قانونها هكذا بالصدفة ، أما اصل الحياة فهو وفريقه ما زالوا لا يعلمون ايضا ويقول أنها ربما نشأت من اختلاط كيميائي لا يعرف حقيقته ، وانت قد أيدته وصدقت له في تعليقتك على كتابه ، وادعيت ان تهريجه هذا ضربة قاضية للإيمان بالله في مجال الفيزياء كما الداروينية سبقته بالضربة القاضية في مجال الاحياء ، والان في مجال اختصاصك تعترف أنك ما زلت لا تعلم ولا تفهم وليس عندك سوى الاحتمالات والعشوائية والصدفة التي تحاول خداع الناس بأنها ليست

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، الفصل السادس ، ص ٢٢٩

صدفة . هذه ليست حجر عثرة الدارونية بل حجر مقبرة الدارونية ، فأى ضربة قاضية للإيمان تدعون ؟ وأي علم تزعمون ؟ وأي حق تجحدون ؟ إنما الضربة القاضية على الالحاد هي هذا السؤال : من مدد المادة ومن نفخ فيها الروح ومن طوق الطاقة ومن قنن القانون ؟ وما يزال دوكنز يستكبر فيقول : إن الله لا دليل امبريقي عليه !! قلنا : انتم تقرون بعظمة التصميم وبراعة النظام مما دون الذرة الى ما بعد النجوم ، ومن بسيط الخلية الى معقد الجينوم ، ألا يكفيكم هذا دليلا امبريقيا على وجود الله الخالق القيوم ؟ إن حالتكم هذه هي برهان حقانية القرآن الكريم حيث قال تعالى : ((سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ))<sup>١</sup> وقال تعالى : (( وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ))<sup>٢</sup> .

وكما اوضحنا في بحث فرضيات الملحدين في الفصل الثاني ، يقول دوكنز في تفسيره لأصل الدين واستمراره وانتشاره : (( ليس من الضروري أن يكون هناك انتخاب طبيعي ايجابي . يدرك علماء الطبيعة بأن انتشار مورث ما ، ممكن أن ينتشر في جنس ما ، فقط لكونه محظوظا وليس لأنه جيد . ونسمي هذا بالانجراف الوراثي . وأهميته مقارنة بالانتخاب الطبيعي لا تزال موضع جدال ... أنا انطلق من أن الدين كاللغة تطور بشكل عشوائي من بدايات غير محددة ، وذلك خلق الغنى المحير والخطير أحيانا لتعديديتها التي نلاحظها ، في نفس الوقت من الممكن أن شكلا من اشكال الانتخاب الطبيعي ، متوافقا مع القواعد الاساسية لعلم النفس البشري ، يؤمن لنا أديانا تحتوي على قواسم مشتركة ))<sup>٣</sup> . قلنا : انت تنطلق لتفسير الدين ام انت تحشد البط والقروود لتبرر الحادك ؟ ماذا يعني (( ليس من الضروري أن يكون الانتخاب الطبيعي ايجابيا – من الممكن للطبيعة أن تنتخب الأسوأ – انتخاب الطبيعة للأسوأ ضربة حظ – لا تزال موضع جدال - بشكل عشوائي من بدايات غير محددة – من الممكن أن شكلا )) ؟

١ - سورة فصلت

٢ - سورة النمل

٣ - وهم الإله ، رتشارد دوكنز ، الفصل الخامس ، ص ١٩١-١٩٢

ما قيمة هذا الهراء في سوق العلم ؟ أنت تعترف بأصالة الدين ورسوخه في عمق التاريخ البشري وانتشاره بين كل البشر وأنه أقوى العوامل المؤثرة في السلوك البشري حيث تقول: (( والآن سنطبق درس الناتج العرضي على السلوك الديني في الانسان . هناك عدد هائل من الناس ، يصل لمائة بالمائة في بعض المناطق ، من المؤمنين بأمور تعارض العلم بكل وضوح وتنافس اعتقادات دينية متبعة من قبل آخرين . ولا يحفظ الناس هذا الايمان بشغف فحسب ، بل يخصصون له وقتا ومصاريف غالية ، يموتون من أجله او يقتلون غيرهم من أجله ، نحن نعجب لذلك ))<sup>١</sup> . ومع ذلك تزعم أنه أصل الدين كان ناتجا عرضيا للانتخاب الطبيعي ، وأنه طفرة مضرّة وخطأ نسخ في الميمات الثقافية ، على غرار خطأ النسخ في الجينات الوراثية ، فهو كما تقول الطفرة الأخطر والأسوأ في الكون ولكنها استمرت كإنجراف ثقافي ، رغم أنف قانون البقاء للأصلح، بالصدفة وضربة حظ . انت تنسف الدارونية من حيث تريد ترقيعها ، ها انت تنتكس وتقر الصدفة والعشوائية ، وها انت تحطم قانون البقاء للأصلح في سبيل عقلنة وهمك الالهادي ، أنت تقر بأن الدين فطرة ولكنك تزعم انها فطرة سيئة مشوهة ، فأية طفرة مضرّة هذه عُجنت بها فطرة البشر وتحدث قانون الطبيعة بما لا مثيل له في الطفرات مطلقا حتى تلك التي تعدونها طفرات نافعة ؟ وأية قوة لهذا العامل (( الدين )) الذي يتحكم بسلوك كافة البشر متحديا كافة المحاولات الشرسة لتقويض سلطانه منذ ملايين السنين ؟ إنما هو الحق من ربك ، وفرضيتكم وترقيعكم سفسطة وجعجة إعلامية ، إن علت بدعم مؤسسات الالهاد برهة من الزمن فلا تلبث أن تزول كما زال مثلها دائما ((كذلك يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ))<sup>٢</sup> . إنما الدين فطرة لا طفرة .

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، الفصل الخامس ، ص ١٧٤

<sup>٢</sup> - سورة الرعد

## هل توجد ملازمة بين التطور و الإلحاد ؟

ان فرضية تطور انواع الكائنات وانبثاقها من بعضها البعض قديمة جدا في الخيال البشري ، ويمكن اعتبار القصص عن حوريات البحر والثور المجنح وغيرها ، هي من الامثلة الشعبية على هذا الخيال التطوري . كذلك نص البعض في الفكر الاسلامي على مسألة التدرج التكويني التصاعدي لرتب الموجودات وإن لم يقل بانبثاق بعضها من بعض ، كابن خلدون في مقدمة تأريخه حيث قال : (( ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتداء من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج. آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش، وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الانسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده ، وهذا غاية شهودنا ))<sup>١</sup> ، بل إن مسألة تدرج مراتب كمال التكوين الوجودي للأنواع هي من ثوابت الفكر الاسلامي وقد نص عليها القرآن في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) ))<sup>٢</sup> ومما اشار اليه صاحب تفسير الميزان في تفسير هذه الآية قوله : ((الإنسان يختص من بين الموجودات الكونية بالعقل و يزيد على غيره في جميع الصفات و الأحوال التي توجد بينها والأعمال التي يأتي بها. و ينجلي ذلك بقياس ما يتفطن الإنسان به في مأكله و مشربه و ملبسه و مسكنه و منكحه و يأتي به من النظم و التدبير في مجتمعه ، و

١ - مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون ، ص ٤٠

٢ - سورة الاسراء

يتوسل إليه من مقاصده باستخدام سائر الموجودات الكونية ، و قياس ذلك مما لسائر الحيوان و النبات وغيرهما من ذلك فليس عندها من ذلك إلا وجوه من التصرف ساذجة بسيطة أو قريب من البساطة ، و هي واقفة في موقفها المحفوظ لها يوم خلقت من غير تغير أو تحول محسوس ، وقد سار الإنسان في جميع وجوه حياته الكمالية إلى غايات بعيدة و لا يزال يسعى و يرقى. و بالجملة بنو آدم مكرمون بما خصهم الله به من بين سائر الموجودات الكونية و هو الذي يمتازون به من غيرهم و هو العقل الذي يعرفون به الحق من الباطل و الخير من الشر و النافع من الضار ))<sup>١</sup> .

وفي الفكر المسيحي قال بعض الباحثين قبل دارون بفرضية التطور بمعنى نشوء الانواع من بعضها البعض ، منهم جان لامارك وجيفري سان وروبرت غرانت و ألفرد والاس زميل دارون ، والعديد من العلماء الآخرين . فعالم الاحياء الفرنسي جان لامارك (( توفي ١٨٢٩م )) قد طرح فرضيته عام ١٨٠٩م في العام الذي وُلد فيه دارون ، وقد اعتمدت فرضية لامارك على مبدأين ، الأول كان مبدأ الاستعمال والإهمال ، وهو فكرة أن أعضاء الجسم التي تُستعمل مرارًا تصبح أقوى وأكبر، بينما الأعضاء التي لا تُستعمل تضمحل تدريجيًا ثم تختفي. والمبدأ الثاني هو وراثة الخصائص المكتسبة وهو الفكرة التي تشير إلى أن التعديلات والتغيرات التي تقع أثناء فترة حياة كائن بحسب مبدأ الاستعمال والإهمال سوف تنتقل إلى نسله. ومثاله الشائع كان الزرافة ، فقد زعم أن رقبة الزرافة اصبحت طويلة نتيجة لقيام الأسلاف من الزرافات بمدّ رقابها إلى مسافات أعلى فأعلى أثناء محاولة الوصول إلى فروع الأشجار العالية لأكل اوراق الاشجار ، وأنه بمرور الزمن تمددت رقبتها شيئًا فشيئًا مع توريث هذا التمدد المكتسب ، وقد سميت هذه الفرضية في التطور باسم اللاماركية<sup>(٢)</sup> . إلا ان تشارلز داروين (( توفي ١٨٨٢م )) في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي أخرج مسألة التطور من دائرة الخيال الشعبي والرؤية الفلسفية والفرض القائم على مجرد الملاحظة العابرة الى دائرة

<sup>١</sup> - تفسير الميزان ، العلامة الطباطبائي الحكيم ، ج ١٣ ص ١٦٥  
<sup>(٢)</sup> راجع : الموسوعة البريطانية ، مادة (( اللاماركية - Lamarckism ))

الفرض العلمي ، وذلك باقتراح آلية جديدة للتطور هي ((الاصطفاء الطبيعي)) ، مع قيامه بتجميع الشواهد باستقراء عينات كثيرة من الكائنات الحية والمتحجرة ، ونشر عمله هذا في كتابه (( اصل الانواع )) وذلك بعد رحلة استكشافية دامت اربع أو خمس سنوات حول العالم على متن سفينة بيجل ، ثم من بعد دارون تطور علم الاجنة و الهندسة الوراثية والانثربولوجي فزاد في اقتراح اليات التطور وعزز شواهدة ، فالتطور الداروني أو الدارونية في حقيقتها هي : خصوص الفرضية التي تزعم ظهور الانواع من بعضها البعض ، وانحدارها من سلف مشترك عند تراكم التغيرات بشكل تصاعدي عبر ملايين السنين ، نتيجة اصطفاء الطبيعة والتفاعل مع العوامل البيئية والطفرات الوراثية .

ولكن اصحاب الخيال الشعبي واصحاب الرؤية الفلسفية كابن خلدون واصحاب الرؤية البيولوجية كلامارك لم يربطوا بين التطور والالحاد . يجادل بعض زعماء الالحاد الداروني المعاصر فيزعم ان لفرضية دارون خصوصية خاصة ، توجب الالحاد وتنقض الدين وهي آلية الانتخاب الطبيعي ، التي تنفي الحاجة لوجود الاله الخالق العليم الحكيم . لكن هذه الحجة يبطلها بعض الملاحدة المختصين الذين رفضوا فرضية دارون ، و يبطلها بعض الملاحدة المختصين الذين قبلوها ولكن لم يجدوا تعارضا بينها وبين الدين ، و يبطلها بعض المؤمنين المختصين الذين قبلوها مع الايمان بالدين .

فهذا الدكتور ديفيد بيرلنسكي ، استاذ الفلسفة والرياضيات في الجامعات الاميركية والفرنسية ، وعضو بارز في مركز العلوم والثقافة من معهد ديسكفري ، ورأيه الديني لا أدري ، فهو ملحد لا أدري من اصل يهودي ، ولكنه اصطف مع المؤمنين للدفاع عن الدين ، بسبب ما رآه من هجوم غير مبرر وضجيج اعلامي باطل للملاحدة باسم العلم كما يذكر هو ذلك في كتابه (( وهم الشيطان – الالحاد ومزاعمه العلمية )) فيقول في المقدمة : (( أنا يهودي علماني ، وتعليمي الديني لم يثمر كثيرا إذ بالكاد اتذكر كلمة عبرية واحدة ولا استطيع الصلاة ... ومع ذلك فالكتاب الذي بين يديك هو باعتبار ما دفاع عن الفكر الديني وعاطفته ... والحاجة ماسة الى

الدفاع لأنه لم يتقدم لذلك أحد . إذ قد ترك نقاش هذا الامر لأشخاص يزدرون المعتقد الديني بصيبانية ... في مقابل عجز العلم عن الادلاء بشيء ذي بال حول الاسئلة العظيمة والمؤلمة عن الحياة والموت والمعنى ، توفر التقاليد الدينية لبني الانسان معمارا فكريا متماسكا حيال هذه القضية . إن توقان الروح الانسانية ليس عبثا ، هناك نظام اعتقادي يتسع لتعقيدات الخبرة ، يوجد ثواب للمعاناة ويعتمل في الكون مبدأ يتخطى معنى السفه ، سيكون كل شيء على ما يرام ، لا أعلم إن كان شيء من هذا صحيحا ، ولكنني على يقين أن المجتمع العلمي لا يعلم أنه خطأ ))<sup>١</sup> ، وهو ناقد شرس لفرضية التطور الداروني ويرفض التنظير بخصوص بداية الحياة ، يقول في الفصل التاسع الذي خصصه لنقد الدارونية : (( تنشأ الشكوك حول نظرية دارون لسببين : الاول النظرية لا تكاد تعني شيئا ، والثاني تدعمها أدلة شحيحة ))<sup>٢</sup> فهي عنده فرضية فارغة من المحتوى العلمي ، ولا شيء عندها تقدمه للعلم ، ولا ربط لها بالإلحاد في ذاتها ، ولكنها تقدم للبلهاء آيدولوجية تقوم الطبيعة فيها بوظيفة الله ، وهذا الأمر هو الذي استدعى تصفيقا حارا لها من مؤسسات الإلحاد ، وبالطبع يجادل الملاحدة بأن بيرلنسكي هو يهودي مؤمن يكتم ايمانه ليقضي على التطور الداروني .

وهذا الملحد البريطاني خبير الفيزياء والرياضيات والفلك فريد هويل (( توفي ٢٠٠١ م )) ، الذي ذكرنا سابقا رفضه فرضية مفردة التمدد الكوني وأنه هو من أسماها ((الانفجار الكبير)) من باب السخرية وافترض النشوء المتواصل للمجرات ، هو أيضا هنا يرفض فرضية أصل نشوء الحياة في الارض بالانتخاب الطبيعي ، ويشبهها ساخرا بقيام زوبعة بصناعة طائرة بوينغ من كومة خردة ، ويذهب الى افتراض مجيء الفايروسات وربما اشكال الحياة الاخرى الاكثر تعقيدا من الفضاء بواسطة المذنبات الى الارض ، ويرى أن متابعة التفكير المستقيم في هذه المسألة ، ودون المبالاة بالخوف من مخالفة الرأي العلمي السائد ، تؤدي إلى استنتاج مفاده أن المواد البيولوجية بما تحويه من قياس ونظام يجب أن تكون ثمرة

١ - وهم الشيطان ، ديفيد بيرلنسكي ، المقدمة ، ص ١٩-٢٣

٢ - المصدر السابق ، الفصل التاسع ، ص ٢٣٠

تصميم ذكي<sup>(١)</sup> ، وبالطبع يجادل الملاحدة بأن فريد هويل هو ملحد فلكي خرف وليس مختصا في علم الاحياء .

وهذا الملحد يهودي الاصل جبيري فودور بروفيسور واستاذ للفلسفة في الجامعات الاميركية ومشهور عندهم كعالم لغة ، و زميله الملحد ماسيمو بياتيلي بروفيسور العلوم المعرفية واللغويات وعلم النفس والاسس البيولوجية للغة وتطورها في الجامعات الاميركية ، صنفاً في تهافت الدارونية بالانتخاب الطبيعي كتابهما ((ما الذي أخطأ فيه داروين ؟ )) ، وقد صدرا كتابهما بالتصريح بالحادهما فقالا : (( هذا ليس كتابا عن الله ، ولا عن التصميم الذكي، ولا عن الخلق ، ليس أيا من أحدنا متورط في شيء من ذلك ، لقد ارتأينا أنه من المستحسن أن نوضح هذا منذ البداية ، لأن رأينا الأساسي فيما سيأتي يقضي بأن هناك خطأ ما - وربما خطأ لدرجة قاتلة - في نظرية الانتخاب الطبيعي ))<sup>٢</sup> . وكالعادة جادل الملاحدة بأن جبيري فودر يهودي يكتم ايمانه ، وأنهما ليسا مختصين بعلم الاحياء التطوري . قلنا : ولكننا هنا لا نريد اثبات رفض علماء الاحياء لفرضية التطور الداروني ، وانما نريد اثبات أنه لا توجد ملازمة بين ذات الفرضية والدعوى الالحادية . قالوا : أنهما لم يفهما النظرية جيدا . فقلنا : اذا كان ملاحدة أمثال بروفيسور في علوم اللغة واسسها البيولوجية في اميركا وبروفيسور في الفيزياء والرياضيات والفلك في بريطانيا ، لا يفهمون نظرية دارون جيدا ، فعلى أي اساس انتم تدعون فهمها وتروجون بها للإلحاد بين العامة من الناس ؟ وإن كنتم تريدون الملحد التطوري المتخصص بالدارونية ، فخذوا اليكم الشاهد التالي .

ستيفن جاي جولد (( توفي ٢٠٠٢ م )) الملحد الاميركي من اصل يهودي ايضا ، هو عندهم أكبر عالم احياء تطوري متخصص في علم الاحافير وتأريخ العلوم في القرن العشرين ، بروفيسور في جامعة هارفارد الاميركية ، ورئيس الجمعية الاميركية للعلوم ، ورئيس جمعية

(١) راجع : التطور من الفضاء ، فريد هويل ، ص٢٧-٢٨

- قاموس اكسفورد علم الفلك ، مادة (( فريد هويل ))

٢ - ما الذي أخطأ فيه دارون ؟ ، جبيري فودور و ماسيمو بياتيلي ، ص١٥

الاحافير ، وغيرها من المناصب الدارونية ، الحائز على عدة جوائز منها جائزة (( الاسطورة الحية )) من مكتبة الكونغرس الاميركي ، وهو المحامي الشرس لتبرير التطور الداروني وترقيعه بالفرضيات كفرضية التوازن المتقطع التي ذكرناها سابقا ، وصاحب المؤلفات والمقالات التطورية الاشهر . هذا الملحد التطوري المختص بالدارونية والاعرف بها تنقل الموسوعة البريطانية عنه فتقول : (( في كتاب "صخور الأعمار: العلم والدين في ملء الحياة" ( ١٩٩٩ ) ، رفض جولد ، الذي كان آنذاك رئيساً للجمعية الأمريكية لتقدم العلوم ، عمل الأفراد الذين حاولوا دمج العلم والدين . وفقا لجولد ، لم يكن العلم والدين في حالة حرب مطلقا ، لكنهما يجب أن يظلا منفصلين ))<sup>١</sup> . فمسألة اختصاصه بالدارونية مشهور ، وموقفه من عدم تعارض التطور الداروني (( العشوائي )) مع الدين مشهور ايضا ينقله الكثيرون ، ومسألة الحاده معروفة ، فإن جادل الملاحدة بأنه يهودي مؤمن يكتم ايمانه ، يكفيننا الزامهم بإقرارهم أنه داروني متخصص ومؤمن بالله لأثبات المطلوب ، وهو بطلان الملازمة بين اصل الدارونية والإلحاد .

أما بالنسبة للمؤمنين بالله الذين يصرحون بإيمانهم ، و في ذات الوقت يتمسكون بالتطور الداروني فهم كثيرون ، وهم اصحاب فكرة (( التطور الموجّه )) أي دعوى أن تطور الانواع بالاصطفاء الطبيعي الداروني والطفرات ، هو أمر موجه ومقصود من الله وليس عشوائيا ، فهم يقرون اصل التطور الداروني أي انبثاق الانواع من بعضها البعض من سلف مشترك ، كما يقرون اليات التطور الدارونية واهمها العوامل الطبيعية والطفرات الوراثية ، ولكنهم يرفضون كون هذا الآليات تعمل بصورة عشوائية غير موجهة من الله . ومن اشهر هؤلاء كينيث ميلر الدكتور الأستاذ في الجامعات الاميركية ، هو أمريكي مسيحي كاثوليكي مختص بعلم الوراثة وعلم الأحياء الخلوي والبيولوجيا الجزيئية ، وهو معروف بمعارضته لفكرة الخلق الاستقلالي للأنواع ، بما في ذلك فكرة التصميم

<sup>١</sup> - الموسوعة البريطانية ، مادة (( ستيفن جاي جولد ))

الذكي وقد كتب حول هذا الموضوع كتاب ((العثور على اله داروين)) وهو يرى فيه ان قبول التطور الداروني متوافق مع الإيمان بالله ، وأنه لا يرى معارضة بين التطور الداروني وعقيدته المسيحية الكاثوليكية(١) .

ومن اتباع (( التطور الموجّه )) فرانسيس كولنز عالم الجينات الامريكي الأشهر ، وعضو الاكاديمية الاميركية للعلوم ، ومدير مشروع الجينوم البشري اعقد واعمق مشروع بيولوجي على الاطلاق ، وهو المشروع الذي تولى دراسة الخارطة الجينية للبشر ، وقد تكلمنا عنه سابقا، هذا الرجل هو مسيحي مؤمن وهو عضو الاكاديمية البابوية للعلوم ، وهو من اتباع التطور الموجه ، ويرفض عقيدة الخلق الاستقلالي كما يرفض فكرة التصميم الذكي ، ولكن قيل انه من اتباع التصميم الذكي ، وقد صنف في ذلك كتابا بعنوان (( لغة الإله – عالم يقدم دليلا على الايمان )) وفيه يعلن عن عدم التعارض بين التطور الداروني والايمان ، حيث يشرح في المقدمة كيف وقف بجانب الرئيس الاميركي كلنتون في مطلع القرن الحادي والعشرين سنة ٢٠٠٠م ، ليشرح للعالم طبيعة مشروع الجينوم وغاياته ونتائجه ، ويقول أن الرئيس كلنتون قد ربط بين العلم والدين في خطابه مما أثار دهشة البعض ، وأنه لأجل الرد على توهم التناقض بين العلم والدين صنف هذا الكتاب ، فيقول : (( هذه المشاعر قد تكون محيرة للبعض الذين يفترضون أن العالم الجاد لا يمكن أن يكون مؤمنا حقيقيا بالله المتعالي . هذا الكتاب هو لدحض هذه الفكرة ، وذلك من خلال القول أن الايمان بالله يمكن أن يكون عقلانيا تماما ، وأن مبادئ الايمان في الحقيقة تتكامل مع مبادئ العلم ))<sup>٢</sup> . ثم يشرح في الفصل الاول كيف أنه نشأ فعلا في عائلة لا دينية وشب ملحدا لا أدريا ، ثم أهدى للأيمان بعد أن برع في علوم الرياضيات والكيمياء والاحياء والفيزياء والطب ، وكما هو واضح من العنوان (( لغة الاله )) فإنه يقصد نقض كتاب (( وهم الاله )) لنجم الالحاد الداروني الذي يضل العامة ويصادر إيمان العلماء . فرانسيس

(١) راجع : توقيع في الخلية ، ستيف ماير ، ص ٥٨٠

٢ - لغة الإله ، فرانسيس كولنز ، المقدمة ، ص ١١

كولنز من حيث تخصصه وقيمته العلمية وفق المقاييس الغربية ، لا يرقى ريتشارد دوكنز وجميع ملاحدة التطور الداروني الى قلامة ظفره .

في مقابل جماعة التطور الداروني بكلا قسميه : التطور الداروني (العشوائي) والتطور الداروني (الموجّه) ، يقف جماعة نظرية (( التصميم الذكي )) يدعمهم مركز العلم والثقافة التابع لمعهد ديسكفري في اميركا ، وهؤلاء يعتقدون أن تصميم الكائنات الحية هو أعقد مما يمكن اختزاله بالتكيف البيئي و تنازع البقاء والطفرات الوراثية والانجراف الوراثي ، وانما هو دال على وجود مصمم حكيم متقن لعمله ، من دون أن يشخصوا ذات المصمم . و هؤلاء منهم ملاحدة مثل ديفيد بيرلنسكي الذي ذكرناه سابقا مؤلف كتاب (( وهم الشيطان )) ، ومنهم مؤمنون بالله مثل ستيفن ماير مؤلف كتاب (( توقيع في الخلية )) ، و وليم ديمبسكي مؤلف كتاب (( تصميم الحياة )) ، وجوناثان ويلز مؤلف كتاب (( ايقونات التطور )) ، ومايكل بيهي مؤلف كتاب (( صندوق داروين الاسود )) . وهم عموما على قسمين ايضا : قسم جماعة التصميم الذكي التطوري وهم الذين لا يرون تعارضا بين أصل مفهوم التطور وهو ( نشوء الانواع من سلف مشترك) وبين أن يكون ذلك بتصميم وتدخل مباشر من مصمم ذكي ، أي أنهم يرفضون فقط آليات التطور الداروني الاصطفاء الطبيعي والطفرات ، فيكون معنى التطور النوعي عندهم هو ظهور دفعي مباشر للنوع من نوع سابق ، كحالة انجاب ولد لا يشبه والديه ، وليس بمعنى ظهور النوع بالتدرج بالتفاعل مع البيئة والصراع من اجل البقاء لأفراد نوع سابق عبر ملايين السنين ، بخلاف اتباع التطور الداروني الموجّه الذين يقبلون آليات الدارونية ولكنهم يقولون أنها موجهة مقصودة من الله ، علما أن مجرد القول أن آليات التكيف البيئي والاصطفاء والطفرات موجهة من الله هو مجرد لغو ، لا يغير من الواقع العبثي لآليات التطور الداروني شيئا ، فهي في حد نفسها آليات عبثية وغير ثابتة كما اوضحنا سابقا. و من اشهر اتباع التصميم الذكي التطوري مايكل بيهي وهو عالم الكيمياء الحيوية الكاثوليكي الاميركي ، ينص في كتابه : (( بلْ إنني أجدُ فكرة السلفِ المشترك - كل الكائنات ذات سلف مشترك - مقنعة بشكلٍ مقبول وليس

لدي سببٌ معينٌ للشك فيها... رغم أن الآلية الداروينية - الاصطفاء الطبيعي المعتمد على الاختلاف - قد تشرح العديد من الأشياء ، لكن لا أعتقد أنها تفسر الحياة الجزيئية ((<sup>١</sup> فهو يتقبل أصل مفهوم التطور ( النشوء من سلف مشترك ) ولكنه يرفض كفاية آلية الاصطفاء الطبيعي والظفرات لتفسير التصميم العظيم للخلية الكاشف عن وجود مصمم أعظم

أما القسم الثاني من جماعة التصميم الذكي ، فهم جماعة فكرة ( التصميم الذكي الاستقلالي ) الذين يعارضون فرضية التطور جملة وتفصيلا ، أي كمفهوم وكآليات ، ويعتقدون أو يؤيدون الإيجاد الاستقلالي للأنواع ، ومن هؤلاء الملحد اللا أدري ديفيد بيرلنسكي الذي نقلنا موقفه المشكك بالتطور الداروني والمؤيد للتصميم للذكي الاستقلالي من كتابه (( وهم الشيطان - الإلحاد ومزاعمه العلمية )) ، ومنهم الدكتور عالم الفلسفة والرياضيات وليم ديمبسكي وزميله الدكتور جوناثان ويلز عالم الأحياء المتخصص في البيولوجيا الجزيئية ، وكلاهما مؤمن بالله وقد صنفا كتاب (( تصميم الحياة - اكتشاف علامات الذكاء في النظم البيولوجية )) وفيه يعرضان موقف جماعة التصميم الذكي بكلا قسميه : التصميم التطوري بالمعنى الذي بيناه ، والتصميم الاستقلالي ، ويظهر من كلامهما تأييدهما التصميم الاستقلالي ، فيقولان : (( وبغض النظر عما إذا كان أحدا مؤمناً بالخلق - كما في الإنجيل - أو ملحدا داروينياً أو أي شيء بينهما؛ فإن الجميع متفق على أن الإنسان لم يخلق من عدم ، وإنما جاء من مادة أخرى ... وبهذا الاعتبار يكون البشر والقروء طيناً معدلاً ، هذه هي الحقيقة بغض النظر عما إذا كان البشر قروءاً معدلة أو لا. يتوافق التصميم الذكي مع هذه الإمكانية ، وهناك من أنصار التصميم الذكي من يرفض هذه الإمكانية ، إلا أن أنصار التصميم الذكي الذين يقبلون فكرة انحدار الإنسان من الرئيسيات - كأسلاف - لا يقبلون بأن التطور ناتج بطريقة عشوائية... هناك سبب وجيه للتفكير بأن الإنسان لم ينتج بعملية إعادة تصميم ، وأن تصميم البشر قد بدأ من

<sup>١</sup> - صندوق دارون الاسود ، مايكل بيهي ، القسم الاول ، الفصل الاول ، ص ٢٣

الصفحة ... لم يصل منظرو التصميم الذكي لتوافق حول كيفية ظهور البشر، إلا أنهم متوافقون حول ضرورة الذكاء في تفسير أصله، بغض النظر عن العملية التي ظهر من خلالها الإنسان<sup>١</sup> .

### \* الخلاصة

إن عندنا أربع جماعات : جماعة التطور الداروني العشوائي أمثال ريتشارد دوكنز وهو ملحد ، وعندنا جماعة التطور الداروني الموجه أمثال كينيث ميلر وهو مؤمن ، وعندنا جماعة التصميم الذكي التطوري أمثال مايكل بيهي وهو مؤمن ، وعندنا جماعة التصميم الذكي الاستقلالي أمثال جوناثان ويلز وهو مؤمن ، وكل واحد من هذه الاسماء هو متخصص في علم البيولوجيا . من جهة اخرى يوجد ملاحظة يرفضون الدارونية أمثال فريد هويل و جيرى فودور و ماسيمو بياتيلي وديفيد بيرلنسكي ، وعندنا ملاحظة يقبلون التطور الداروني العشوائي ولكن لا يرونه معارضا للدين مثل ستيفن جاي جولد ، وعندنا مؤمنون يقبلون التطور الداروني الموجه مثل فرانسيس كولنز ، وعندنا مؤمنون يقبلون التصميم الذكي التطوري مثل مايكل بيهي .

هذا معناه تهافت الملاحظة عموما ، وتهافت التطوريين خصوصا ، وأن الدعوة للإلحاد باسم الدارونية ، التي يقودها بعض ملاحظة الدارونية العشوائية أمثال ريتشارد دوكنز ، هي دعوة باطلة في نفسها ولا علاقة للعلم بها ، و هي تضليل اعلامي تقوده مؤسسات الالحاد العالمي لأجل خداع بسطاء الوعي والخبرة ، ولأجل إعطاء مبرر علمي مزيف للملاحظة يسترون به دوافعهم الحقيقية للإلحاد . فدارون نفسه لم يلد كنتيجة لفرضيته ، بل هو كان ملحدا قبلها لأسباب نفسية اسرية معتقدا بالمذهب المادي الذي يقول بأصالة المادة ويرفض وجود اي شيء ما وراء المادة ، ولأجل ذلك فبرك مزاجه الالحادي هذه الفرضية كي يبرر لنفسه الحادها ، كما يشير الى ذلك الملحد ستيفن جاي جولد المحامي عن الدارونية

<sup>١</sup> - تصميم الحياة ، وليم ديمبسكي و جوناثان ويلز ، الفصل الاول ، ص ٥١-٥٢

العشوائية ، وهو يشرح سبب تأخر دارون اكثر من عشرين سنة لإعلان فرضيته ، حيث يقول أن مذكرات دارون المتقدمة تبين أنه قد أُلحِد قبل استنتاج فرضية التطور بالانتخاب الطبيعي فمذكراته (( تشمل العديد من المقولات التي تبين انه اعتنق أمرا اكثر بدعية من فكرة التطور نفسها ، ولكنه يخشى الافصاح عنه : المادية الفلسفية ، وهي الفرضية القائلة بأن المادة جوهر وجود الاشياء ، وأن كل الظواهر العقلية والروحية ناتج عرضي ))<sup>١</sup> .

وقد عرضنا فرضيات التطور البيولوجي عموما ، وفرضية التطور الداروني خصوصا مع الآليات والأدلة ، وكما رأيتم فهي جميعا مع تهافتها فإن أدلتها أما واهية ضعيفة أو باطلة جملة وتفصيلا ، ولا يقوم شيء منها على دليل يصلح كحجة شرعية لمعارضة ظاهر القرآن الكريم بالخلق الاستقلالي للأنواع الحية عموما وللإنسان خصوصا ، ولهذا فنحن لسنا بحاجة أصلا للتوفيق بين ظاهر القرآن الكريم بحسب فهمنا له وفق القواعد الشرعية والضوابط الاصولية المقررة في محلها ، وبين فرضيات التطور بجميع اشكالها ، لأن الحاجة لذلك إنما تكون عند ثبوت الحجة الشرعية لفرضيات التطور وهي مفقودة كما أوضحنا ، والمعارضة الظاهرية التي تحتاج الى الرفع بالتوفيق والجمع بين دليلين ، إنما تكون بين الدليلين اللذين يكون كل منهما هو حجة شرعية في حد نفسه ، أي يلزم الاعتماد عليه والاحذ به والعمل عليه شرعا في حد نفسه لولا وجود دليل آخر معارض ، وليس بين دليل ثبتت حجيته شرعا كظاهر القرآن ، وبين دليل لم تثبت أصلا حجيته في حد نفسه شرعا كالتطور بجميع فرضياته وصوره .

<sup>١</sup> - منذ زمن دارون ، ستيفن جاي جولد ، الباب الاول ، الفصل الاول ، ص ٣٣

## الفصل الرابع

### الأخلاق بين الدين والإلحاد

نحن نعتقد جازمين أن الإلحاد يستهدف أولاً وبالذات تقويض منظومة الأخلاق الفاضلة ، ونعتقد أن الاخلاق فطرة إلهية ، وأنها مطلقة وليست نسبية . بينما يزعم الملاحدة أن الدين هو الذي يعارض الاخلاق الفاضلة ، وأنها صناعة بشرية ، وأنها متغيرة نسبية . وعند اطلاقنا على اقوال زعماء الملاحدة ، وعند توجيهنا سؤالاً لجماعة الملحدين عن حقيقة الاخلاق وتفسيرها بحسب مدارس الالحاد وعن معيار الحكم بالحسن والقبح على فعل ، وجدناهم يتخبطون ولا يميزون بين الاخلاق والسلوك الاخلاقي ، وبين الاخلاق والآداب ، وبين الثابت والمتغير ، وبين الاخلاق كفطرة و كتعليم ديني .

## حقيقة الأخلاق

الأخلاق قيم روحية وملكات نفسية ، أي صفات راسخة في النفس يصعب زوالها ويصدر عنها الفعل دون تكلف ، وهي تنقسم الى فضائل كالعدل والشجاعة والحكمة والعفاف ، وردائل كالظلم والجبن والسفاهة والمجون . فلا يقال للظالم بأنه عادل إذا حكم بالعدل مرة بل يقال أنه أظهر العدل ، ولا يقال لمن أظهر الشجاعة مرة أنه شجاع بل يقال أنه يتشجع ، وهذا دليل على أن الخلق هو صفة نفسية ثابتة وليس حالة طارئة . أما الفعل فهو السلوك العملي وهو قد يطابق الخلق الذي هو صفة نفسية وقد لا يطابقه ، فربما كان الشخص عادلاً ولكن يمارس الظلم احياناً ، وربما كان الشخص صادقاً ويمارس الكذب احياناً ، فالخلق غير الفعل الاخلاقي ، ولكن لأن الأفعال تصدر عادة وفق مقتضى الخلق يحصل الاشتباه أو التسامح المجازي في إطلاق صفة الخلق النفسي على الفعل من باب اطلاق لفظ السبب على النتيجة ، فيقال لفعل غصب الاخرين حقهم : هذا ظلم ، مع أن الظلم هو الخلق النفسي والقيام بغصب الاخرين حقهم هو فعل

، فهما متغايران ولا ملازمة بينهما فقد يكون الشخص ظالما ويظهر العدل ، احيانا ، وقد يكون عادلا ويصدر منه الظلم احيانا .

أما الآداب الحسنة فهي عادات وتعليمات سلوكية يقصد بها تهذيب السلوك وتحسينه وتجميله ، كالقيام عند حضور المعلم وكعدم رفع الصوت بدون حاجة وكاحترام الأصغر سنا للأكبر وعطف الأكبر سنا على الأصغر . هذه الآداب ليست صفات نفسية راسخة بل هي عادات سلوكية يتم اكتسابها بالممارسة والتعليم ، والغاية منها تحسين السلوك .

## أشهر مذاهب الملاحظة في الاخلاق

١- أخلاق عصر التنوير - مذهب التعاطف : ابرز ملحد كتب في الاخلاق في عصر التدمير هو الاسكتلندي ديفيد هيوم (( مات ١٧٧٦ م )) ، الذي تكلمنا عنه سابقا في بحث العلمانية والثورة الفرنسية ، حيث صنف (( تحقيق في مبادئ الاخلاق )) وعرف الفضيلة بأنها (( الصفة التي توجب منفعة أو لذة للشخص أو غيره )) أما اصل الاخلاق ومصدر الحس الاخلاقي عنده فهو ليس الكتاب المقدس كما يذهب اللاهوت المسيحي ، وليس العقل كما يذهب الفلاسفة العقلانيون ، بل هو مبدأ التعاطف والتجاذب بين البشر، فالبشر منذ القدم شعروا بالحاجة لبعضهم البعض فامتدحوا التصرفات النافعة للجماعة و ذموا التصرفات الضارة بها ، ثم إن مبدأ التعاطف جعلهم يميلون إلى تقبل أو محاكاة الآراء التي سمعوها من حولهم ، وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم، وطبقوا هذه الأحكام بوعي أو بلا وعي على سلوكهم ، وعلى هذا فحقيقة الأخلاق عنده أنها حاجة اجتماعية قائمة على مبدأ تبادل المنفعة ، و منشأ الأخلاق هو عاطفة التجاذب و المحاكاة (١) .

(١) راجع : قصة الحضارة ، ج٣٥ ص٢٠٩-٢١٤

ويرد عليه أنه قد فسر الاخلاق على اساس المنفعة واللذة ، وهو خلاف ما يشعر به الشخص في وجدانه بأنها كمالات روحية مستقلة غير خاضعة لمبدأ المنفعة واللذة الذي تهيمن عليه تصورات تجارية محضة ، كما أنه يعني أن الانسان كائن أناني بطبعه ولم يتعامل على أساس المصلحة المتبادلة إلا بسبب اضطراره للعيش في وسط الجماعة ، ولازم ذلك أنه إذا لم يضطر الى الآخرين فإنه لا معنى للتعامل مع الآخرين وفق الاخلاق الحميدة ، إلا من باب العادة الاجتماعية التي يتم تطبيقها بصورة غير واعية كما يقول ، وهذا خلاف الواقع فإن الانسان أول ما يشعر بجمال وكمال الاخلاق الحميدة فإنه يتكون عنده الوجدان الاخلاقي ويشعر بالنزوع والاندفاع النزيه نحو تطبيقها ، بدون حاجة الى الممارسة المتكررة والتعويد ، فهذا خلط بين الاخلاق والعادات الاجتماعية ، كما أن معنى كلامه أن الشخص الواعي لا يتحمل مسؤولية اخلاقية ولا يجب عليه الخضوع للعادة والالتزام الاخلاقي مادام لم يكن مضطرا الى ذلك ، وعلى اساس هذه الفلسفة المقيتة برر ديفيد هيوم لنفسه البقاء عازبا مع ممارسة الزنى والخيانات الزوجية ، وبرر لملاحدة عصر التدمير الاوربي في القرن الثامن عشر كافة أنواع الرذيلة والانحلال الاخلاقي والنفاق الاجتماعي ، فكانت هذه الفلسفة هي أول إحياء لفلسفة ابيقور الاخلاقية ، علما أن ديفيد هيوم بعد رفضه للدين ، لم يذكر منها لصيانة الفرد والمجتمع في حالة تصادم المنافع الشخصية .

٢- الاخلاق الرأسمالية - مذهب المنفعة المستنيرة : البريطاني جيرمي بنتام (( توفي ١٨٣٢ م )) ، مهندس الفكر العلماني الرأسمالي والاخلاق الرأسمالية في القرن التاسع عشر ، وهو زعيم القائلين بمذهب المنفعة المتنورة ، يعتقد أن اصل الاخلاق هو مبدأ اللذة والألم ، فالإنسان لا يتصرف إلا بهدف كسب لذة شخصية ودفع ألم شخصي فأصل الاخلاق بيولوجي نفسي . أما معيار اتصاف الفعل بأنه صائب حسن أو قبيح خاطئ فهو المنفعة المستنيرة ، أي إن كان الفعل يوجب منفعة خاصة للفاعل فهو حسن صائب بشرط أن لا يوجب ضررا للآخرين ، وإن كان يوجب ضررا للآخرين فهو قبيح خاطئ وإن كان فيه منفعة شخصية . والمسؤول

عن انسجام المنفعة الخاصة مع المنفعة العامة هو القانون بمراقبته وقصاصه ، وكذلك التربية للمنفعة الذاتية لها دور كبير في اصلاح الاخلاق والسلوك ، فإن المنفعة المستتيرة تجعل الانسان يرى منفعته الخاصة في الصالح العام غالباً(١) .

ويرد عليه ما ورد على مذهب ديفيد هيوم من أن تفسير الاخلاق على اساس مبدأ اللذة والمنفعة خلاف الوجدان الاخلاقي عند معظم البشر ، كما أن معيار تشخيص الفعل بأنه حسن أو قبيح بحسب المنفعة والضرر هو معيار غير منضبط ، بسبب اختلاف تشخيص المنفعة والضرر من شخص لآخر ، وعليه لا يكون هناك ميزان اخلاقي موحد للبشر مما يؤدي الى الفوضى الاخلاقية ، وهذا خلاف الواقع باتفاق معظم البشر على ضوابط السلوك الاخلاقي ، و جيرمي بنتام وإن كان تقدم على ديفيد هيوم باقتراح آليات صيانة و مراقبة السلوك الاخلاقي إلا أن هذه الآليات قاصرة وغير منضبطة في نفسها ، فألية القانون الوضعي بنصومه هي قاصرة في حد نفسها من حيث احتياجها الى الميزان الاخلاقي ، ومرجعية تشخيص النفع والضرر ، إلا بالاعتراف بهداية الفطرة الانسانية والوجدان الاخلاقي المشترك بين البشر ، واستقلال الاخلاق عن تصورات المصالح التجارية والتفريق بين الاخلاق والسلوك ، كما أن ادوات المراقبة والمحاسبة كالقضاء والشرطة يديرها البشر انفسهم ، وهم بحسب الاخلاق الرأسمالية خاضعون في اخلاقهم لمبدأ المنفعة والضرر وخاضعون للنصوص القانونية الفاقدة للمرجعية الاخلاقية حسب الفرض . أما الآلية الثانية لصيانة الاخلاق القائمة على المنفعة والضرر فهي تنوير المنفعة ، أي تربية الفرد على أن يعتقد أن منفعته الخاصة ينبغي أن تكون في ضمن المنفعة العامة ، ولم يقل مهندس الاخلاق الرأسمالية من الذي يربي الفرد على ذلك ومن الذي ربي من يربيه؟؟ وما الذي يدعو الشخص أن يربي نفسه وغيره على لزوم أن تكون منفعته ضمن المنفعة العامة ؟ فحسب فرض بنتام أن اساس الاخلاق هو بيولوجي نفسي غريزي وهو الذي

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( بنتام ، جيرمي )) ، ص ٩٦-٩٨

اقترح آلية المنفعة المستتيرة ، فمن أين جاء بهذا الاقتراح ومن الذي رباه عليه ؟ وما الذي دعاه أصلا الى اقتراحه ما لم يكن عنده وجدان اخلاقي عام وشعور بالمسؤولية الاخلاقية ، فما هو مصدر هذا الحس الاخلاقي العام ؟

٣- الأخلاق الشيوعية - المذهب الاقتصادي : نقصد به مذهب الشيوعية الماركسية في الاخلاق ، وهو يرى أن الأخلاق ما هي إلا انعكاس لنمط الانتاج والوضع الاقتصادي للمجتمع . يقول الماركسي جورج بوليتزر مؤسس مركز التوثيق التابع للحزب الشيوعي الفرنسي في بيان اصل الاخلاق : ((أنه على عكس ما يقوله المثاليون بأن الشعور عواطف أبدية خالدة في طبيعة الإنسانية ، بل هي منتوجات تاريخية تتولد من الملكية الخاصة. ويمتاز الإنسان البدائي بالإخلاص لمصالح القبيلة، والوفاء والثقة نحو سائر أعضاء القبيلة، ومن هنا نشأت خرافة "الفردوس المفقود". ولكن هذه "الفضائل" لم تكن نتيجة للطبيعة" العزيزة على نفس روسو بل كانت تعكس الأساس الاقتصادي ... فما الذي أدى إلى انحطاط الكومون البدائي، وظهور الطبقات؟ ليست هي طبيعة الإنسان الشرير كما تدعي النزعة المثالية بل هو نمو قوى الإنتاج كما تقول الماركسية ))<sup>١</sup> وعلى هذا الاساس تشكل الأخلاق احدى البنى الفوقية للمجتمع وتتبع الوضع الاقتصادي ، الذي يشكل البنية التحتية فتتبدل بتبدله وتزول بزواله (( يتولد البناء الفوقي عن الاساس ويزول معه ويكون مصيره مصيره ، اذ تتولد الافكار السائدة في مجتمع معين من نموذج ملكية وسائل الانتاج التي تسيطر فيه ، ليس البناء الفوقي اذن مجرد تراكم افكار سياسية ، تشريعية ، فلسفية ، دينية ، الخ ... ذلك لأن لهذه الافكار رابطا داخليا فهي تعكس نفس الاساس ))<sup>٢</sup> . فأخلاق مرحلة الشيوعية البدائية تختلف عن أخلاق مرحلة الملكية ، وأخلاق طبقة البروليتاريا تختلف عن أخلاق الطبقة البرجوازية ، واستمرار النضال الطبقي للعودة للمرحلة الشيوعية وأخلاقها الحميدة هو الآلية الوحيدة لتغيير اخلاق المجتمع ، حسب قولهم .

١ - اصول الفلسفة الماركسية ، جورج بوليتزر ، الدرس السابع عشر ، ج ٢ ص ٣٥

٢ - المصدر السابق ، الدرس التاسع عشر ، ج ٢ ص ٧٥

ويرد عليه أن هذه الرؤية للأخلاق مبنية على الفلسفة الشيوعية المادية الديالكتيكية ، التي تحصر حركة التاريخ في المحور الاقتصادي ، وهي فلسفة باطلة في نفسها لأن العوامل المحركة للتاريخ اشمل من العامل الاقتصادي ، ولأن هذه الفلسفة التاريخية تدعي زورا وجود مرحلة شيوعية مثالية في البشر قبل التاريخ ، أي قبل ظهور الملكية الخاصة حسب تعبيرهم وهو أمر لم يثبت تاريخيا ، ويرد عليه أيضا أنه يقر بأصالة الاخلاق الحميدة في الوجود البشري ما قبل التاريخ ، ويزعم أن سببها حالة المشاعة الاقتصادية ، وأنها انقلبت الى أخلاق رذيلة بصورة تلقائية نتيجة ظهور الملكية الاقتصادية وفائض الانتاج ، وهذا الكلام منقوض بوجود الكثير من التجار اصحاب ملكيات اقتصادية تجارية ومع ذلك يمتازون بالأخلاق الفاضلة كالعدل والرافة ، وبالعكس فهناك الكثير من العمال الكادحين الذين لا يملكون شيئا ومع ذلك يمارسون الظلم والبطش ، والمفروض أن اخلاق الشخص تابعة لطبقته و وضعه الاقتصادي ، فإن قلت أن هؤلاء العمال الأشرار قد اكتسبوا الأخلاق الرأسمالية السائدة لأنها أخلاق الطبقة المهيمنة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، قلنا : ولماذا غيرهم من العمال الفقراء لم يكتسبوا الاخلاق البرجوازية الشريرة السائدة حسبما تقول ؟ ثم نسأل ماركس و جميع المفكرين الماركسيين ما هو الميزان الاخلاقي الذي على اساسه حكتم بأن اخلاق المرحلة الشيوعية البدائية هي أخلاق فاضلة ، وأن أخلاق المرحلة الرأسمالية هي اخلاق سافلة ؟ انتم عثتم في عصر سيادة البرجوازية الرأسمالية فلماذا لم تتخلقوا بأخلاقها الشريرة ؟ أليس هذا دليلا على وجود وجدان اخلاقي عام بين البشر مستقل عن المرحلة والطبقة ؟ ثم أنتم قد حكتم الناس بالقوة في الاتحاد السوفيتي السابق ، وطبقتم فلسفتكم الاشتراكية ومذهبكم الاخلاقي وصادرتم الملكيات الخاصة ، وتسيد العمال في المجتمع والسلطة وجميع مفاصل الدولة في دكتاتورية البروليتاريا ، ولكن لم تنقلب اخلاق الناس الاشرار الى حميدة تلقائيا حسب المفروض ، بل لم تنقلب حتى بالقوة وبتش ستالين ، ولا بالتثقيف الشيوعي وخزعبلات لينين ، الى أن قام بعض القادة العمال بإسقاط الاتحاد السوفيتي وتفكيكه ، وكفى بذلك برهانا على فشل فلسفة الاخلاق الشيوعية .

٤- الأخلاق المزدوجة - مذهب المحبة وارشاد المعرفة : هذا المذهب للبريطاني برتراند رسل (( توفي ١٩٧٠م )) ، ابرز القائلين بفرضية الخوف في اصل الدين التي ذكرناها في الفصل الثاني ، وكما اضطربت توجهاته الفكرية والسياسية بين الديمقراطية الرأسمالية وبين الماركسية الثورية ، كذلك اضطرب مذهبه في تفسير الأخلاق ومعياريها . يرجح رسل أن اصل القواعد الاخلاقية هو الخرافات الدينية التي وضعها البشر ، ثم بعد ذلك امتزجت بدافع الرغبة في تحصيل المنفعة الذاتية ، وبذلك فالأخلاق الحالية - كما يرى - تشتمل على جزء غير عقلائي هو جانب الخرافة الدينية التي تضبط السلوك على أساس غضب ورضى الله دون وجود سبب منطقي علمي ، وعلى جزء عقلائي هو المنفعة على اساس الرغبة والحاجة الذاتية ، والجزء غير العقلائي هو المهيمن كما يقول : (( أن الأخلاق الراهنة هي خليط عجيب من النفعية والخرافية لكن للقسم الخرافي اليد العليا ، وهو أمر طبيعي نظرا لأن الخرافة هي أصل القواعد الأخلاقية ، إذ كان يعتقد أصلا أن بعض الافعال تزرع الآلهة ، وكان القانون يمنعها لأن الغضب الإلهي يمكن أن ينزل على المجتمع كله وليس فقط على الأفراد المذنبين . من هنا نشأ مفهوم الإثم ، باعتباره الفعل الذي يزرع الإله ، لكن ما من سبب يمكن أن يفسر بالنسبة لنا لماذا بعض الافعال مزعجة هكذا ... ثم سيجد ، خصوصا فيما يتعلق بالجنس ، أن أخلاقنا الحالية تتضمن قدرا كبيرا من الامور التي هي ذات منشأ خرافي (اسطوري))<sup>١</sup> . فهو لا يرى سببا منطقيا علميا لمنع وبغض الزنى والمثلية الجنسية والخيانة الزوجية بشكل مطلق (( هذا ويجب الاعتراف ، في غياب الاطفال ، أن العلاقات الجنسية هي مسألة خاصة جدا ، ولا تعني أحدا سواء أكانت دولة أو جيرانا . بعض اشكال الجنس التي لا تفضي الى انجاب الاطفال يعاقب عليها قانون العقوبات في الوقت الحاضر وهذا شيء خرافي تماما ... الاهمية الخاصة التي تعطى في الوقت الحاضر لارتكاب الزنى ، أمر غير عقلائي بتاتا ، إذ من الواضح أن الكثير من أشكال سوء السلوك هي أكثر فتكا بالسعادة الزوجية من عدم الإخلاص الذي يقع أحيانا

<sup>١</sup> - لماذا لست مسيحيا ؟ ، برتراند رسل ، ص ٨١

... كذلك ينبغي أن لا تكون القواعد الأخلاقية بحيث تجعل السعادة الغريزية مستحيلة ))<sup>١</sup> . ولهذا فهو يرى لزوم التخلص من الجزء الذي يعتبره خرافيا وغير عقلائي من قواعد الاخلاق ، وابقاء الجانب العقلاني المدفوع بالمنفعة الخاصة . ولأجل ضمان عدم حدوث مشاكل اجتماعية نتيجة صراع المنافع ، فإن رسل يشكك في جدوى آليات القوانين الحكومية وفكرة المنفعة المستتيرة التي اقترحها بنتام ، ويرى أن الدستور الاخلاقي الصالح يجب أن يقوم على الحب وارشاد المعرفة ، أي تربية وتهذيب أفراد المجتمع على محبة بعضهم بعضا ، وتعليمهم نبذ القواعد الخرافية الدينية واتباع ما ثبت منطقيا وعلميا منفعته ، يقول : (( إن الحياة الصالحة إنما تكون بالهام من الحب وإرشاد من المعرفة ، فإن من الواضح أن الدستور الاخلاقي لأي مجتمع لا يكون نهائيا ومكتفيا بذاته بل لابد من إخضاعه للتمحيص من حين لآخر مع التوجه لأن نرى ما إذا كان من الحكمة ونزعة الخير سن اشياء جديدة اخرى ))<sup>٢</sup> .

و يرد عليه أنك بعد إقرارك بفسوخ الأخلاق الفاضلة في الوجدان البشري ، وهيمنتها على السلوك بشكل عام ، تحكم بأن أكثرها قائم على الخرافة الدينية لأنك - بحسب زعمك - لم تجد سببا منطقيا أو تجريبيا يؤكد صحتها وبالتالي يجب رفضها . وهذا الحكم منك ينافي اخلاق العلم ، فالمفروض أنك فيلسوف منطقي وعالم رياضي ، وتعلم جيدا أن العلم ما زال يحبو وكلما قام يكبوا ، خصوصا وأنك من المعاصرين لمعضلة اينشتاين واضطراب نظريات المعرفة ، فحكمك على ما تقر بفسوخه في تخوم تاريخ الوجدان البشري بأنه خرافة يجب رفضها لأنك لم تجد له سببا منطقيا أو تجريبيا ، هو خيانة للعلم وإهانة للإنسانية لحساب وادي الإلحاد السحيق الذي هويت فيه . ولو كانت الاخلاق اصلها الدين لكانت قد اختلفت باختلاف الاديان وتعددها على مر الدهور ، فاشترك البشر في المنظومة الأخلاقية رغم تعدد واختلاف الاديان التي يتبعونها يكشف أن جوهر الاخلاق ليس الاديان المختلفة بل الفطرة المشتركة . المصيبة انك

١ - المصدر السابق ، ص ٨٦

٢ - المصدر السابق ، ص ٨٠

تعترف أن الحياء والعفاف هو غريزة فطرية عند المرأة ، وأنه موجود بشكل متشدد عند البدائيين المتوحشين ، وأنت لم تقف ضده أي ضد الحياء و العفاف إلا من باب حب التمرد على فطرة الاخلاق ، أو من باب الغلو في اتباع العلم على اساس أنك لم تجد له سببا علميا ، أو من باب النزوع الى الرذيلة ، فنقول : (( فالحياء بشكل ما، وإلى درجة ما، عام وشامل تقريبا لدى الجنس البشري، ويشكل محرما يجب تحطيمه فقط طبقا لأشكال واحتفالات معينة.... وهذا ليس كما يظن بعض المعاصرين من اختراع العصر الفيكتوري ، بل على العكس ، لقد وجد الانثرو بيولوجيون اشكالا اكثر تعقيدا من الاحتشام المتطرف لدى البدائيين المتوحشين ، ذلك أن مفهوم البذاءة يضرب جذوره عميقا في الطبيعة البشرية . إننا نقف ضده انطلاقا من حب التمرد أو من الاخلاص للروح العلمية أو من الرغبة في أن نشعر أننا شريرون ، كما هو الأمر لدى بايرون ، لكننا لا نستطيع بسبب ذلك محوه من بين دوافعنا الفطرية ))<sup>١</sup> ومع اعترافك بعجزك عن ازالته ، فإنك تحاول زعزعته على اساس عقلنة الدوافع الجنسية ، وأنه لا مانع من رفع الحياء والعفة في ممارسات جنسية عابرة في الزنا والخيانة الزوجية والمثلية ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . أما آليتك لتحقيق هذه الاخلاق النفعية وصيانتها فهي كما تقترح (( إلهام الحب وارشاد المعرفة )) وتراها افضل من آلية القانون الوضعي للمراقبة والمحاسبة والاصلاح ، وهنا نسأل : ما الذي يضطر الشخص لتطبيق آليتك ، وقيم سلوكه على اساس المحبة والمعرفة فيما لو تعارضت مع منفعته الشخصية ؟ وما ذا يعني (( إلهام الحب )) وما هو اصله ؟ وكيف يكون آلية عامة ما لم يكن مستندا الى وجدان اخلاقي عام عند البشر ، مستقلا عن تصورات المنفعة التجارية والمعرفة العقلية ؟

٥- الأخلاق الوجودية – مذهب التمرد : زعيم الفلسفة الوجودية الملحدة هو الفرنسي جان بول سارتر (( توفي ١٩٨٠م )) ، مؤلف كتاب (( الوجود والعدم )) الذي يعتبر دستور الإلحاد (( العدمي )) على الاصح .

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، ص ١٨١-١٨٢

والفلسفة الوجودية هي الفكر الذي يدعو الى انحصار الانسان في ذاته فقط ومنفعته الخاصة فقط (( أنا ومن بعدي الطوفان )) . يرى سارتر واتباعه أن جميع قواعد الأخلاق التقليدية ليست إلا أوهاما وخداعا ونفاقا اجتماعيا ، وعلى اساس الفلسفة الوجودية يجب التمرد عليها وتحرير الذات منها ، فالإنسان ليس مدينا لأحد في وجوده ، وليس للكون نظام ولا للحياة هدف ، ولا للوجود معنى سوى الأنا الفردية للشخص ، وبالتالي يجب على الفرد أن يركز حياته في وجوده الفردي ومنفعته الخاصة فقط دون تحمل أي مسؤولية اخلاقية تجاه أي شيء آخر (١) .

ويرد عليه : هذه ليست فلسفة اخلاقية بل هذيان مجنون ، يبطلها الوجدان الاخلاقي عند جميع البشر حتى الملاحدة والأشرار ، إنها النفعية بأبشع صورها واكثرها تطرفا ، فيرد عليها ما ورد على المذاهب النفعية السابقة لهيوم وبنتام و رسل ، بل انكرها سارتر نفسه آخر حياته وأقر انها كانت مجرد هذيان ، حيث كتبها كما يقول عندما كان مصابا بالعصاب ، وفي ظرف الحرب العالمية الثانية حين اجتاح هتلر دولته فرنسا . ولعل القارئ يسأل : إن كان سارتر قد استنكرها حقا فلماذا تذكرها هنا ؟ الجواب : إنه استنكرها وتخلى عنها في آخر حياته ولكن لم يرفعها من كتبه ، كما أن استنكاره ضاع بين صدق وكذب في النقل ، فلم يغير من الواقع شيئا حيث اجتاحت الأخلاق الوجودية الانحطاطية التمردية شباب أوروبا في منتصف القرن العشرين ، وربما اليها اشار رسل في قوله الذي نقلناه حينما قال اننا ربما نقف ضد فطرة الحياء والعفة من باب التمرد ، والى حد اليوم تستهوي الاخلاق الوجودية الكثير من الملاحدة .

٦- الأخلاق الداروينية : تهافت ملاحدة الفرضية الدارونية في تفسير الاخلاق بشكل مذهل ، حيث أنهم في قرارة انفسهم يقرون بالوجدان الاخلاقي العام ، ويشعرون بالمسؤولية الاخلاقية بشكل عام ، وإن كانوا في مجال الممارسة والتطبيق لا يتبعون عادة إلا ما تأمرهم به غرائزهم

---

(١) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (( سارتر )) ، ص ٢٤٨  
- الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة (( سارتر )) ، ص ١٧٦

البهيمية وما وافق مصالحهم الشخصية ، من جهة أخرى فإن الدارونية بمبادئها المادية العمياء ، ويقانون انتخابها في صراع البقاء ، والبقاء للأصلح يعني انتقاء الطبيعة لمن فاز بالتحدي ، واثبت أنه الاقدر على البقاء والتكاثر ونسخ الجينات ونقلها ، إنها بذلك تناقض كل قيم الاخلاق الفاضلة والمشاعر النبيلة ، ولأجل ذلك احتار ملاحدة الدارونية في تفسير الاخلاق تفسيراً ينسجم مع الدارونية ولا ينقض الوجدان الاخلاقي العام . ومن تلك التفسيرات هو تفسير نجم الألفاد الداروني المعاصر ريتشارد دوكنز ، يقول : (( لدينا اربع اسباب جيدة من الناحية الداروينية ليتمتع الفرد بالإيثار والكرم والاخلاق الحميدة تجاه الآخرين ، الاول هو وجود القرابة الوراثية كحالة خاصة . الثاني وجود رد الجميل المتبادل والمعروف بالمعروف وعمل المعروف بتوقع الدفع لاحقاً . وذلك يقودنا الى النقطة الثالثة ، المنافع الداروينية الناتجة من وجود السمعة الحسنة للكرم واللطف . والرابع لو كان زاهافي محققاً فهناك منفعة اضافية للكرم المتبادل كطريقة لشراء دعاية اصيلة وغير قابلة للتزييف ))<sup>١</sup> . وحاصل هذا الكلام كما شرحه ، أنه يقر أن قانون الاصطفاء الطبيعي إنما هدفه الوحيد هو بقاء الجين واستمراره ولا هدف للطبيعة غير ذلك ، وأن هذا يقتضي الأنانية الصريحة ، ولكن أحياناً - كما يقول - لتحقيق هذا الهدف قد تبرمج الطبيعة الكائن الحي على الاخلاق الحميدة متخذة طرقاً اربعة ، الاول هو التعامل الاخلاقي مع قريبه الوراثي باعتباره يحمل جيناته ايضاً وبقاء قريبه الوراثي هو بقاء له ، الثاني هو التعامل الاخلاقي مع غير قريبه الوراثي ولكن على مبدأ المصلحة المتبادلة (( حك ظهري كي أحك لك ظهرك )) فيما إذا كانت مصلحة البقاء للفرد تتوقف على مصلحة بقاء الآخر ، والثالث هو التعامل الاخلاقي لكسب السمعة الطيبة إن كانت ضرورية للبقاء ، والرابع هو التعامل الاخلاقي لأثبات التفوق الذي يؤدي الى مكاسب نافعة للبقاء . فكل هذه الطرق الاربعة هي سلوكيات اخلاقية برمجت الطبيعة الجين عليها ، هدفها هو بقاء الجين الاناني واستمراره . ثم التفت دوكنز أن هذا كله ليس هو أصل ما يشعر به كل البشر اليوم في

<sup>١</sup> - وهم الالفاد ، الفصل السادس ، ص ٢٢٠

وجدانهم الاخلاقي ، وليس هو دوافع السلوك الاخلاقي النبيل والإيثار الذي يعني الإعطاء دون توقع منفعة ، وهنا تنتكس الدارونية فيفسر دوكنز شعور الاخلاق الحميدة والسلوك الاخلاقي النبيل بأنه ((خطأ هدف وناتج عرضي للانتخاب الطبيعي )) أي أن الطبيعة برمجت الجين على التعامل الاخلاقي الحميد بهدف بقاء الأنا جيني واستمراره فقط ، لكن استعمال هذه البرمجة الجينية في غير الهدف منها انما هو من باب الخطأ في تحقيق الهدف ، وناتج عرضي أي حالة طارئة وافراز غير مقصود ومخالف لمقصد الطبيعة . فهي عنده كالغريزة الجنسية التي برمجتها الطبيعة بهدف بقاء الجين واستمراره ، وربما تستعمل لغير التناسل في حالات الزنا والمثلية والاجهاض خلاف هدف الطبيعة وكحالة عرضية واستثناء ، كذلك الغريزة الاخلاقية برمجتها الطبيعة لبقاء الجين واستمراره بإحدى الطرق الاربعة المتقدمة ، واستعمالها في غير هذا الهدف يكون خطأ في تحقيق الغاية منها وحالة عارضة (( الاثنان خطأ بالهدف ، اخطاء داروينية ، اخطاء مباركة وثمانية ))<sup>١</sup> .

ويرد عليه أنه لا يستحق الرد عليه ، فلم يأت بشيء سوى تأكيد افلاس الداروينية وملاحظتها العلمي والاخلاقي ، والمضحك للتكلى أنه يقول أن مخالفة فطرة الطبيعة وهدف الداروينية هي اخطاء مباركة وثمانية وأنه لولاها لما كانت للحياة قيمة ، فلا نعلم هل يخادع نفسه أم يواسي سفهاء الداروينية الذين ما زالت عندهم بقية من الحس الاخلاقي ؟ بل الأعجب الأغرب أنه يقول أن باستطاعتهم أن يكونوا صالحين دون الحاجة الى الإيمان والدين وأن الدين هو الخطر الأكبر على الأخلاق !! ولست أدري أي صلاح يقصد بعد تشريعه للزنا والمثلية والخيانة الزوجية والاجهاض وكل موبقات الأفعال وردائل الأخلاق ، بذريعة أما برمجة الطبيعة للبشر بهدف نقل الجينات فقط ، أو بذريعة خطأ هدف الطبيعة المبارك .

<sup>١</sup> - المصدر السابق ، ص ٢٢٢

## \* الخلاصة

- ١- جميع مذاهب الاخلاق الالحادية باطلة في حد نفسها .
- ٢- جميعها متهافئة حيث ينقض بعضها بعضا في تفسير الاخلاق .
- ٣- لكن جميعها تتفق على تبرير الفجور والانحطاط الاخلاقي .
- ٤- وجميعها تقر بأصالة الأخلاق الحميدة ولكنها تختلف في تفسير الأصل ، باستثناء مذهب الاخلاق الوجودية فإنه يراها خداعا ونفاقا اجتماعيا .
- ٥- تبرؤ الملاحدة من فلسفاتهم الانحطاطية في بعض المواقف ، يكشف تخبطهم ومخالفة فلسفاتهم لبقايا الحس الأخلاقي عندهم ، مثل قيام رسل وآينشتاين وهو الملحد الذي صنع القنبلة النووية وأسس لقيام الكيان الصهيوني ، قاما بتوقيع وثيقة مع جمع من اساتذة الجامعات تطالب بحظر استعمال السلاح النووي ، ومثل تأييد سارتر للثورة الجزائرية ، ورفض رسل لجرائم الكيان الصهيوني .
- ٦- اتفاق الملاحدة على الإلحاد رغم اختلافهم في تبريره ، كما رأينا في الفصل الثاني في فرضيات الملاحدة في اصل الدين ، واتفاقهم على تبرير الفجور والانحطاط الأخلاقي رغم اختلافهم في كيفية تشريعه ، يكشف الملازمة بين الإلحاد والرذيلة ، مما ينبئ أن الإلحاد هو الطريق الأوسع للرذيلة ، وأن الرذيلة هي الدافع الأكبر للإلحاد .
- ٧- اتفاق جميع المذاهب الأخلاقية للملاحدة على مبدأ اللذة والمنفعة المادية وإن اختلفوا و تناقضوا في تفاصيله ، يؤكد المذهب الابيقوري اليوناني الذي ذكرناه في الفصل الأول كجذر أخلاقي للإلحاد .

## الأخلاق الحميدة فطرة إلهية

بعد عرضنا لأهم مذاهب الملاحدة في الأخلاق يتبين : أن ما تخفيه صدورهم و يتلجج على السنتهم ويظهر بين اسطرهم ، ولكن لا تقره مذاهبهم ، هو أن منظومة فضائل الأخلاق هي فطرة إلهية . وقد عرفنا سابقا الفطرة بأنها أصل تكوين الشيء وتصميمه وخلقته ، ومعنى أن الأخلاق فطرة إلهية هو أن الله سبحانه وتعالى قد صمم خلقة الإنسان والطبيعة البشرية بحيث تقتضي كرائم الأخلاق وتنافر رذائل الأخلاق ، فمثلا سيارة البنزين يتم تصميمها وتصنيعها مفتقرة الى البنزين بحيث إن حصلته فإنها تتقبله تلقائيا وتعمل عليه وتنافر الكهرباء ولا تتقبلها ، وكما أن المصباح الكهربائي يتم تصميمه وتصنيعه مفتقرا الى الكهرباء بحيث إذا حصل على الكهرباء فإنه يتقبلها تلقائيا ويضيئ ولا يتقبل البنزين بل ينفاره ، كذلك الإنسان - مع فرق سنبيهه لاحقا - فإنه قد صممه الله مقتضيا مفتقرا نازعا نحو كرائم الأخلاق بحيث أنه إذا أدركها فإنه يتقبلها تلقائيا ويعمل طبقها ، وينفر من رذائل الاخلاق ويكرهها ولا يتقبلها .

هنا يجب التنبيه ، إننا لا نقصد بأن الأخلاق فطرة إلهية كون الإنسان يولد وهو عادل عفيف شجاع صادق أمين ، بل نقصد أنه يولد وفي ذاته نزوع و ميل وتوجه نحو فضائل الاخلاق ، وبمجرد الانتباه لها والتعرف عليها فإنه يمتصها كما تمتص الاسفنجة اليابسة الماء ويتشرب بها كيانه . فالفطر على شيء يعني الاقتضاء له ، أي الاستلزام والنزوع والميل الطبيعي نحوه والانفعال به عند ايجاده ، ما لم يكن هناك مانع وخلل في الطبع.

تقول : ما هو الدليل على أن أصل الاخلاق الفاضلة هو اقتضاء الفطرة الانسانية السليمة لها ؟ الدليل الاول هو وجدانك انت وحسك الاخلاقي وضميرك وفطرتك وكفى بنفسك عليك رقبيا ، وكل هذه التعبيرات (( الوجدان الاخلاقي والحس الاخلاقي والضمير والفطرة الاخلاقية السليمة )) هي بمعنى واحد يشهد على صدق ما نقول ، إلا إذا كان الشخص ممسوخ الفطرة أو ملوث الفطرة ومخدر الضمير و منحرف الطبع لسبب

ما فهذا مانع عن تقبل فضائل الاخلاق ، والدليل الثاني هو براءة الاطفال التي لا ينكرها إلا مستكبر على الحق معاند مجادل بالباطل ، والدليل الثالث هو وجود الحس الاخلاقي المشترك عند معظم البشر على اختلافهم في الاديان والقوميات والثقافات والعادات والسلوكيات والزمان والمكان وكل شيء ، وقد قلنا (( معظم البشر )) حتى نستثني الشردمة ممن هو ملوث الفطرة ومنحرف الطبيعة الانسانية ، والدليل الرابع هو شهادة خبراء التاريخ وحتى الملاحدة منهم على رسوخ جذور الاخلاق الفاضلة في تخوم التاريخ البشري ، وكيفينا لذلك شهادة زعماء الملاحدة التي نقلناها وإن اختلفوا في توجيهاتهم لها .

## الملازمة بين الأخلاق والايمن

اثبتنا بأن منشأ الأخلاق الفاضلة هو اقتضاء الفطرة السليمة ، وأن الإنسان مفطور على حبها والانجذاب الطبيعي لها . وبما أن فضائل الأخلاق هي كمالات روحية ، فالإنسان إذن مفطور على حب الكمال وطلب الكمال والنزوع نحوه والانجذاب اليه ، وبما أن الكمال المطلق هو الله سبحانه وتعالى فالإنسان إذن مفطور على حب الله والانجذاب الطبيعي نحوه بما هو كمال اخلاقي مطلق ، كما هو مفطور على الايمان بوجود الله بما هو رب كل شيء وخالقه ، حيث اوضحنا ذلك سابقا في بحث اقتضاء الفطرة للإيمان في الفصل الثاني . فأصل كل من الاخلاق الفاضلة والايمن بالله هو اقتضاء الفطرة السليمة ، أي مقتضى خلة الطبيعة الانسانية . وهذا وجه الملازمة بين فضائل الاخلاق والايمن بالله عند المؤمنين ، فكلاهما اقتضاء الفطرة السليمة ، وبه يتضح وجه الملازمة بين رذائل الاخلاق والالحاد عند الملحدين ، فكلاهما خلاف الفطرة السليمة ، وهذا دليلنا على أن الأخلاق الفاضلة تدعو الى الله الكامل المطلق . فالفطرة السليمة ذاتها تشهد بوجود الله وبكماله المطلق ، والى حقيقة فطرة الله للإنسان على الايمان وعلى فضائل الاخلاق معا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ((وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ

إِيَّاكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ  
وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) .<sup>١</sup>

يجادل الملحد فيقول : إن الكثير من البشر يمارسون ما تسميه رذائل  
الاخلاق فكيف تقول بعموم اشتراك فضائل الاخلاق عند معظم البشر ،  
والجواب اننا فرقنا سابقا بين الاخلاق كصفات روحية وبين السلوك العملي  
، ورفعنا شبهة الملازمة بينهما ، فحتى اكثر الملاحدة يقرون في وجدانهم  
الاخلاق الفاضلة مع ممارستهم عمليا لرذائل الاخلاق ، فقيام الكثيرين  
بسلوك الظلم لا يعني أنهم يقرون في وجدانهم الاخلاقي قبح العدل وجمال  
الظلم . يقول الملحد : إن كانت الأخلاق الفاضلة كالبنزين للسيارة  
وكالكهرباء للمصباح وجب أن تكون جميع افعال البشر على طبقها بعد  
تقبلها ، كما تعمل السيارة ويضيء المصباح بعد تقبل البنزين والكهرباء ،  
فكيف تقول لا ملازمة بين الأخلاق كقيم روحية وبين السلوك العملي ؟  
والجواب : هناك فرق بين السيارة والمصباح وبين الانسان وعدنا سابقا  
بأننا سنذكره لاحقا ، فالسيارة والمصباح هي آلات غير عاقلة ، فبعد تقبل  
البنزين والكهرباء يعملان بحسبهما مع فرض سلامة التصميم ، أما  
الانسان فهو كائن حي عاقل له إرادة واختيار وشهوات مادية ، فحتى بعد  
تقبله للأخلاق وتشرب روحه بها ، مع فرض سلامة الفطرة ، فإنه ليس  
مجبرا على العمل طبقها ، فهناك شبهات عقلية وضلالات وشهوات  
وابتلاءات لا تجعل العمل طبق فضائل الاخلاق أمرا تلقائيا آليا ، ولأجل  
ذلك يختار معظم الملاحدة سلوك رذائل الاخلاق عمليا مع اقرارهم  
الوجداني بفضائل الاخلاق ، ولأجل ذلك يحتاج الانسان الى ترسيخ فضائل  
الاخلاق بتربية النفس والمجاهدة والمراقبة والمحاسبة الذاتية حتى تصير  
ملكات روحية راسخة ويكون العمل على طبقها سهلا يسيرا ، كما يحتاج  
الى المرشد المؤدب والدستور الاخلاقي . يجادل الملحد فيقول : إنها إذن  
من باب العادات الاجتماعية اعتاد عليها البشر ، والجواب اننا فرقنا بين  
الاخلاق والعادات فيما سبق ، فالعادات هي سلوكيات تأديبية ، وهي

<sup>١</sup> - سورة الحجرات

متغيرة وتختلف بحسب اختلاف المجتمعات وظروفها وليس هكذا الاخلاق ، فليس في كل مجتمع وزمان ومكان ينهض الاصغر احتراماً للأكبر ، أو تقدم النساء على الرجال عند الوقوف في الطابور احتراماً لهن ، فهذه عادات سلوكية تأديبية ، بينما لا تجد مجتمعا لا يقر وجدانيا بحسن وجمال وكمال العدل وقبح الظلم . يقول الملحد : انها إذن من باب التلقين والتعليم للأطفال ، والجواب إن ما يقوم به الوالدان والمجتمع ليس تلقينا وتعلّما للأخلاق الفاضلة ، بل هو مجرد توجيه ثم رعاية وهذا معنى التربية للطفل ، فالطفل مبرمج فطريا على تقبل فضائل الاخلاق وبغض رذائل الاخلاق ، كما يعترف بذلك ريتشارد دوكنز ولكنه ينسب هذه البرمجة والتصميم للطبيعة العمياء . و الاعتراض الأخير على كلامنا أن يقال : بقطع النظر عن الممارسة العملية ، انت تقر باتصاف بعض الملاحدة بفضائل الاخلاق روحيا بقطع النظر عن الممارسة العملية ، و تقر حتما باتصاف بعض المؤمنين برذائل الاخلاق روحيا بقطع النظر عن الممارسة العملية ، فلازم ذلك انفكاك الملازمة بين رذائل الاخلاق والاحاد ، و بين فضائل الاخلاق والايمان بالله . و الجواب على هذا الاعتراض اننا نقول : إن الملازمة لا تعني الجبر ، فضائل الاخلاق تدعو الى الايمان و تقتضي الايمان بالله ولكنها لا تجبر الانسان على الإيمان ، فهناك من يضل نفسه على علم . كما أن الايمان بالله لا يجبر الانسان على الاتصاف الوجداني بفضائل الاخلاق ، فهناك من ينحط اخلاقيا على علم ، و قد بينا سابقا أن معنى الملازمة هو أن منشأ كل من الإيمان بالله تعالى و فضائل الأخلاق هو الفطرة الانسانية السليمة ، وأن الكمال الأخلاقي المطلق الذي تقتضيه الفطرة السليمة هو الله تعالى ، إلا أن الانسان ربما ضل عن نفسه و ربه و ربما اتبع هواه فانحرفت اخلاقه ، لذلك قلنا أنه لأجل ذلك يحتاج الانسان الى ترسيخ فضائل الاخلاق بتربية النفس والمجاهدة والمراقبة والمحاسبة الذاتية حتى تصير ملكات روحية راسخة ويكون العمل على طبقها سهلا يسيرا ، كما يحتاج الى المرشد المؤدب والدستور الاخلاقي . وهذا ما ينقلنا الى البحث التالي ، و هو حاجة الاخلاق الى الدين .

## حاجة الأخلاق الى الدين

يقول الملاحدة : انكم تقولون أن الدين هو أصل الاخلاق ونحن نقول أن الاخلاق الفاضلة تسبق الأديان ، بل نرى أن الأديان هي الخطر الأكبر على الاخلاق ، والعالم بلا دين افضل ، فالكتب التي جاء بها الأنبياء تعلم الارهاب والقتل والاستعباد وانتهاك حقوق المرأة والعنصرية وغيرها من رذائل الاخلاق ، ولذلك فنحن لا نحتاج الى الدين لنكون صالحين .

الجواب : نحن لم نقل أن الدين هو أصل الاخلاق ، ربما النصارى هم من أخذتم عنهم القول بأن الدين اصل الاخلاق ، علما أن برتراند رسل من اكابر زعماء الإلحاد هو يقول أن أصل القواعد الاخلاقية هو الدين كما نقلنا عنه سابقا ، وقد رددنا عليه فقلنا لو كان الدين هو منشأ الأخلاق لاختلقت الأخلاق وتعددت باختلاف وتعدد الأديان . بل نحن قلنا أن أصل الأخلاق هو الفطرة الإلهية كما أن أصل الأيمان بالله هو الفطرة الإلهية ، فكل من فضائل الاخلاق والايمان بالله هو اقتضاء الفطرة السليمة . ولكن كما قلنا أن الانسان كائن حي عاقل له إرادة واختيار وشهوات مادية ، فحتى بعد تقبله للأخلاق وتشرب روحه بها ، بعد فرض سلامة الفطرة ، فإنه ليس مجبرا على العمل طبقها ، فهناك شبهات عقلية وضلالات وشهوات وابتلاءات لا تجعل العمل طبق فضائل الاخلاق أمرا تلقائيا ، ولأجل ذلك يختار معظم الملاحدة سلوك رذائل الاخلاق مع اقرارهم الوجداني بفضائل الاخلاق ، ولأجل ذلك يحتاج الانسان الى ترسيخ فضائل الاخلاق بتربية النفس والمجاهدة والمراقبة والمحاسبة الذاتية حتى تصير ملكات روحية راسخة يصعب زوالها ويكون العمل على طبقها سهلا يسيرا ، كما أنه يحتاج الى القدوة المرشد المؤدب والدستور الاخلاقي الذي يصون الفطرة ويرشدها . هذا المرشد المؤدب هو رسول الله تعالى الذي يكون اكمل البشر أخلاقا ، وهذا الدستور هو كتاب الرسالة الإلهية . فالبشر مفتقرون الى القدوة البشرية العظمى ، والى الدستور المحيط بالفطرة وما يصونها ويهديها ، وما ينفعها ويضرها ، وما يصلحها ويفسدها ، والنبي هو القدوة العظمى والكتاب السماوي هو الدستور الاصلح . فأصل

الأخلاق الفاضلة هو اقتضاء الفطرة ، والفطرة تحتاج الى الدين لأنها تحتاج الى المرشد القدوة والمنهج الأصح .

الأخلاق الفاضلة هي القيم النبيلة والكمالات الروحية ، والدين هو منظومة المعارف العقائدية والتعاليم الاخلاقية والقوانين التشريعية ، التي تهدف الى صيانة الفطرة عن التلوث ، والى منعها عن الافراط والتفريط، والى توجيهها نحو الغاية التي خلقت لأجلها . فإله سبحانه وتعالى هو فاطر الانسان على الايمان وعلى فضائل الاخلاق لغاية ، وهو جاعل الدين لتحقيق هذه الغاية ، وهذه الغاية هي بلوغ الكمال . فكل من الفطرة والدين جعل من الله سبحانه وتعالى ، الفطرة جعل تكويني والدين جعل تشريعي ، فما كان لله أن يخلق الانسان ثم يتركه دون دين وهو الحكيم العليم ، لذلك فنحن لا نقول أن الدين أصل فضائل الاخلاق ، كما لا نقول أن فضائل الاخلاق قد سبقت الدين ، أو أن الانسان لا يحتاج الدين ليكون صالحا ، بل نقول أن الله تعالى فطر الانسان على الايمان وعلى فضائل الاخلاق وجعل له الدين في ذات الوقت ، لحاجة الفطرة الضرورية للدين .

أوجه سؤالي الى الملحد الربوبي والملايني الذي يؤمن بوجود الخالق ولكن يزعم أن هذا الخالق اوكله الى نفسه واعتزل التدخل في شؤونه ، وأنه لم يرسل له رسولا ولم يجعل له ديناً ، اقول له : اليوم تلاحظ معظم الشركات الرصينة المتطورة عندما تصنع جهازاً معقداً مبتكراً مهماً ثميناً فإنها تضع معه كتلوك التشغيل والصيانة ، كما تتعهد بالصيانة التخصصية عند الخبير التابع للشركة ، وهذا يدل على اصالة تلك الشركة ورسالتها وعلمها وحكمتها ، فكيف يتقبل عقلك ايها الملحد الربوبي و الملايني أن الله قد خلق الخلق ثم تركه سدى دون دين ورسول أمين ؟ يجادل الربوبي فيقول : أنا افترق عن الآلة ، فأنا خلقتي الرب الخالق الصانع بعقل لأعتمد عليه في التمييز بين الخطأ والصواب والضار والنافع والحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد ، وبالتالي فأني لا احتاج الى الدين لأن الله اعطاني العقل . أقول : بالفعل فإنك تختلف عن الآلة بالعقل ولذلك فأني احاورك باعتبارك كائناً عاقلاً سليم العقل حسب الفرض ، إن الله اعطاك العقل لتفكر به منطقياً ، وكما اعطاك الله العقل فقد أعطاك الحياة والروح

والوعي والارادة والغرائز ، فهل توصل عقل البشر قاطبة الى حد الآن لمعرفة أسرار العقل والحياة والروح والوعي والارادة والغرائز ؟ طبعا لا ، فكيف تزعم أن الله خلقك لإدارة نفسك وصيانتها وتوجيهها بواسطة عقلك الذي لم يدرك اسرار تصميمك ؟ إنك اعظم واعقد وأهم وأثمن - بشكل لا يمكن تصوره - من الجهاز الكهربائي الذي يهتم به صانعه ويضع معه كتلوك التشغيل والصيانة . اولئك الفئة من الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الخالق اصلا ، والذين تصطف انت معهم في محاربة الدين ، اولئك يقولون نحن عقلاء ايضا ولم يثبت عندنا وجود الخالق ، فهل ترى بذلك كفاية العقل في معرفة الله وصفاته وغاياته دون الحاجة لنبي ؟ وهل ترى عقلك مصيبا عندما أمرك أن تصطف معهم في محاربة الدين بدل أن ترشدهم الى الإيمان بوجود الخالق الذي تؤمن به ؟ هل رأى عقلك أن خالقك يرضى أن تصطف مع الذين ينكرونه ضد الذين يؤمنون به لكن يختلفون معك في بعض صفاته وغاياته التي لم تعجبك فأمنوا بالنبي والرسالة و انكرتها أنت ؟ عقول الملاحدة اليوم تختلف في ضرر ومنفعة الزنا والمثلية والإجهاض والمخدرات والخمور والتعري اعتمادا على العقل والعلم والقانون الوضعي ، فهل ترى كفاية العقل والعلم والقانون الوضعي في معرفة ما يصلح الفرد والمجتمع وما يضره ؟ أولئك الفئة من الملاحدة الذين ينكرون وجود الخالق يعتمدون في تشخيص النفع والضرر على معطيات العلوم الطبيعية - حسب دعواهم - فهم لا يؤمنون بما وراء الطبيعة المادية المحسوسة ، وانت ايها الربوبي و اللا ديني تؤمن بوجود الخالق وتؤمن بأن الوجود اوسع من الطبيعة المادية المحسوسة ، وتاريخ البشرية يشهد بقصور العقل وضلاله وشطحاته ، وتاريخ العلم يشهد بقصور العلم وتدرجه ، فكيف عقلك المؤمن بما وراء المادة يقول بكفاية اعتماده على معطيات العلم المادي في إدارة البشرية وقيادتها نحو الغاية التي خلقت لأجلها ؟ قال تعالى : ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ))<sup>١</sup> . ما الذي يزعجك في الصلاة والصوم والحج ومكارم الاخلاق ؟ ما الذي يزعجك في يوم القيامة والجنة والنار ؟ تريد

<sup>١</sup> - سورة المؤمنون

التحرر من أي التزام شرعي واخلاقي ولا تريد العذاب في جهنم ، هذا هو السبب الحقيقي لإنكارك للنبوة والدين ، أنت بذلك تكون عبدا لهواك واقعا وليس للإله الخالق الذي تزعم أنك تؤمن به ، فلا تخدع نفسك ، إنما الحرية الحقيقية وقمة الحكمة العملية هي العبودية لله والتسليم له .

حاجة الأخلاق للدين ضرورية ، فالمدرجات العقلية للإنسان مهما بلغ من العلم والوعي هي تبقى محدودة ، كما أن للإنسان شهوات وغرائز مادية لا تعرف الحدود ، وهناك شبهات وضغوط وابتلاءات ومغريات وضلالات ، وقد رأينا كيف أن مدارس الإلحاد تتفق على تبرير الفجور مع الاختلاف في طريقة التبرير ، ورأيناها كيف تهافتت وعجزت عن وضع الآليات لصيانة واصلاح الفرد والمجتمع عن الدمار ، ورأيناها كيف تفشل وبشكل مستمر عن إيقاف الانحراف الأخلاقي المستمر . ابتداء العلمانية كان بفصل الدين عن السياسة ، ثم تطور الى فصل الدين عن الحياة ، ثم تم تشريع الزنا والزواج خارج الكنيسة وترخيص بيوت الدعارة حكوميا بدعوى الحرية الشخصية ، والمنفعة المتبادلة ، وعدم وجود اسباب عقلية او تجريبية تمنع من ذلك ، وكل ذلك كان سببا رئيسا لإنتاج شعب فاسد الفطرة ملوث الطبيعة بالولادة ، حتى وصل الأمر بالانحراف والانحطاط الى شياع المثلية الجنسية ثم الى مصيبة المطالبة الرسمية بإقرار الزواج المثلي قانونيا ، و بحق المتزوجين مثليا بتبني طفل وبتسلم الوظائف الرسمية المدنية والأمنية الحساسة في الدولة و بالمحاسبة القضائية لمن يهين المثلي بوصفه بالشذوذ !! وبالفعل تم للمثليين ما أرادوا في اوربا ، و مؤخرا تم لهم ما أرادوا في اميركا ، حيث ختم اوباما رئيس اميركا عهده بإقرار ما يريدون ، فإننا لله وإنا اليه راجعون . والمظاهرات مازالت مستمرة حتى يومنا هذا لتشريع قانون حكومي يجيز الاجهاض بشكل رسمي لقتل الاطفال في بطون الزانيات ، مع كونه موجودا منتشرا بشكل غير قانوني ، لأن الحمل مازال يشكل ازعاجا لحضرات الزناة ويحول دون كامل الانتفاع بالحرية الشخصية و المتعة البهيمية التي أقرها الدستور العلماني ومذاهبه الاخلاقية ، ولأن موانع الحمل من العقاقير وغيرها التي اصطنعوها لا تتوفر دائما عند الحاجة البهيمية المستعجلة ولأنها قد ثبتت

لها اضرار جانبية ولو انه لا تكاد تخلو حقيبة فتاة غربية من موانع الحمل. بل صاروا الى تشريع قتل الانسان لنفسه بيد الطبيب فيما يسمى (( الموت الرحيم )) حيث يزرع الطبيب الشخص الذي ينازع سكرات الموت أو الذي يأس الطب من علاجه ، فيزرقه الطبيب بموافقة ابرة مادة قاتلة بعد تخديره . أما بالنسبة لحقوق الحيوان فقد ارتقوا فيها مرتبة عظيمة بلغت أن حياة كلب المواطن الأمريكي الابيض أكرم وأثنى من حياة المواطن الامريكي الاسود ، أما بالنسبة لتجارة المخدرات والاعضاء البشرية ونوادي التعري ومهرجانات التعري والافلام الاباحية والفضائيات الاباحية ومرض الايدز وظاهرة التشرد والسطو المسلح والتفكك الاسري والاجتماعي وغيرها ، فهذا مما صار من ثوابت المجتمعات العلمانية ، رغم وجود الدين والحرية الدينية فيها ، ولكن العلمانية ومؤسسات الالحاد المبطن همشت الدين والغت دوره في حياة المجتمع .

واليوم يرفع ريتشارد دوكنز شعار (( يا ملاحدة العالم اتحدوا )) ويطلب من الملاحدة أن يتحدوا كاتحاد المثليين للحصول على حقوقهم ، ويضم صوته الى صوت المؤيدين لتشريع حق الاجهاض ، ويزعم أن مجتمع الملاحدة الذي يحلم به بإمكانه أن يكون صالحا دون الحاجة الى أي دين ، فيما هو يفسر فضائل الاخلاق على انها أما منفعة متبادلة أو اخطاء طبيعة ، فعن أي كابوس يتحدث ؟ لست أدري .

لا أحد أعلم بالإنسان وما يصونه وما يصلحه وما يضره وينفعه ، وما يبلغ به الغاية التي خلق لأجلها ، لا أحد أعلم به من الذي فطره وهو الله تعالى ((أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ))<sup>١</sup> وقد جعل الله الدين دستوراً للحياة ومنهاجا للفطرة ((إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) ))<sup>٢</sup> . أما الملاحدة ومؤسسات الإلحاد العالمي فإنها تأتي الى الاديان فتأخذ من هذا ضغثا ومن هذا ضغثا ، وتخلط الدخيل بالأصيل ، وتتبع ما تشابهه من آيات الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بما

١ - سورة الملك

٢ - سورة البقرة

يخدم مآربها في خداع البسطاء وترويج الإلحاد . فمثلا من أكثر دعاواهم رواجاً قولهم : إن الاسلام دين الارهاب ، فهو لم ينتشر الا بالحرب والقتل ، و أنه يشرعن قتل المرتد الذي يخرج عن الاسلام مع كونها حرية فكرية ، كما يشرعن قتل اصحاب الاديان الأخرى ، والدليل - كما يقولون - آيات الجهاد في القرآن ومنها : ((قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ))<sup>١</sup> .

والجواب :

مرة اخرى لا جديد عند الملاحظة ، لا جديد سوى اعادة ترديد هذه الفرية البالية ، ان الحاجة ملحة ان يضع الناظر المنصف مرهما على عينه الثانية حتى يتمكن من الرؤية بعينين لا واحدة ، فينظر الى قوله تعالى : (( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ))<sup>٢</sup> ، ثم يتأمل في سياسة امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام حاكم الاسلام الحقيقي بعد الرسول الأكرم ، في عهده لمالك الاشر لولاية مصر في نهج البلاغة حيث يقول : (( وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سُبْعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَحْ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرُ لَكَ فِي الْخَلْقِ ))<sup>٣</sup> ، واذا لم يفلح النظر في الفهم فخذوا هذه الثوابت فنحن لا نداهن ولا نراوغ ، كما لا نداعش ولا نلاحد ، ولكن نبين حق الحقيقة ، ثم كل حي سالك طريقه :

١- إن الاسلام يحرم قتل النساء والاطفال والعجزة من الكافرين .

٢- الاسلام لا يقاتل الا الكافر الحربي ، وهو من يحمل السيف في وجه الدعوة الاسلامية ويمنع من وصولها للناس .

١ - سورة التوبة

٢ - سورة البقرة

٣ - نهج البلاغة ، جمع الشريف الرضي ، شرح محمد عبده ، ج ٣ ص ٦٢

٣- الأصل الأصيل والقاعدة الأساسية في الاسلام هي الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي احسن كما قال الله تعالى : (( ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ))<sup>١</sup> واستعمال السيف هو استثناء بشروط وضوابط صارمة جدا مذكورة في محلها ، ولمن يحمل سيفه لمواجهة الدعوة السلمية .

٤- كل آية حرب وقتال هي محكومة بقوله تعالى في سورة البقرة : (( وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ))<sup>٢</sup> .

٥- إن هذه الاحكام معطلة الآن لانتفاء موضوعها وشروطها الشرعية فهي في طي البحث العلمي التخصصي والدرس الفقهي النظري فقط .

٦- ان المسلمين اليوم يبلغ تعدادهم قرابة مليار ونصف ، من قوميات مختلفة ، وفي معظم دول العالم وبقاع الارض ، فهؤلاء لم يكونوا جميعا من الشرق ، ولم يولدوا من ابوين مسلمين ، فمن السخافة الزعم بأن جميع هؤلاء دخلوا الاسلام بالسيف ، مع أن الدخول في الإسلام بالسيف - على فرض صدقه - هو أولى من الدخول في عبودية تجار الحروب وحكم الطغاة العلمانيين ، الذين تقاسموا احتلال الشعوب واستنزفوا خيراتها وعاثوا فيها فسادا ، ولم يخرجوا من بعضها إلا اضطرارا وبعد أن نصبوا عملاء يضمنون لهم تحقيق مصالحهم على حساب مصالح الشعوب المحتلة.

٧- إن حكم قتل المرتد انما هو بعد استنفاد جميع وسائل البيان وبعد إقامة البينة وبعد ثبوت عنوان الارتداد على الشخص ، فأخر الداء الكي لاستئصال السرطان الاجتماعي ، نعم هو سرطان اجتماعي قطعاً ، فالمرتد يبدأ بنفسه فيدمرها ثم يدمر المجتمع . الدين هو روح الانسانية ، والإنسان بلا روح هو صورة انسان وليس انسانا فعلا ، ونحن قد بينا

١ - سورة النحل

٢ - سورة البقرة

حقيقة الملازمة بين الإيمان وفضائل الأخلاق و الملازمة بين الإلحاد و رذائل الأخلاق ، وقد ذكرنا في التوطئة تعريف الارتداد والمرتد وبعض احكامه ليس لأجل الإرهاب ، بل حتى ينتبه العقلاء الى خطورة الارتداد على المجتمع في شرع الله فاطر الإنسان والأعلم بذات الصدور، وحتى يعلم الملاحدة أننا لا نجاهل على حساب الدين ، ونخفي احكام الله كما قد يفعل البعض ، وليعلموا أن مجال الحرية الفكرية واسع في الاسلام ولكن ليس الى درجة استيعاب الغدد السرطانية المتلبسة بثوب الحرية الفكرية .

٨- ان الاسلام هو دين الرحمة والسلام ، واسلوب الاسلام في الدعوة الى الله ونشر تعاليم النظام الاكمل الاشمل وايصال ميثاق الرحمة الالهية هو الاسلوب السلمي العقلاني الاخلاقي : (( اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ )) هذا هو اسلوب الدعوة الاسلامية الوحيد ولا يوجد عندنا غيره ابدا ، ولكن وجود الموانع من وصول الدعوة السلمية من جهة ثلة المستكبرين المترفين المستبدين من البشر ، الذين وجدوا ان دعوة الاسلام تشكل خطرا على مواقعهم ومصالحهم المادية الضيقة ، وكانت موانعهم للرحمة الالهية وصددهم الدعوة السلمية من ان تصل الى الناس يتخذ مظاهر متعددة كالتكذيب والافتراء والتشويه والسخرية والطرده والقمع والتعذيب والقتل وغيرها ، وقد فصل القرآن في جميع ذلك في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : (( إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَنَارِكُوا إِلَهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ))<sup>١</sup> ، ومنها قوله تعالى : (( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ))<sup>٢</sup> ، فكان لا مناص من رفع هذه الموانع باستعمال القوة ، ولأجل ذلك كان تشريع الجهاد ، فالجهاد ضرورة علاجية يفرضها الواقع وليس هو اسلوب الدعوة الالهية وليس بديلا عن الاسلوب السلمي مطلقا ، وقد قيده الله بشرائط

١ - سورة الصافات

٢ - سورة البقرة

وضوابط صارمة من حيث القيادة والعدة والعدد واساليب التنفيذ و اخلاقية القيادة والجيش والظروف الزمانية والمكانية مما يكاد ان يكون تحققها متعذرا اليوم ، قال تعالى : ((أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)))<sup>١</sup> ، وقال تعالى : ((كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))<sup>٢</sup> ، وقال تعالى : ((لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)))<sup>٣</sup>.

فالقتل والقتال اضطرار وليس اختيارا ، وهو مكروه مبغوض لنا فطريا ، محرم منهي عنه تشريعا ، فلسنا متعطشين للدماء لا فطريا ولا سلوكيا ، ولا يعلمنا الدين سلوكا وحشيا مخالفا للفطرة التي فطرنا عليها ، ولكنه يعقلن الفطرة ويرشدها الى الضوابط التي تحول دون انحرافها الى جهة الافراط أو جهة التفريط ، فلا تكن رقيقا ذليلا خانعا جبانا تنام على الضيم ، و في ذات الوقت لا تكن باغيا معتديا جبارا باطشا .

## وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

يقول الملاحدة ان مصدر الارهاب هو النبي محمد صلى الله عليه واله ، بما انه نشأ في بيئة بدوية تقديس السيف وتمتهن الغزو فقد جاءت تعاليمه تشجع العنف وتحرض على الارهاب ، وهذا يعني ان الاسلام دين ارهاب.

<sup>١</sup> - سورة الحج  
<sup>٢</sup> - سورة البقرة  
<sup>٣</sup> - سورة الممتحنة

والحق ان هذا القول ساذج جدا لا يصدر من عقل سليم وتفكير مستقيم ولا من شخص له أدنى اطلاع على تاريخ مكة والاسلام ، فان النبي محمد صلى الله عليه واله نشأ في مكة وهي بيئة حضرية وليست بادية ، وكانت قبيلته قريش تمتهن التجارة ولا تمتهن الغزو ، والنبي محمد صلى الله عليه واله نفسه لم يشترك في معركة قط قبل ان يكلف بالرسالة الإلهية اي حتى عمر الاربعين عاما ، بل حتى بعد التكليف بالرسالة الإلهية لم يأمر ولم يشترك في حرب إلا في السنوات الثمانية الاخيرة من عمره المبارك البالغ ثلاثا وستين سنة ، وهو الذي بعد فتح مكة سنة ٨ هجرية وهزيمة جيش المشركين قال لهم (( اذهبوا فأنتم طلقاء )) ف صلى الله عليك وسلم يا نبي الرحمة والرافة والعدل والسلام يا حبيب الله يا محمد. فهل هذه صفات رجل يقدر السيف ويحب الحرب و العنف؟؟ إنما هذه فرية بائسة قديمة عفا عليها الدهر ، التقفها الملاحدة الجدد من تأريخ الحروب الصليبية ، حيث افتراها كهنة السياسة لخداع النصارى في أوربا ذلك الوقت ، ليبرروا حروبهم على الاسلام باسم الصليب ، وليحولوا دون وصول فيض الإسلام الى أوربا ، كما جددتها الصهيونية العالمية للتغطية على مجازرها الوحشية في حق شعب فلسطين المسلم المسالم ، تلك المجازر التي قطرت لها خجلا حتى جباه كبار الملاحدة امثال برتراند رسل . الصهيونية لتبرير جرائمها و وحشيتها وخبثها ملأت الدنيا صراخا بمظلومية اليهود ، فساوت بين هتلر ومحرقة لليهود الألمان العزل ، وبين النبي محمد صلى الله عليه وآله واقتصاصه من اليهود الذين نقضوا عهد السلام مع رسول الله اكثر من مرة ، وتعاونوا مع المشركين على محاربة الاسلام والمسلمين ، وحاكوا المؤامرات والفتن والدسائس بين المسلمين رغم احترام ورعاية نبي الاسلام والمسلمين لهم . إن إحياء هذه الفرية يفسر التعاون المشترك بين الصهيونية والصليبية والملاحدة الجدد ، وهذا ما كشفته بالقطع في حواراتي مع الملاحدة ، فالجميع يهاجم الاسلام دون تمييز بينهم ، حتى إذا تعرض أحد الملاحدة الى النبي عيسى والنبي موسى وعرض مريم المقدسة عليهم السلام ، حينئذ يختلفون فيظهر الملحد الفعلي من المتستر بالإلحاد لمحاربة الاسلام من الصليبيين الجدد والصهاينة .

كفى الملاحدة المعاندين واعداء الاسلام غيظا أن يشهد مثل روجيه جارودي (( توفي ٢٠١٢ م )) بكذب هذه المقولة المشوهة للإسلام ، وهو الدكتور الفيلسوف والمفكر الفرنسي الملحد وآخر أقطاب الشيوعية الماركسية ، ومؤسس مركز الدراسات والبحوث الماركسية ، وعضو البرلمان الفرنسي سابقا ، فبعد عمر طويل قضاه في تبرير الإلحاد ودحض الدين والمناظرات والمحاضرات والبحث في الأديان اهتدى روجيه للإسلام سنة (( ١٩٨٠ م )) وكتب عدة كتب في شرح الإسلام للغرب وفضح الخدعة الصليبية الصهيونية ، منها كتابه الشهير (( الاسلام دين المستقبل )) والذي يقول فيه متحدثا عن كتابه : (( هذا الكتاب ليس كتاب تأريخ ، بل هو كتاب يعمل على اظهار الاسلام كوجود ومستقبل ، أي اسلام يكمن في مستقبلنا أكثر مما يكمن في ماضينا . لأن الاسلام لم يكن يكتفي بجمع الثقافات العالمية بل عمل على اخصابها ونشرها من بحر الصين الى الاطلسي ، ومن سمرقند الى تومبكتو ، اقدم واسمى ثقافات الصين والهند والفرس واليونان والاسكندرية وبيزنطة ، بل قدم لإمبراطوريات متفككة ، ولحضارات محتضرة ، روح حياة جماعية جديدة . ورد للبشر ولمجتمعاتهم ابعادها البشرية والإلهية المميزة ، وروح الجماعة والتسامي . وبدءا من هذا الايمان البسيط والقوي كان خميرة لتجديد العلوم والفنون والحكمة النبوية والشرائع ))<sup>١</sup> فكتابه هذا يشهد بسمو وخلود الرسالة الاسلامية وكمالها وشمولها لكل زمان ومكان .

ولن ينسى الملاحدة المستكبرون وأعداء الاسلام في الغرب ما قامت به الكاتبة البريطانية المعاصرة والملحدة اللادينية كارن ارمسترونج ، التي ذكرنا فرضيتها في اسطورية الاديان في الفصل الثاني ، حيث احدثت هذه الكاتبة رجة كبيرة في العقل الغربي بدفاعها عن الاسلام ونبي الاسلام ، أدت الى يقظة الكثيرين من الخدعة الصليبية القديمة المتجددة بالصهيونية العالمية ، فهي برغم كونها تعتقد بأسطورية الاديان إلا أنها وهي الباحثة في الاديان لم تستطع تحمل البهتان والتزوير والحملة الباطلة على الاسلام

<sup>١</sup> - الاسلام دين المستقبل ، روجيه جارودي ، الفصل الاول ، ص ٢١

ونبي الاسلام ، وأدركت خطورة ذلك على السلم العالمي ، فكتبت عدة كتب لشرح السمو الاخلاقي لنبي الاسلام ، و سمو المبادئ الانسانية للإسلام ، فهي ترى أنه بقطع النظر عن مسألة الوحي الإلهي التي لا تؤمن بها فإن أخلاق نبي الاسلام وتعاليمه هي أفضل ما يكون ، وأن العالم اليوم هو أحوج ما يكون لنبي الاسلام وتعاليمه ، فنقول : (( في شخصية محمد النموذجية دروس مهمة ، ليس فقط للمسلمين ، ولكن أيضا للغربيين ، حيث كانت كلها جهادا كما سوف نرى ، وهذه الكلمة لا تعني الحرب المقدسة ، ولكنها تعني كفاحا . كدح محمد بكل معاني الكلمة ليجلب السلام على العرب الذين مزقتهم الحروب ، ونحن نحتاج لمن هم مستعدون لعمل ذلك اليوم . كانت حياته حملة لا تكل ضد الطمع والظلم والتكبر ))<sup>١</sup> . ونحن وإن كنا لا نقبل قراءتها البشرية القاصرة ، وتفسيرها اللاديني للإسلام ونبي الاسلام ، إلا أنها نجحت وفق مقاييس التفكير الغربي السائد أن تكشف الخدعة ، وتفضح المؤامرة التي تحركها الصهيونية العالمية وترفع شعارها مؤسسات الالحاد الغربي ويقع ضحيتها المسلمون والمسيحيون .

### علي رمز العدالة الإلهية

انظروا الى سيرة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين بالحق ، بطل الاسلام وقاصم ظهور المشركين والمنافقين ، اسد الله الغالب علي بن ابي طالب عليه السلام ، الذي اغتاله اللعين ابن ملجم وهو يصلي صلاة الفجر في محراب مسجد الكوفة دون حرس شخصي وهو القائل (( يا دنيا غري غيري ، إلي تعرضت أم إلي تشوقت ؟ هيهات ، طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها )) ، اغتاله اللعين بضربة بالسيف على رأسه وصلت الى اصل دماغه ، انظروا اليه وهو في هكذا حالة وفي آخر عهده بالدنيا ، كيف يوصي المسلمين وأهل بيته برعاية اليتامى وحقوق الجيران كما يوصيهم بالصلاة والصيام والقرآن ، وأن لا تجرفهم شهوة الانتقام فيقتلوا الناس الابرياء ثارا لدمه ، وأن يرفقوا بأسيرهم القاتل ابن ملجم فلا يهينوه ولا

<sup>١</sup> - محمد نبي زماننا ، كارين ارمسترونج ، المقدمة ، ص ٢٥

يعذبه قبل اقامة القصاص الشرعي العادل عليه ، وأن لا يهينوا جسده ويشوهوه بعد قتله ، فيقول : (( الله الله في الايتام فلا تغبوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم . والله الله في جيرانكم فإنهم وصية نبيكم ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم ... بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوفا تقولون قتل أمير المؤمنين ، ألا لا تقتلن بي إلا قتلي انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : " إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور " ))<sup>١</sup> فالسلام عليك يا أبا الحسن . أمثل هذا يساويه الملاحدة بهتلر وستالين ، أم مثل هذا تكون اخلاقه ودينه خطرا على الانسانية ، مالكم كيف تحكمون ؟

لقد أجاد الأديب الكبير اللبناني المسيحي بولس سلامة (( توفي ١٩٧٩م )) في قصيدته الرائعة التي وصف فيها أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال :

لا تَقُلْ شِيعَةٌ هَوَاءُ عَلِيٍّ \*\*\* إِنَّ كَلَّ مَنْصِفٍ شِيعِيَا  
هُوَ فَخْرُ التَّارِيخِ لَا فَخْرَ شَعْبٍ \*\*\* يَصْطَفِيهِ وَيَدْعِيهِ وَلِيًّا  
جَلَجَلَ الْحَقُّ فِي الْمَسِيحِي حَتَّى \*\*\* صَارَ مِنْ فَرَطِ حُبِّهِ عَلَوِيًّا  
أَنَا مَنْ يَعْشَقُ الْبَطُولَةَ وَالْإِلَهَامَ \*\*\* وَالْعَدْلَ وَالْخُلُقَ الرِّضِيَا  
فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلِيٌّ نَبِيًّا \*\*\* فَلَقَدْ كَانَ خُلُقُهُ نَبَوِيًّا  
أَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْهِي \*\*\* فَأَنْلَهُمْ حَنَانَكَ الْأَبْوِيَا  
وَأَنْلَنِي ثَوَابَ مَا سَطَرْتَ كَفِّي \*\*\* فَهَاجَ الدَّمُوعُ فِي مَقَلَّتِيَا  
سِفْرُ خَيْرِ الْأَنْامِ مِنْ بَعْدِ طَهَ \*\*\* مَا رَأَى الْكُونَ مِثْلَهُ أَدْمِيَا  
يَا سَمَاءُ اشْهَدِي وَايَا أَرْضِ قَرِّي \*\*\* وَاخْشَعِي إِنْني ذَكَرْتُ عَلِيًّا

<sup>١</sup> - نهج البلاغة ، بشرح محمد عبده ، ج ٣ ص ٧٦-٧٨

## الحسين منار الانسانية

ما دمنا نكتب بحثنا هذا في ذكرى ليالي عاشوراء ، نريد أن نختم كتابنا بذكر الامام الحسين بن علي عليهما السلام ، ريحانة رسول الله وسيد شباب الجنة والخليفة الحق للرسول المصطفى محمد صلى الله عليه وآله . نذكر عطف الامام الحسين عليه السلام على اعدائه الذين جاؤوا لقتله ، حيث سقاهم هم وخيولهم الماء ، وبكى عليهم لأنهم سيدخلون النار بسبب قتلهم له ، يقول الراوي : ((وجاء القوم وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي اليربوعي حتى وقف هو وخيله مقابل الحسين في حر الظهيرة والحسين وأصحابه معتمون متقلدو أسيافهم فقال الحسين لفتيانه اسقوا القوم وأرووهم من الماء ورشفوا الخيل ترشيفا فقام فتية وسقوا القوم من الماء حتى أرووهم وأقبلوا يملؤون القصاع والطساس من الماء ثم يدنونها من الفرس فإذا عب فيه ثلاثا أو أربعا أو خمسا عزلت عنه وسقوا آخر حتى سقوا الخيل كلها))<sup>١</sup> وبالفعل هم منعوه مع اهل بيته عن الوصول الى الماء بعد ذلك ، وقتلوه في صحراء كربلاء عطشانا وهم يعلمون أنه خير أهل الأرض اخلاقا وايمانا . فمن يسقي قاتليه الماء ويبكي عليهم وهو لم يخرج ثائرا سفها أو بطرا أو طالبا للسلطة ، بل خرج على الطاغية يزيد لعنة الله عليه يطلب الإصلاح في امة جده محمد صلى الله عليه وآله ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، من كانت هذه اخلاقه وهذا دينه كيف يكون هو ودينه خطرا على الانسانية ! إنما الخطر على الإنسانية هم اعداؤه وتحريفهم لتعاليم الاسلام ، فأولئك الوحوش بصورة بشر ، المنحرفون اخلاقيا ودينيا هم من انتج تنظيمات القاعدة و داعش وجميع الحركات والتنظيمات الإرهابية المتلبسة بالاسلام ، أولئك هم اسلاف السلفية الارهابية و نحن شيعة محمد وآل بيت محمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، نحن والاسلام المحمدي الاصيل منهم براء ، ولكن مؤسسات الإلحاد العالمي طاب لها أن تتخذ من هؤلاء ذريعة للترويج

<sup>١</sup> - تاريخ الطبري ، في ذكر احداث سنة احدى وستين ، ج ٣ ص ٣٠٥

للإلحاد ، ولمحاربة الإسلام والمسلمين ، ولإشعال الفتنة بين أتباع الأديان في العالم .

إن من لم يجد مرشدا رشيدا هاديا ودينا اصيلا كاملا ، أو وجد ولكنه لا يستمسك بهما ، فمن الطبيعي إنه سيضل ويشقى ويذل ويخزي ، ويظل متخبطا بين مدركاته القاصرة وشهواته العمياء ، وبين تهافت العلمانية وقانون الاصطفاء ، فمرة سيتباكى على الأشجار والكلاب ، ومرة سيجهض الاطفال دون احتساب . قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (( من أحب أن يحيى حياة تشبه حياة الانبياء ، ويموت ميتة تشبه ميتة الشهداء ويسكن الجنان التي غرسها الرحمن ، فليتول عليا وليوال وليه وليقتد بالأئمة من بعده ، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي ، اللهم ارزقهم فهمي وعلمي ، وويل للمخالفين لهم من امتي ، اللهم لا تنلهم شفاعتي ))<sup>١</sup> ، وأنا استبعد أن يكون هناك شخص سليم الفطرة والعقل يقرأ كتابنا هذا ثم يختمه ولا يقول (( آمنت بالله ربا وبالإسلام ديننا وبالقرآن كتابا وبمحمد نبيا وبعلي والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ابناء الحسين أئمة )) فالسلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى اولاد الحسين وعلى اصحاب الحسين ورحمة الله وبركاته .

---

<sup>١</sup> - الكافي ، ج ١ ، كتاب الحجة ، باب (( ما فرض الله ورسوله من الكون مع الأئمة )) ، الحديث رقم ٣

## الخلاصة في الدوافع نحو الإلحاد واسباب انتشاره

هذه نهاية مقاصدنا في هذا الكتاب ، ونعلم أننا لم نوفها حقها ، وعذرنا في ذلك هو عدم إرادة تضخم حجم الكتاب، لأن أبناء هذا العصر أكثرهم لا يصبر على قراءة الكتب الضخمة ، ونعلم أننا لم نعالج معظم الشبهات الثانوية للملاحظة كما ربما كان يتوقع البعض ، لكننا بحدود هذا المقدار تمكنا بإذن الله من هدم الأسس الكلية للإلحاد ، وهتك الأستار التي يتوارى خلفها الملاحظة الجدد ، وهذا هو هدف هذا الكتاب ، ونعد إن شاء الله بكتب أخرى ، كما أن بإمكان القارئ أن يرجع لكتابنا ((ملتقى الشباب والدين)) للمزيد من الانتفاع . قد رأيتم تهافت الملاحظة في أصل الدين وفي أصل الكون وفي أصل الحياة وفي أصل الاخلاق ، كما رأيتم تهافتهم وبطلان دعاواهم الكبرى في أصالة الإلحاد ، وفي قدسية العلم وكفايته وتأييده للإلحاد ، وفي عدم الاحتياج للدين للإصلاح الاخلاقي . وهنا يأتي تلخيص الدوافع للإلحاد واسباب انتشاره ، بعد أن اتضحت في تفاصيل بحوث الكتاب فنقول :

- ١- قصور النظر العلمي ، بحصر العلم في الجانب المادي المحسوس والدليل الحسي .
- ٢- قصور الوعي ، وضعف المدركات الذهنية والجهل وقلة الاطلاع وعدم الخبرة .
- ٣- فساد أصل الفطرة ، وانحراف الطبيعة الانسانية.
- ٤- اهمال الأطفال ، وفساد التربية والتفكك الأسري.
- ٥- الانحراف الثقافي للمجتمع ، بسبب فساد نظام السلطة وتهميش دور الدين .
- ٦- قلق الوضع الاقتصادي ، فبعضهم يلحد بسبب الفقر وبعضهم بسبب الثراء.
- ٧- الصراعات الدينية ، والفتن المذهبية ودخول العامة في الجدل الديني .

٨- استغلال المتسلقين والمتشبهين بالسلطة للدين ، لتحقيق مكاسب سياسية خاصة.

٩- فساد وانحراف بعض المتلبسين بزي رجال الدين .

١٠- تهاون أفراد المجتمع في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١١- الغزو الثقافي ، وعدم مراقبة السلطة للإعلام الانحطاطي .

١٢- الجنوح في مرحلة بداية الشباب نحو التمرد وحب التغيير واتباع الموضات .

١٣- وآخرها وأهمها على الاطلاق ، هو الاسراف في حب الشهوات واتباع الملذات ، واردة الفجور والتحرر والانفلات من كل ضوابط دينية واخلاقية ، كما قال تعالى : ((بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) ))<sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> - سورة القيامة

## المصادر

- ١- القرآن الكريم
- ٢- أصل الانواع ، تشارلز دارون ، ترجمة اسماعيل مظهر ، الناشر مؤسسة هنداوي
- ٣- أصل الانواع ، تشارلز دارون ، ترجمة مجدي محمود المليجي ، المجلس الاعلى للثقافة ، الطبعة الاولى ٢٠٠٤م
- ٤- أصل التفاوت بين الناس ، جان جاك روسو ، ترجمة عادل زعيتر ، الناشر مؤسسة هنداوي
- ٥- أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، فردريك إنجلز ، ترجمة احمد عز العرب
- ٦- أصول الفلسفة الماركسية ، جورج بولتيزر ، ترجمة شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية - بيروت
- ٧- أكبر خمس مشكلات في العلوم ، آرثر ويجنز و شارلز وين ، ترجمة محمد العوجي ، الناشر دار كلمات عربية - مصر، الطبعة الثانية ٢٠١١م
- ٨- الإسلام دين المستقبل ، روجيه جارودي ، ترجمة عبد المجيد بارودي ، نشر دار الايمان
- ٩- الأشكال الأولية للحياة الدينية ، إميل دوركايم ، موقع الكتروني
- ١٠- التصميم العظيم ، ستيفن هوكنج ، ترجمة ايمن احمد ، دار التنوير ، الطبعة الاولى ٢٠١٣م
- ١١- التطور من الفضاء ، فريد هويل ، موقع الكتروني
- ١٢- الدولة والثورة ، فلاديمير لينين ، ترجمة سلامة كيلة ، دار روافد

- ١٣- الطوطم والتابو ، سيجموند فرويد ، ترجمة بو علي ياسين ، دار الحوار ، الطبعة الاولى ١٩٨٣ م
- ١٤- العلم يدعو للإيمان ، كريسي مورسن ، ترجمة محمود صالح الفلكي
- ١٥- الغصن الذهبي ، جيمس فريزر ، ترجمة نايف الخوص ، دار الفرقد ، الطبعة الاولى ٢٠١٤ م
- ١٦- الفطرة ، الشيخ مرتضى المطهري ، ترجمة جعفر الخليلي ، مؤسسة البعثة - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م
- ١٧- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف - مصر ، الطبعة الثانية عشرة
- ١٨- الفهرست ، ابن النديم ، دار المعرفة - بيروت ، ١٩٧٨ م
- ١٩- الكافي ، الشيخ الكليني ، دار المرتضى - بيروت ، الطبعة الاولى ٢٠٠٥ م
- ٢٠- الكامل في التاريخ ، ابن الاثير ، تحقيق عمر عبد السلام ، دار الكتاب العربي - بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٠ م
- ٢١- الكنيسة والعلم ، جورج مينوا ، ترجمة موريس جلال ، دار الاهالي - دمشق ، الطبعة الاولى ٢٠٠٥ م
- ٢٢- الله لماذا ؟ ، كارن ارمسترونج ، ترجمة فاطمة نصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ، الطبعة الاولى ٢٠١٠ م
- ٢٣- الله والأنسان ، كارن ارمسترونج ، ترجمة محمد الجورا ، دار الحصاد - دمشق ، الطبعة الاولى ١٩٩٦ م
- ٢٤- الله يتجلى في عصر العلم ، نخبة من العلماء الامريكيين ، ترجمة الدمرداش عبد المجيد ، دار القلم - بيروت
- ٢٥- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، جواد علي ، دار الساقى ، الطبعة الرابعة ٢٠٠١ م

- ٢٦- الملل والنحل ، الشهرستاني ، الناشر مؤسسة الحلبي
- ٢٧- الموسوعة البريطانية ، موقع الكتروني
- ٢٨- الموسوعة الفلسفية المختصرة ، جوناثان رى ، ترجمة فؤاد كامل ،  
المركز القومي للترجمة – القاهرة ، الطبعة الاولى ٢٠١٣م
- ٢٩- بيان الحزب الشيوعي ، كارل ماركس و فردريك إنجلز ، ترجمة  
سلامة كيلة ، دار روافد
- ٣٠- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، دار الكتاب العربي  
– بيروت
- ٣١- تاريخ الأسطورة ، كارن ارسترونج ، ترجمة وجيه قانصو ، الدار  
العربية للعلوم – بيروت ، الطبعة الاولى ٢٠٠٨م
- ٣٢- تاريخ الإسلام ، الذهبي ، تحقيق بشار عواد ، دار الغرب الاسلامي ،  
الطبعة الاولى ٢٠٠٣م
- ٣٣- تاريخ الطبري ، الطبري ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة  
الاولى
- ٣٤- تاريخ موجز للزمان ، ستيفن هوكنج ، ترجمة مصطفى ابراهيم ،  
الهيئة المصرية العامة
- ٣٥- تاج العروس ، الزبيدي ، دار الهداية
- ٣٦- تصميم الحياة ، وليم ديمبسكي و جوناثان ويلز ، ترجمة موسى  
ادريس ، دار الكاتب – مصر ، الطبعة الاولى ٢٠١٤م
- ٣٧- تفسير الميزان ، العلامة الطباطبائي الحكيم ، دار الكتب الاسلامية –  
طهران ، ١٣٦٢ هجري
- ٣٨- توقيع في الخلية ، ستيف ماير ، موقع الكتروني

- ٣٩- حياتي والتحليل النفسي ، سيجموند فرويد ، ترجمة مصطفى زيور ، دار المعارف
- ٤٠- دروس في الفلسفة الوضعية ، أوغست كونت ، موقع الكتروني
- ٤١- صانع الساعات الاعمى ، ريتشارد دوكنز ، ترجمة مصطفى ابراهيم ، دار العين - مصر ، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م
- ٤٢- صحيح البخاري ، البخاري ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م
- ٤٣- صندوق دارون الاسود ، مايكل بيهي ، ترجمة مؤمن الحسن ، دار الكاتب - مصر ، الطبعة الاولى ٢٠١٤م
- ٤٤- علم الأحياء ، بيتر ريفن وجماعة ، وزارة التعليم العالي - السعودية
- ٤٥- علم الأديان ، خزعل الماجدي ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود - المغرب ، الطبعة الاولى ٢٠١٦م
- ٤٦- عيون الانبياء في طبقات الاطباء ، ابن ابي أصيبعة ، تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة - بيروت
- ٤٧- قاموس اكسفورد ، موقع الكتروني
- ٤٨- قاموس مريام وبستر ، موقع الكتروني
- ٤٩- قصة الحضارة ، ويل ديورانت ، ترجمة زكي نجيب محمود وآخرين ، دار الجيل - بيروت ، ١٩٨٨م
- ٥٠- قصة الفيزياء ، لويد موتز و جيفرسن ويفر ، ترجمة وائل الأتاسي ، دار طلاس - دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٩٩م
- ٥١- كون من لا شيء ، لورانس كراوس ، ترجمة غادة الحلواني ، منشورات الرمل - القاهرة ، الطبعة الاولى ٢٠١٥م

- ٥٢- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ جري
- ٥٣- لغة الإله ، فرانسيس كولنز ، ترجمة صلاح الفضلي ، الكويت ، الطبعة الاولى ٢٠١٦م
- ٥٤- لماذا لست مسيحيا ، برتراند رسل ، ترجمة عبد الكريم ناصيف ، دار التكوين ، الطبعة الاولى ٢٠١٥م
- ٥٥- ما الذي أخطأ فيه دارون ؟ ، جيرى فودور و ماسيمو بياتيلي ، موقع الكتروني
- ٥٦- محمد نبي زماننا ، كارين ارمسترونج ، ترجمة فاتن زلبناني ، مكتبة الشروق الدولية - القاهرة ، الطبعة الاولى ٢٠٠٨م
- ٥٧- مدارس علم النفس ، حسين الغامدي ، موقع الكتروني
- ٥٨- مروج الذهب ، المسعودي ، موقع الكتروني
- ٥٩- مشكلة الفيزياء ، لي سمولن ، ترجمة عزت عامر ، المركز القومي للترجمة - القاهرة ، الطبعة الاولى ٢٠١٦م
- ٦٠- معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي ، دار الطليعة - بيروت ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م
- ٦١- مفردات الفاظ القرآن ، الراغب الاصفهاني ، دار القلم - دمشق
- ٦٢- مقدمة ابن خلدون ، ابن خلدون ، موقع الكتروني
- ٦٣- منذ زمن دارون ، ستيفن جاي جولد ، ترجمة ستار سعيد زويني ، هيئة ابو ظبي للثقافة ، الطبعة الاولى ٢٠١٢م
- ٦٤- من لا يحضره الفقيه ، الشيخ الصدوق ، دار المرتضى - بيروت ، الطبعة الجديدة ٢٠٠٩م

- ٦٥- منهاج الصالحين ، السيد السيستاني ، دار المؤرخ العربي - بيروت ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م
- ٦٦- موسوعة الدين والطبيعة ، براون تايلور ، موقع الكتروني
- ٦٧- موسوعة لالاند الفلسفية ، اندريه لالاند ، ترجمة خليل احمد خليل منشورات عويدات - بيروت ، الطبعة الثانية ٢٠٠١م
- ٦٨- نشأة الدين ، علي سامي النشار ، مكتبة الخانجي - مصر
- ٦٩- نقد فلسفة الحق عند هيجل ، كارل ماركس ، موقع الكتروني
- ٧٠- نهج البلاغة ، جمع الشريف الرضي ، شرح الشيخ محمد عبده ، تحقيق الشيخ فارس الحسون ، مركز الابحاث العقائدية
- ٧١- وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، مؤسسة ال البيت عليهم السلام ، الطبعة الثانية ١٤١٤ هجري
- ٧٢- وهم الإله ، رتشارد دوكنز ، ترجمة بسام البغدادي ، موقع الكتروني
- ٧٣- وهم الشيطان ، ديفيد بيرلنسكي ، ترجمة عبد الله الشهري ، الدار العربية للطباعة والنشر - الرياض ، الطبعة الاولى ١٤٣٧ هجري

## المحتويات

٢	المقدمة
٥	توطئة
٥	في بيان بعض المفاهيم
٦	١- الإلحاد (( ATHEISM ))
٩	٢- الربوبية (( DEISM ))
١٢	٣- اللا دينية (( IRRELIGIOUS ))
١٣	٤- الارتداد
١٦	الفصل الاول
١٦	تأريخ الإلحاد
١٨	أبرز النماذج التاريخية للإلحاد
١٨	١- الذرية
١٩	٢- الأبيقورية
٢٠	٣- مذهب الشككية
٢١	٤- الدهرية
٢٣	٥- الزندقة
٣٣	دور آل البيت (( ع )) في مواجهة الإلحاد
٣٦	٦- العلمانية والثورة الفرنسية
٣٧	عصر النهضة
٤٢	عصر التنوير
٤٨	٧- الشيوعية
٥٢	٨- الإلحاد المعاصر والعولمة
٥٥	* خلاصة قصة الإلحاد
٥٨	الفصل الثاني
٥٨	فرضيات الملحدون حول أصل الدين
٥٩	١- فرضية الأرواح و الاحلام
٦٢	٢- فرضية الجهل
٦٧	٣- فرضية الفقر
٧٣	٤- فرضية الخوف
٧٧	٥- فرضية الأسطورة وعاطفة التقديس
٨٤	٦- فرضية الطوطمية والمجتمع
٩٠	٧- فرضية الصراع النفسي
٩٤	٨- فرضية انحراف الميمات الداروينية
٩١	القيمة المعرفية لفرضيات الملاحظة

١٠٠	أصل الفطرة الإلهية
١٠٧	* الخلاصة
١٠٩	الفصل الثالث
١٠٩	العلم بين الايمان والالحاد
١١٠	دعوى الصراع بين العلم والدين
١١٩	المبالغة في تقديس العلم
١٢٦	* الخلاصة
١٢٨	فرضية الانفجار الكبير
١٤٠	من الانفجار الكبير الى لا شيء
١٤١	* الخلاصة
١٥٣	فرضية التطور الدارونية
١٥٤	آليات التطور الداروني
١٥٥	مناقشة آليات التطور
١٦١	أدلة وشواهد التطور
١٦٢	مناقشة أدلة التطور
١٦٤	تهافت الدارونية بين الطفرة والتدرج
١٦٧	السجل الاحفوري والحلقات المفقودة
١٧٥	سر الروح وأصل الحياة
١٧٧	الدارونية وحشد البط والقروء
١٨٦	هل توجد ملازمة بين التطور و الإلحاد ؟
١٩٥	* الخلاصة
١٩٧	الفصل الرابع
١٩٧	الأخلاق بين الدين والإلحاد
١٩٨	حقيقة الأخلاق
١٩٩	أشهر مذاهب الملاحدة في الاخلاق
٢١٠	* الخلاصة
٢١١	الأخلاق الحميدة فطرة إلهية
٢١٢	الملازمة بين الأخلاق والايمان
٢١٥	حاجة الأخلاق الى الدين
٢٢٣	وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
٢٢٦	علي رمز العدالة الإلهية
٢٢٨	الحسين منار الانسانية
٢٣٠	الخلاصة في الدوافع نحو الإلحاد واسباب انتشاره
٢٣٢	المصادر